فرانتس كافكا

رسائل إلى ميلينا

الأعمال الكاملة 2

36

ترجمة: الدسوقي فهمي

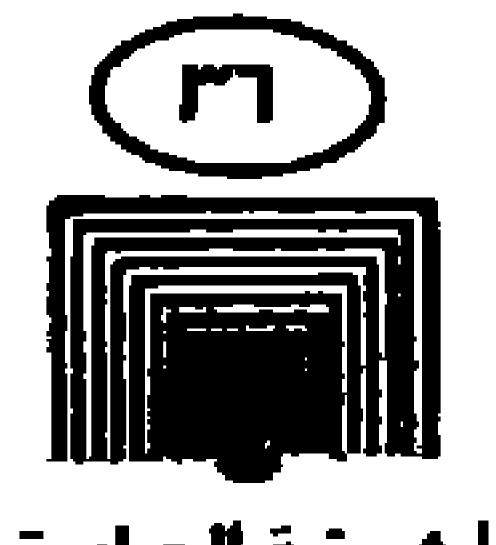


الهيئة العامة لقصور الثقافة



آفاق الترجمة

آفـــاق التـرجـمـة
ديـسـمـبـر ١٩٩٧
٣٦



الهيئـة العامـة
لقصور الثقافة

رسائل إلى ميلينا

(كافكا، الأعمال الكاملة ـ 2)

رسائل : فرانتس كافـكا
ترجمة : الدسوقي فهمي

لوحة الغلاف
للفنان الدسوقي فهمي

التصميم الأساسي للغلاف
عمر جهان

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي : ١٦ ش أمين سامي - القصر العيني - القاهرة - رقم بريدي ١١٥٦١

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

Letters to Milena

A Corgi Book

والمنشور ضمن كتاب

Martin Secker & Warburg Edition published 1953

Corgi Modern Reading Edition published 1967

الطبعة الأولى

تقديم

في رسائل كافكا إلى ميلينا، كان كافكا مشغولاً انشغالاً بالغاً بنقل أعمق مشاعره إلى إنسان آخر؛ وكانت ميلينا، التي كانت قد قامت بترجمة بعض قصصه من اللغة الألمانية التي كان يكتب بها إلى اللغة التشيكية؛ امرأة مرموقة لتميزها بميزات عدة ليس من بينها أنها المرأة التي أحبها كافكا؛ وكان الوسط الذي تتحرك في إطاره ككاتبة صحفية تحرر أبواب «الموضة»، إلى جانب كتاباتها الإبداعية القصصية، وترجماتها، وهو الوسط الأدبي في ڤيينا في السنوات التالية مباشرة لعام ١٩١٨؛ ليس هو الجو الذي يمكنها أن تتآلف معه بطبعها القلق، ذلك الذي أشبه ما يكون بقلق دستويفسكي؛ وإن يكن عندها قلق يتجاوز في حدته قلق دستويفسكي نفسه إلى أبعد مدى، وعلى أوسع نطاق. وكانت ميلينا عندما التقت بكافكا امرأة متزوجة؛ أما كافكا فكانت قد استغرقته بالفعل علاقته بـ (دورا ديمانت). لهذا لم يكن لتعلقهما المشبوب أن يبلغ أي غاية سعيدة، بل لقد بدأ هذا الافتتان العاشق يتحطم بالفعل بعد فترة لم تكد تبلغ العام.

أما الرسائل التي نتجت عن هذا التعلق فهي رسائله إليها؛ فقد فقدت رسائلها هي إليه وهذه خسارة بالغة نتج عنها بتر هذه النجوى الغرامية النادرة. ليست رسائل كافكا هذه إلى حبيبته ميلينا، رسائل مؤثرة غاية التأثير في ذاتها فحسب؛ بل هي فوق هذا رسائل تتجاوز المتوقع بين كاتب فنان كبير، ومعشوقة فنانة مثقفة

قوية الشخصية، متمردة ، مضطربة، بالغة الجاذبية؛ ذلك أننا يسعنا من قراءة رسائله هذه بالذات أن نلتقط لمحة من امتداد شخصية كافكا، لا يتاح لنا أن نحصل عليها من قراءتنا لكتاباته الإبداعية التى تخلط الواقع بالحلم، لتنتهى بهذا الامتزاج إلى إنجاز أمثولات أسطورية معلقة فى عالم الحياد المتأمل؛ ومقيدة، مكتوفة فى قالب الشكل الحديث المتفرد الذى انفرد به؛ كما لايمكن أيضاً الخروج بمثل هذه اللمحة لإمكانيات روحه للمعايشة فى «الواقع»، والافتتان به إلى هذا الحد، رغم أن هذه الرسائل، مع هذا، على امتدادها كلها من كل أشكال الحلم، وكل الصيغ الأسطورية. وتنقلها المفارقات التى تفاجئنا بالدهشة البالغة، لغرابة وواقعية تشكيلها الفنى الذى ينصهر فيه الحلم مع الواقع، يستغرق كل الاستغراق فى معايشة عشقه لميلينا، ويتجاوزه وهو يخاطبها هى نفسها فى وقت معا. فهو (يستخدم) تشبيه (الحفرة) فى الغابة كـ (مكان) فى إحدى الرسائل؛ ثم يعود ليستخدمه كـــ (حدث) فى رسالة أخرى، أو كـــ (موقف درامى)؛ ولا يمكننا أن نحصل على هذه اللمحة من قراءة (يومياته) التى كتبها بكل كثافة رؤيته على مدى السنوات من (١٩١٠ – ١٩٢٣)؛ ولا من رسالته الشهيرة (إلى الأب) ؛ أو رسائل رحلاته، ورسائله إلى الأسرة والأصدقاء؛ ذلك أن كافكا يتبدى لنا فى رسائله هذه إلى «ميلينا» إنساناً عذبا، قد زايله توتره مؤقتاً؛ يتبدى عاشقاً قد استرخى، فى غير انتباه، إلى حين، لآلهات النقمة اللائى يطاردنه كما يقول أحد نقاده، وهو (تشارلز أو سبورن) فى كتابه (كافكا) فى

سلسلة «كتّاب ونقاد» حيث يقول:

من المسلم به أننا نستقبل هذه الصورة فقط عند بداية المراسلة بينهما؛ عندما يقول كافكا فى رسالته إليها من (ميران):

«... إننى أعيش هنا فى خير حال، ولايطيق الجسد الفانى مزيداً من العناية، وتطل شرفة غرفتى على حديقة يحيطها سور، تزدهر فيها الشجيرات المزهرة. إن النباتات هنا غريبة؛ فالزهور تتفتح فى بطء أمام شرفتى، فى جو مثل جو براغ تتجمد فيه بالفعل برك المياه، وتتعرض شرفة الغرفة كذلك لأشعة الشمس، أو تتعرض للسماء التى تثقلها السحب إلى ما لا نهاية؛ كما هو حالها منذ ما يقرب من الأسبوع؛ وتزورنى فى الغرفة السحالى، والطيور؛ وأنواع متباينة من الكائنات؛ تزورنى أزواجاً أزواجاً؛ إننى أتوق فى لهفة بالغة إلى أن تكونى هنا فى ميران،....»

ويقف (أوسبورن) فى اقتباسه من هذه الرسالة عند (وتزورنى فى الغرفة السحالى، والطيور، وأنواع متنافرة من الكائنات)؛ وكان ينبغى له أن يضيف الجملة التالية الدالة، والتى تمثل نتيجة محتومة للمقدمة التى تهيىء المسرح؛ وتمهد للتشوف؛ «... تزورنى أزواجاً أزواجاً: إننى أتوق فى لهفة بالغة إلى أن تكونى هنا فى ميران؛ لقد كتبت لى أخيراً عن عدم قدرتك على التنفس؛ وفيما كتبته تتجاور الصورة مع المعنى إلى حد بعيد، وفى ميران قد تخف وطأتهما بعض الشيء.»

... مع أرق تحياتى.

....

ثم يواصل (أوسبورن) فيقول:

وبينما تتطور علاقتهما، تبدأ دوافع كافكا المهدمة للذات؛ تبدأ دوافعه هذه في نوبة جلد للذات، فتؤكد وجودها بهذا، لتصبح رسائله الغرامية هذه عندئذ أشبه ما تكون بفقرات (يومياته) المحمومة:

«السبب الذي يجعلني أتساءل عما إذا كنت لن تخافي هو أن الشخص الذي تكتبين عنه ليس له وجود، وإن كان الأخير يزيد عن الأول في انعدام وجوده، ولم يحدث أن كان له وجود؛ فذلك الذي في ڤيينا لم يكن له وجود، ولا كان لذلك الذي في جموند وجود؛ وإن كان الأخير يزيد عن الأول في انعدام وجوده، ويستحل عليه اللعنة علاوة على ذلك. وأن تعلمي بهذا لهو أمر هام؛ لأنه لو كان علينا أن نصل إلى اتفاق فيما بيننا فسوف يعود ذلك الشخص الذي في ڤيينا، أو حتى ذلك الذي من جموند إلى التواجد بكل البراءة، وكأن شيئاً لم يحدث؛ على حين أن الشخص الحقيقي في أسفل، ذلك المجهول للكل ولنفسه، والذي يقل وجوده حتى عن وجود الآخرين فلماذا لا يأتي ويظهر نفسه؟)- سوف يرفع يده في تهديد، ويحطم مرة أخرى كل شيء.

وعندما تذكر ميلينا (يواصل أسبورن التعليق) إنها كانت قد أصيبت بالأنفلونزا، فإن طريقة كافكا النموذجية في الربط ذهنيا بين هذه المعلومة وبين حالته هو الشخصية تؤدي به إلى أن يكتب لها:

«... وعلى هذا فقد أصبت بالأنفلونزا، حسناً، فليس لي على الأقل أن ألوم نفسي على تمضية وقت مرح هنا بصفة خاصة، أحياناً لا أفهم كيف اكتشف البشر فكرة «البهجة»، ربما كان قد تم تقديرها

على أساس أنها نقيض للحزن».

– والحياة (يواصل أوسبورن) التى كانا قد ظنّا فى وقت ما أن بإمكانهما أن يعيشاها معاً، اتضح لهما أنها كانت وهماً لا يمكن تحققه؛ وأخذت الرسائل تقل، ويتباعد تتابعها؛ أصبحت أيضاً أكثر تحفظاً؛ ويكتب لها كافكا قائلاً عند بداية هذه الرحلة الأخيرة المؤسية:

«لا يا ميلينا، إن إمكانية الحياة المشتركة التى ظننا أننا قد عشناها فى ڤيينا، ليست فى الإمكان، تحت أى شرط، ولا هى حتى كان قد أمكن وجودها وقتذاك. لقد تطلعت من فوق حافة سياجى الذى يفصلنى، تشبثت بقمة ذلك السياج بيدى، ثم... سقطت متراجعاً بأيد جريحة متسلخة».

وتكشف الرسائل الأخيرة عن إلحاح متزايد لفقرات الوعى بالذات، والشعور الذاتى، وتحليل الذات، التى يتتابع ورودها بصورة متصلة؛ ولعلمه بأن (وقته) كان محدوداً، فقد كان مهتماً بتقرير طبيعته بأقصى ما يمكن من الوضوح. تتدافع هذه الفقرات خلال معاناته من الإنهاك العصبى (النوراستينيا) : «ولا ثانية هدوء واحدة قد ظفرت بها، لم أنل شيئا... لا يمكننى أن أحمل العالم على كتفى، فأنا لا أكاد أحتمل عبء معطفى الشتوى فوقهما»، وتنتهى هذه الفقرات إلى قبول أو تقبل صافٍ، حزين، لحالته المعذبة، ليقول فى رسالته التى يشير فيها مرة أخرى إلى (الحفرة) «جرابن» التى كان يتكوم فى جوفها (كحيوان فى ظلام الغابة) عندما مرت به ميلينا فى إشراقها، فيقول:

قبل أن يخرج للنزهة، لم يكن عليه فحسب أن يغتسل، وأن يمشط شعره، وما إلى ذلك – وهذا وحده أمر مرهق بما فيه الكفاية – بل عليه أيضا(بما أنه يفتقر في كل مرة إلى ما هو ضروري لنزهته)، أن يخيط ملابسه كذلك، وأن يصنع حذاءه، وأن يقوم بتصنيع قبعته، وأن ينحت عصاه التي يتوكأ عليها في سيره، وهكذا. وبالطبع لايكون قادراً على أن يفعل كل هذه الأشياء على نحو جيد جداً فلعلها لهذا أن تتماسك كلها إلى بعضها البعض على امتداد بضع شوارع قليلة؛ لكنه عندما يبلغ – الحفرة – (جرابن) مثلاً، فإنها تتساقط عنه جميعاً كل منها في ناحية، ليقف هو عارياً هنالك وسط الخرق والأسمال (إشارة إلى حالته في الحفرة – في الغابة – فهو يختار شارعاً موجوداً بالفعل له اسمه الدال على حاله وسط خرقه وأسماله في ظلمة الغابة؛ على نقيض إشراق ميلينا وتألقها عندما مرت به في حالته هذه (أو بهذه المرحلة من حياته) و ... «يجيء الآن دور العذاب في جريه راجعاً إلى (ساحة ألت شتيتر)، وربما يندفع في نهاية الشوط وسط غوغاء التأموا في حلقة شرك نصبوه لليهود في حارة «آيزن».)

– لا تسيئي فهمي يا ميلينا ، فأنا لا أقول بهذا أن هذا الرجل قد ضاع؛ لا، أبداً؛ لكنه يكون قد ضاع إن هو ذهب إلى (جرابن) – الحفرة–، حيث يجلب الخزي على نفسه، والعار على العالم.

أما «إيريش هيللر» فيؤكد في كتابه (فرانتس كافكا) في سلسلة (أساتذة الأدب الحديث)، على نفس المعنى الذي أشار إليه (أسبورن) حيث يقول في سياق دراسته بعنوان (الزواج أم الأدب) التي تناول

فيها رسائل كافكا إلى خطيبته (فيليسه باور)، فى إشارة إلى رسائله أيضاً إلى ميلينا بقوله:

«فى نهاية يناير ١٩٢٢ تساءل كافكا، وكان قد لجأ إلى منتجع «شبندله» فى بوهيميا، كيف يمكن أن يبدو له الحال لو أن ميلينا، تلك المرأة التى كان عشقها قد سيطرعلى حياته عندئذ، قد صحبته إلى هناك»

كان من الممكن بالطبع أن يمنحه ذلك قدراً من البهجة، لكنه كان قد رآه أمراً مزعجاً: «فسوف أكون قد ألقيت بنفسى فى خضم عالم لا أحتمل العيش فيه» ثم ينتهى إلى أنه «لايبقى أمامه – فقط سوى – حل اللغز الذى يتمثل فى السبب فى سعادتى لأربعة عشر يوماً فى مارينباد». وأيا كان حل اللغز، فإن إجابة ما، طبقا لإحدى فقرات (يومياته) فى مارينباد؛ هو – أنه لم يكن سعيدا كل تلك السعادة؛ أو أن سعادته على الأقل لم تستمر أسبوعين. وأيا كان ما أحسه بهذا الخصوص قبل سنوات، فهو يقول فى هذا التوقيت (من عام ١٩٢٢)، إن «الوقت» كان قد فاته طويلاً؛ فلندع الآخرين يحبون أو يمارسون الحب، أما بالنسبة له ، فقد أصبح هذا أمراً غير وارد (الآن) بالمرة. «إننى أبعد عن هذا غاية البعد، إننى منفى طريد بعيداً عن هذا».

ولهذا كان قد كتب إلى ميلينا يقول:

«لا أحد يتغنى بمثل تلك الأصوات الصافية، كما يتغنى هؤلاء الذين يعيشون فى عمق أغوار الجحيم، وإن ما نحسبه غناء الملائكة أنفسهم إنما هو غناؤهم».

ويضيف «إيريش هيلر» قوله:

«وكمـا أن تمثـيل (هـاملت) لـم يكن سـوى شـفـرة تقـدم تـأثيـراً مسـرحـيـاً لموقف يضطر فيـه (الشـخص الذى فى الداخل) إلى أن يتحول إلى شخص آخر بمجرد أن يصبح فعالاً فى المحيط الخارجى؛ فكذلك كان أسلوب كافكا فى (الخداع بلا مخادعة) وهى صيغة أكثر رقة لترجمـة العبارة التى شـخص بهـا كـافكا نفسـه، عندمـا وصف خطوبته الأولى فـى يومـياته (٢٣يوليـو ١٩١٤) بأن «فعله كـان فعـلاً شيطانياً فى براءتى».

... كما يتهم (الأب) ابنه فى قصة (الحكم) : «طفل برئ، هذا ما كنته أنتَ حقاً، لكن مـا هو حق أكثر منه هو أنك كنت كائناً بشرياً شيطانياً».

– فـهذا هو السـؤال الذى توجهه رسـائل كافكا الغراميـة – وهـى رسائل تختلف كل الاختـلاف فى (شكلها) عن أية رسـائل غرامية فى الأدب كله، – وتوجه رسـائل إلى ميلينا هذا السـؤال فى إلحـاح مزعج؛ فمـا هـى طبيـعة العلاقة بينه وبين الأشياء التـى كان قد قبلها عرفياً بشكل مـا، بتعذيبه لذاته، ويميل شبه دينى، تلك (الأشيـاء) التى تؤلف فى رؤيته، واقع العالم الخارجى.

وهل كـانت حيـاته الداخلية تنتمى إلى ذلك العـالم الخـارجى على نحـو (طبـيـعى)؟ أى على نحـو قـابل للوضـوح؛ أو على نحـو يسـمح بإمكانية للتعبير عنه فى وضوح، لوكان التعبير عنه ممكناً أصلاً.

لم يكن ذلك التعبير الواضح ممكناً من خلال (فنّه) وحده، ولا كان حتى ممكنـاً عن طريق فنه أن يتواجد ولو فى صيغة يكتنفها شكل ما من أشكال الإبهام على نحـو مـا؛ ذلك أن فنه هو فن بالغ الحدّة، بالغ

الإزعاج في إبهامه، يتباين عن كل أشكال الكتابة الأدبية المعروفة.

وحتى (ميلينا)، موضع (عشقه) على امتداد تلك الفترة المحدودة، مع كونها أكثر وعياً، وأكثر ثقافة، وأكثر وضوحاً وتحدداً من خطيبته (فيليسه)؛ وأكثر منها عمقاً في عنف عاطفتها المشبوبة الملتهبة، وفي نجاحها في إثارة عواطفه الكامنة، مع أنها لم تكن تنتظر، فوق هذا كله، أن يتزوجها؛ كانت متآلفة غاية الألفة مع هذه الأسئلة، ومتوافقة مع إجاباتها النافية السلبية؛ ذلك أنها كانت تعرف أن (جوهر وجوده) هو (الخوف)؛ وهو أيضا ذلك القلق الذى يثور كأنه استنشاق لسموم متصاعدة من تلك (الفجوة) بين «ذات» وبين «عالم».

... فهل لنا أن نتساءل: مثل مَن من أسلافه العشاق، وعلى درب من كهنة ذلك المعبد المسمى بـ «المرأة» تراه قد سار؛ ومن هو سلفه الأقرب في نوبة العشق اللامعقولة هذه التي انتابته (روحيا) وهو على حافة الموت، والتي استبدل بها ، وهو «يحتضر» بالفعل «نوبة عشق» من نوع آخر مع (دورا) في أيامه الأخيرة، في المصحة التي قضى نحبه بها؛ وإن كان قد حول هذه «النوبة» الروحية مثل فعل عاشق لامعقول آخر سبقه، إلى صفحات فن أو عشق، مكتوبة نابضة!

فلنعد إلى رسالة دالة من بين رسائله هذه، لنستدل بها، و كنت قد قمت بترجمة شذرة أيضاً من بين ما ترجمت من كتاباته القصيرة بعنوان «إبراهام»، تقدم هي أيضا قصة (الفداء) اللامعقول في قصة «إبراهيم» الخليل، ومفارقات الأمر الموجه إليه بتقريب (ابنه) (قرباناً ذبيحاً) بالسكين؛ ثم افتدائه بالكبش أو ... بالكتابة في حالة كافكا؛ و سلفه العاشق الفيلسوف (سورين كيركجارد) الدانمركي...

ففى (رسالة) أحد أيام الخميس يتحدث كافكا عن (خوف ورعدة) الأنبياء عند سماعهم لنداءات ونذر؛ ويتحدث إلى ميلينا عن جدارتهم بسـمـا ع تلك الأصـوات؛ هذه الجـدارة التى قـد يكتنفـهـا الشك فى أحيان...

ويبـدو تأثره (وإن لم يكن تأثرا مباشـراً) بمدخل رسالة (الخوف والرعـدة) «الفلسـفـيـة» هذه المرة والتى كـان قـد كـتـبـهـا (سـورين كيركجارد) بديلاً عن الكبش الذى افتدى به معشوقته (ريچينا) (حتى الاسم وموسيقاه هى أيضاً)، ورأى فيها وحيدته التى افتداها برسالة فلسفية (كانت تستمع بقراءتها مع زوجها بصوت عال دون أن تدرى مدى المفارقة) عن «العبث» واللامعقول فى قصة (إبراهيم واسحق) «فى الكتاب المقدس» و (إبراهيم واسماعيل) فى القرآن...

و... «لكى يلزم المرء جانب الأمان من الأفضل له أن ينكر مقدما، وبشدة تلك الأصوات...»

... تختلف كل رسالة عن الرسالة التى تليها وترتعد أكثر من الردّ...

كان كافكا قد قرأ كتابات (كيركجارد) فى عام ١٩١٨، أى أن قراءته له كانت ماتزال حيّة فى (وعيه) أو فى (لاوعيه)، فى زمن نوبات عشق حياته الأخيرة تلك...

وقرأت. وأعود مراراً إلى قراءة (الخوف والرعدة) التى ارتاد فيها «كيركجارد» مواجهة قضية اللامعقول أو (العبث)، مع رسالته الفلسفية المكملة لها (الموت مرضاً) والتى واجه فيها قضية (اليأس) فى طبعة «أنكور» ١٩٥٤، فى ترجمة (وولتر لورى)؛ وكنت قد علمت

أن مترجم الفلسفة والصديق الذى عرفته فى أواخر أيامه،فاشتدت فجيعتنا بفقده، المثقف الكبير «فؤاد كامل» المدير العام الأسبق لإذاعة البرنامج الثانى كان قد ترجم هذه الرسالة الفلسفية بعنوان (الخوف والرعدة) فى طبعة يبدو أنها كانت (محدودة) لأننى لم أعثر عليها؛ سمعت فقط بعنوانها فاستخدمته هنا اعتزازاً (الخوف والرعدة)، وكان (فؤاد كامل) دقيقا فى تعبيره، وموهوباً وقديرا فى ترجماته الفلسفية والأدبية؛ فطالما عرف قراء العربية أو «سمعوا» عن هذا العمل (لكيركيجارد) باسم (الخوف والرعشة).

و... كانت أعمال كافكا فى الحقيقة تضيف إلى الثقافة اليهودية لأوربا الوسطى أو تشكلها فى قالبه المتحور المظلم والمستحيل؛ ليصبح بذلك (رائياً) للأعماق القديمة يكتشفها، ويحاكيها بقوة تتجاوز المعقول، كما يفعل كل مبدع خلاق وهو يعيد صياغة الأشكال الأصلية للاشعور.

وكان كافكا قد تعلق فى إصرار ومثابرة بمسرح (اليديش) وهى لغة يهود أوربا الوسطى والاتحاد السوفيتى السابق)؛ وكان قد (حلم) أيضاً فيما حلم بفلسطين، كى يستعيد نقاء حياة نباتية منعزلة؛ وحلم (بقصر فى إسبانيا) حيث كان يعيش أحد أعمامه حياة باذخة، وإذا كان قد رأى أن «الصهيونية» هى «تجديد» معنوى!، فليس ثمة ما يثبت أنه قد شارك فيها بالفعل بنفسه، وربما كان (المرض) هو ما أسرع بمنعه من الانخراط فيها بدوره.

لقد عاش كافكا سجينا لجذوره اليهودية؛ مرتبطا بالخطيئة والفشل و الألم والموت؛ حالماً معذباً فى (هبوطه إلى القوى المظلمة)؛

كان كاتباً يحترف تعذيب نفسه (قرباناً) للإبداع.

وكانت تتملكه (الرغبة في الموت) كما كتبت عنه ميلينا نفسها؛ وقد أوضحت «يانا تشيرنا» (ابنة ميلينا) أخيراً في كتابها عن أمها بعنوان (حياة ميلينا من براغ إلى ڤيينا) (طبعة مارن سل ١٩٨٨)، تفكك أوربا الوسطى فعلياً، وأشارت إلى عدوى الماركسية التي كانت قد أصابت أمها (ميلينا)، الذكية المستقلة، بتأثير «كوخ»، الذي أعقب كافكا في تأثيره عليها؛ قبل أن تتكفل النازية بأمر الماركسية في تلك البلاد.

وكان كافكا قد رأى بنفسه (في يومياته) على أنه («صيد» يُشوى على السيخ فوق النار؛ مهيأ للطهي والتقطيع... كان قد رأى نفسه «وسط هذه النيران» قطعة غريبة من اللحم).

ومع ذلك، لم يكن (التمساح الصغير) كما أطلق عليه أحد مدرسيه، يفتقر إلى الأسنان والأنياب، وإن كان يدخر أقوى قدراته على (النهش) لإنجازات أخرى...

كان يعمل «بضراوة ساحرة، تدعو للغيظ، وتثير الشفقة» مستهدفا أن يجثو الآخرون عند قدميه. وكان يحتمي خلف درع من السخرية؛ محركاً من عمق (جحره) «قرون استشعاره» تحت أنف «والده» (الذي كان يمثل له تجسيداً لكل أشكال السيطرة والتسلط)...

... وانتهى الحب المستحيل، ولم يتبق منه سوى آثار (نبش أظافره المتشنجة) في (هكذا تحدث إلى «جوستاف يانوش»)؛ ولنا أن نتساءل؛ مع تسليمنا بغرابة أطواره، هل كان حقا قد طلب جاداً من (ماكس برود) أن يحرق مخطوطات كل أعماله؛ إشعالاً لنيران الندم

تحت قدميه؛ بما أنه لم يكن له سوى أن يهدم أو يخون.

... أليست هذه (قضية) أخرى؛... بلا قضاة؟

... ولما لم يكن هناك (ضحية) أخرى غيرنا نحن قراءه؛ فلنتأمل هذا الجزاء الهادئ البديع... فنمتع أنفسنا بمتعته في... الكتابة.

و ... قد سبق أن نشرت ترجمتي لرسائل كافكا هذه إلى ميلينا في جريدة (المساء) بعنوان (رسائل إلى ميلينا – فرانتس كافكا – ترجمة ورسوم...) في حلقات يومية متصلة بلغت (١١٥) حلقة، بدءاً من ١٩٧٨/٧/١٤ وحتى ١٩٧٨/١١/٨، ومصحوبة برسومي في كل حلقة من حلقاتها، لأهم الشخصيات الأدبية الواردة بها (بالإضافة إلى رسوم لأفراد أسرة كافكا)؛ وكنت قد أنجزت في نهاية عام١٩٧٢ (بعد أن فرغت من إتمام هذه الترجمة كاملة (فيما عدا مسودات لعدد من الرسائل، راجعت ترجمتها أخيراً)، لوحتين بألوان الجواش مع الفحم (بورتريه لكل من ميلينا ييزينسكا – بولاك، و «دورا ديمانت») عن صور تضمنها (مع الكثير غيرها) كتاب (كافكا، بقلمه) لـ (كلاوس ڤاجنباخ)...

الدسوقي فهمي

«كتابة الرسائل... معناها أن يتجرد المرء أمام الأشباح. وهو ما تنتظره تلك الأشباح فى شراهة. ولاتبلغ القبلات المكتوبة غايتها. ذلك أن الأشباح تشربها فى الطريق»

(كافكا إلى ميلينا)

· عرف فرانتس كافكا، (ميلينا ييزينسكا Milena Jesenska)، فى بداية الأمر باعتبارها مترجمة بواكير أعماله القصيرة إلى اللغة التشيكية، ولعل مآل هذا التعرف إلى علاقة عاطفية، قد تلا ذلك فى رسائله من (ميران) فى عام ١٩٢٠: فلم تكن بالفعل سوى لحظة – هى تلك اللحظة التى تحقق فيها (كافكا) من أنه ليس حرا فى اتخاذ قراراته. فلم يكن له أن يعود من (ميران) إلى (براغ) عن طريق (ميونيخ)، أو عن أى طريق آخر، كما لم يسعه أن يزور أحد ينابيع المياه المعدنية فى (بوهيميا)، بل كان عليه بدلا من ذلك أن يرحل عن طريق(ڤيينا) – لأن (ميلينا) التى كانت تعيش فى تلك المدينة كزوجة تنهار حياتها الزوجية شيئا فشيئا، كانت قد طلبت منه ذلك – ، ولم يكن وضع (كافكا) بالفعل مختلفا عن وضعها، فلم يكن حرا هو أيضا، ذلك أن خطيبته كانت تنتظره فى براغ، وكانت تلك الخطيبة تتطلع إلى إتمام القران بأسرع ما يمكن، رغم أن أملها فى تحقق ذلك لم يكن يعدو أمل خطيبته السابقة، تلك التى نعرفها فقط باسم (فتاة برلين). وفى كلتا المرتين – أو ربما فى المرات الثلاث – فقد اتضح أنه كان قد خطب فتاة منهما مرتين – يبدو أن فسخ الخطبة قد سبب أزمة خطيرة فى حياة كل من الفتاتين.

وبدا من ناحية أخرى أن انفصال (ميلينا) البطىء عن زوجها، كان مقدرا له أن يتم دون أى أزمات، كما حدث بالفعل بعد بضع سنوات.

وتكشف (يوميات كافكا) عمق هذه العلاقة، فاسمها، أو الإشارات التى لاشك فى أنها تشير إلى (ميلينا)، تتكرر المرة بعد المرة خلال عامى ١٩٢١، ١٩٢٢. وقد بدأت الإشارة إليها لأول مرة فى أكتوبر

١٩٢١، عندما أشار (كافكا) إلى أنه قد أعطى(م) يومياته كلها لكى تقرأها، وأنه بهذا يكشف أمامها فى الحقيقة، قلبه وضميره. وفى أول ديسمبر يشير إلى أنها قد اتصلت به تليفونيا أربع مرات (فى منزل والديه فيما يبدو)، وإنها على وشك الرحيل . (أهدأ أربعة أيام حافلة بالعذاب)، ويضيف: (... إنه طريق طويل يبدأ من حالة اللامبالاة هذه، لينتهى إلى النقطة التى عندها سيسبب لى رحيلها أسفا لا حد له، الأسف، وأعترف بهذا، ليس هو أقصى الشر)، وفى اليوم التالى: (دائما «م»، أو ليست «م» – لكن مجرد مبدأ، ضوء فى الظلام!)، وفى ١٨ يناير١٩٢٢: (ما الذى فعلته بهبة الجنس التى وهبت لك؟ لقد كانت فشلا، أو أن هذا هو كل ما سيقولونه فى النهاية. لكن ربما نجحت فى يسر... «م» على حق، إن الخوف معناه التعاسة).. وفى اليوم التالى يظهر فى اليوميات بوضوح مسودة رسالة لعله لم يرسلها إلى«ميلينا» أو لعل«ميلينا» لم تحتفظ بها: «بسبب عديد من الإشارات العارضة التى أخجل من ذكرها، كان انطباعى بأن زياراتك الحالية كانت رقيقة حقا، ونبيلة، لكنها ترهقك إلى حد ما على الرغم من ذلك، وهى على نحو ما مفروضة أيضا، كالزيارات التى يقوم بها المرء لمريض، هل انطباعى صحيح؟، هل وقعت فى اليوميات على دليل من الأدلة الدامغة ضدى؟).

وفى ٢٣ يناير، كان (ربما فى رسالة) قد أخبر ميلينا عن (الليل)، وفى مناسبة أخرى قام بتحليل إحدى ملاحظاتها عنه. ذات مرة فى آخر يناير فى (شبندلموله)، كتب : (لو أن «م» مثلا، تأتى إلى هنا فجأة، لبدا هذا مرعبا)، ذلك أنّ زيارتها، بعبارة أخرى (وكافكا صادق هنا مع نفسه، فعبارته هذه لاتنطوى بالمرة على أى معنى من

معانى المرح) سوف ترفع إلى أقصى حد، قدره كبورجوازى فى تلك القرية الجبلية البهيجة. ولقد أشار كذلك إلى أنه كان قد نعم بالسعادة من قبل مع «م» فى (مارينباد)، وعلى هذا فسوف يتذوق هذه السعادة مرة أخرى – (وإن كان ذلك، لن يتم بالطبع، إلا بعد انهيار الحواجز، المؤلم!)،

هنا تبدأ العلاقة بالفعل في التحلل: (فما تعودنا على أن نعتبره خيطا فاصلا أصبح الآن حدا، أو سلسلة من الجبال، أو على نحو أكثر دقة، قبرا).

وفى ٦ أبريل، نجد ملاحظة غريبة: (رسالة مفصلة إلى ميلينا، الطيور الثلاث، الطيران إلى الغابة، ميلينا)، وربما كان ثمة ما يتعلق بميلينا أيضا فى (إيماءة الرفض) – اليوميات، فقرة ١٢ فبراير ١٩٢٢– التى تنتهى بكافكا إلى : (لايسعك أن تحبيننى كما تودين لو تفعلى، إنك تعسة فى حب «حبك لى»، إلا أن «حبك لى» ليس فى حالة حبى لك).

قد يكون ما تقدم بضع فقرات مميزة من الرسائل، على الرغم من قصرها، على أننا لا نملك فى تلك الرسائل قصة الحب العنيفة بأكملها – عربدة اليأس – الهناء – تمزق النفس، وإذلالها . ذلك أنه على الرغم من أنهما قد التقيا مرارا، إلا أن غرامها لم يكن فى جوهره سوى(رسالة غرام)، كما كان غرام (فيرتر)، أو (كيركجارد).

***

انحدرت ميلينا من واحدة من الأسر التشيكية العريقة، فى مدينة (براغ)، تلك الأسر التى يمكن أن يطلق عليها لقب أشراف تشيكوسلوفاكيا الحقيقيين. وقد نقش اسم أسرتها بالحروف الكبيرة

فوق اللوحة الرخامية الهائلة التى أقيمت فى صدر ميدان مدينة (براغ) القديمة تخليدا لذكرى أحد أسلافها، وهو الأبطال البارزين فى تاريخ تشيكوسلوفاكيا، وقد أعدمته أسرة الهابسبورج الحاكمة فى أعقاب المعركة التى دارت فوق (الجبل الأبيض). وأحيانا ما تفاجىء المرء هى نفسها، بطلعتها الشبيهة بطلعة نبيلة من نبيلات القرن السادس عشر، أو السابع عشر، وشخصيتها الشبيهة بتلك الشخصيات النسائية التى التقطها (ستندال) من تاريخ إيطاليا القديم، ونقلها إلى رواياته، من مثيلات دوقة (دى سانسيفيرينا)، أو (ماتيلدا ديلامول): فلقد كانت على غرارهن عاطفية، باردة وذكية فى قرارتها، لكنها طائشة فى اختيار الوسائل عندما تضطرم عواطفها، ويبدو أن عواطفها فى فترة شبابها، كانت متأججة على الدوام، وكانت فياضة فى مشاعرها كصديقة، لا يقف حنانها عند حد، كما لم تكن تنضب لها موارد وإن ظل مصدر مواردها تلك غامضا فى أغلب الأحيان، ولم تكن مطالبها أيضا تقف عند حد، تلك المطالب التى كانت تطالب بها أصدقاءها، وكانت مطالبها تلك تبدو لها طبيعية، وكذلك كانت تبدو أيضا فى نظر أصدقائها.

ولقد قاست، وتألمت فى بؤس تحت وطأة الاضطراب الوجدانى الثقافى الذى كان يطبع الأوساط الأدبية فى مقاهى (ڤيينا) خلال السنوات الحالكة التى أعقبت عام ١٩١٨، وكانت أجمل سنوات حياتها قد انقضت بلا شك قبل هذه الفترة، فى (براغ) عندما كانت لاتزال صبية صغيرة جدا.

بدت (ميلينا) خلال تلك الفترة كل شىء، إلى حد بالغ التهور. بدت حياتها، ومالها، وانفعالاتها، وأحاسيسها الخاصة، علاوة على

تلك المشاعر التى عرضت عليها، والتى كانت تعتبرها ممتلكاتها غير المشروعة، وكان يسرها أن تتخلص منها.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان (كافكا) يدعوها (الأم ميلينا)، ولم يكن هذا بلا مبرر. ففى هذه الرسائل نكر (كافكا) ما تتمتع به (ميلينا) من (عدم القدرة على أن تتسبب فيما يدفع غيرها إلى المعاناة)- ولقد كانت هذه حقيقة طالما أعلنها (كافكا)، على الرغم من معرفته بثورات غضبها التى كان يتغاضى عنها، والتى كانت انعكاساتها المؤسية، المضحكة، تملأ الرسائل.

ولم تكن (ميلينا) بالطبع، فاتنة بالمعنى الفج - بمعنى أنها حاولت إغراء الرجال، أو حاولت حتى إغراء ذلك الرجل ذاته، الذى كانت تعتبره (شاعرا)، ذلك الرجل الذى اكتشفت عبقريته، وأدركتها قبل أن يدركها أغلبية من كانوا يحيطون به، أو يحيطون بها من الناس بوقت طويل. لقد صدمت لأنها كانت تحب، ولأن عليها لذلك أن تسلك سلوك العاشقة حتى ولو لم يكن من تحبه سوى مجرد شخص غبى لا قيمة له.

لاشك فى أنها قد عانت، ولقد نالت منها المعاناة - أولا: لأنه كان قد عانى، وأيضا لأنها كانت قد أحست أن المعاناة كانت هى السبيل الوحيد الذى قد يتيح لها أن تحقق نوعا من الحوار الجذرى معه. فعلى الرغم من أن المرء قد يتاح له أن يلتقى بروح كروحه فى شوارع الضواحى الهادئة، وفى فنادق (فيينا)، وفوق المروج الصيفية المعشبة، وفى الغابات التى تحيط (بفيينا) و(ماند) - إلا أنه لم يكن فى وسع المرء حقا أن يندمج بروحه، على الرغم من ذلك، سوى فى الجحيم. ولم يكن مما يبعث على الدهشة أنها كانت معرضة بدورها

للإصـابة بمرض فى الرئـة، ولو لم يكن هذا سـوى لمجـرد أنه كان قـد أصيب بذلك المرض -، أو أن هذا ما توهمته على الأقل، ولقد بلغ بها الوهـم، حتى أن الدم قد انبثق بالفعل من فمها.

(أنت يا من تعيـشين حـيـاتك بمثل ذلك العنف، ومن عـمق تلك الأعماق)، هكذا خاطبـها (كافكا) ذات مرة، فى إحدى هـذه الرسائل، ولايوجد من هـو أجدر منها بهـذا الوصف، إلا أنها لم تكن رغم ذلك (مـهيأة للمعاناة)، كما لاشك يمكن أن يزعم كاتب تلك الرسـائل التى بين أيدينا، فـإن كانت قد عانت فـى تلك الحـالة، وكانت قـد عانت من خلاله، فقد كانت معاناتها تلك جزءا من شهيتها للحياة، بل لقد كانت معاناتـها تلك جزءا من استـمتاعـها بـالحيـاة. وسـوف لا نتعقب، فوق ذلك، تلك النزعـة السـلافـيـة التـقليـديـة إلى التـألم، لن نتـفـحـص تلك النزعة، على الأقل، خلال تلك الفترة التاريخية بالذات، كما أنه لم يكن مصادفة أن كان (دستويفسكى) هو كاتب (ميلينا) المفضل.

فلو كنا أحيانا - أو حتـى غالبا - قد تلقينا انطباعا بأن (ميلينا) فى صـورتها هذه، تقدم لنا نموذجـا أفضل، وأكثـر صراحـة، وأوفر صحـة، وأبلغ إنسانية منه (وسيكون هو بلا شك أول من يوافقنا على ذلك)، فليس لنا أن ننسى أنها بكل رغـبتـها فى الحياة، لم تكن على الرغم من ذلك، لتتمكن من أن تتنفس هواءه المثقف ذا التوتر الكهربى العـالى، وأنها على الرغم من أنهـا قد حركت أعـمق أعماقه - فلقد منحته، لو كان لنا أن نصدق رسائله، حقا، حياة جديدة - ومع ذلك، فغالبا ما كانت تثير أعصـابه بسهولة، حتى كانت النتيـجة التى انتهى إليـها الأمـر فى النهـاية، أن أصبح استـغراقـه قليلا فـى النوم، أهم كثيرا عنده من رسائل (ميلينا) الملتهبة.

ولقد قال لي كافكا في أواخر أيامه: (لابد لى من أن أعترف بأننى قد حسدت شخصا ما، ذات مرة، حسدا بالغا، لأنه كان محبوبا، ومتمتعا برعاية فائقة، ومزودا بالعقل، والقوة، ولأنه كان يستلقى تحت الأزهار، إننى دائما سريع الحسد).

ولقد وجد (كافكا) تلك السعادة التى تثير الحسد، فى أواخر أيامه، قبل أن يستلقي تحت الزهور، فقد كانت الشهور الأخيرة من حياته، أسعد الفترات التى عاشها، كان يشيع فيها سلام لم تعهده عاطفته المتأججة الصاخبة، الذابلة، المتلاشية نحو (ميلينا).

أما عن نهاية (ميلينا)، فتقول لنا (فراو مارجريت بوبر– نويمان) فى كتابها القيم «فى ظل دكتاتورين»[1]، أنها كانت زميلة «ميلينا» فى معسكر التجميع فى راڤينسبروك، حيث زج بهما وسط المومسات، وعتاة مجرمى «هامبورج»، وحيث شهدتا لرعبها، ذلك الاستمتاع السادى الذى كان أطباء النازى يمارسونه، بإجراء التجارب العلمية على أجساد الأحياء من النساء.

وقعت «مارجريت بوبر – نويمان»، كما وقع غيرها تحت تأثير سحر «ميلينا» الإنسانى، ذلك التأثير الساحر، الذى ظل مفعوله قويا، حتى تلك السنوات المتأخرة التى تخطت «ميلينا» عندها سن الشباب، وازدادت سمنة على نحو ما، تقول «مارجريت بوبر – نويمان» : (كنا صديقتين، ميلينا وأنا، منذ الساعة الأولى التى أمضيناها معا، ولقد دامت صداقتنا طوال سنوات أربعة مريرة، انقضت فى صراع الحياة والموت بداخل المعسكر)، وتضيف قائلة: (إننى أشكر حظى

١) عنوان الطبعة الألمانية الأصلية للكتاب . (حين كنا أسرى ستالين وهتلر)، ومنه اقتبسنا الفقرات التالية : – Als Gefangene bei Stalin und Hitler

الذى جاء بى إلى راڤينسبروك، وأتاح لى فرصة الالتقاء بميلينا. كان يتملكنى خوف شديد منذ اليوم الأول للقائنا، كلما تطلعت إلى وجهها الذى كان يرتسم عليه الألم. كانت قد جاءت مريضة إلى المعسكر من سجن الأبحاث فى درسدن، وكانت تظن أنها تعانى من الروماتيزم، كانت يداها متورمتين، وكانت تتألم باستمرار، كما كانت عند تلاوة الأسماء فى ساعة التمام ترتعد من البرد فى أسمال السجن، ولم تكن تجد تحت البطاطين الرقيقة شيئا من الدفء، لكنها كانت إنسانة قوية، ولقد نجحت دائما فى تبديد مخاوفى. وفى عام ١٩٤٠، كانت ميلينا لاتزال على شجاعتها، كانت أبعد ما تكون عن الانهيار، وكانت تحتفظ بقدرتها على المبادرة. كانت أبعد ما تكون عن اكتساب شخصية السجينة المستكينة وتعقلها، ولم تتحول ميلينا مطلقا إلى «نزيلة»، فحواسها لم تكن لتخمد، ولم تتمكن منها اللامبالاة والتبلد، كما تمكنت من غالبية الآخرين.)

ولقد نجت ميلينا لهذا بالفعل من «عزل» المرضى، الذى كان يؤدى مباشرة إلى غرف الغاز والأفران.

وتقول مارجريت بوبر – نويمان، فى مناسبة أخرى:

(لقد تملكتنى إحساس هائل بالفزع من توقع موتها، فلقد سمعت أناتها فى الليل، وهى تستلقى فوق الحشية المصنوعة من القش).

– «آه، لو قدر لى أن أموت دون أن أعانى سكرات الموت، لا تتركيننى أهلك وحيدة، كما يهلك الكلب»

.. «ولقد اعتقدت طوال الوقت الذى أمضيته إلى جوارها أحاول أن أهدئها، اعتقدت أنها ستشفى، وتتمتع ثانية بحريتها. لكننى فجأة فى ظلام الزنزانة، رأيت المستقبل فى جلاء، وتبينت أنها كانت قد

ضاعت سدى»

ولقد تمكنت من مواصلة الحياة لفترة قصيرة، لخوفها الشديد من عمليات عزل المرضى، ومن (الحقن) التى كانوا يرسلون بها المرضى من النزلاء إلى الراحة الأبدية.

وماتت ميلينا فى ١٧ مايو ١٩٤٤، من جراء عملية فى الكلى، يبدو أنها كانت قد أجريت بعد فوات الأوان.

تقول مارجريت بوبر - نويمان: (وفى تلك اللحظة، فقدت الحياة معناها بالنسبة لى)

وفى ١٠ يونيو، بلغت المعسكر أنباء الهجوم الناجح.

(فلماذا أواصل الحياة إذا كانت ميلينا قد قضت؟) بهذه الكلمات تختتم مارجريت بوبر - نويمان مذكراتها عن السنوات الأخيرة فى حياة (ميلينا)... (فطالما كانت ميلينا على قيد الحياة، كانت الحرية عندى أن أرى معها ثانية أول مدينة، أن أدخل معها أول غابة...»

لقد تأخرت الحرية على ميلينا...

و... أيضا تتجدد الذكرى... «فيلى هاس».

من مصنف الرسائل

أتوجه بتحياتى الصادقة أولا إلى الشاعر (ماكس برود) صديق (كافكا) ومحرر كتاباته بعد وفاته، لإسناده تحرير هذه الرسائل إلى. وكنت قد تسلمت هذه الرسائل من صديقتى المبجلة (ميلينا) فى ربيع عام ١٩٣٩ فى براغ- بعد دخول القوات الألمانية بفترة قصيرة، ولما لم أتمكن من أخذ هذه الرسائل معى عند هربى، فقد بقيت محفوظة فى أمان لدى أقاربى فى (براغ) خلال تلك السنوات المشؤومة حتى عام ١٩٥٤. ولدى كل ما يدعونى إلى أن أقرر مطمئنا أن (ميلينا) لم

تكن لتعترض على نشر هذه الرسائل بعد وفاتها، كما حصلت أيضا على موافقة زوجها، الذي توفي عندئذ، في وصيته الأخيرة، وقد كان له في هذه المراسلات دور لا يمكن حذفه.

ولما لم تكن هذه الرسائل تحمل تواريخ على الإطلاق، فقد تجشمت عناء بالغا في ترتيبها زمنيا، إن قيامي بترتيبها المرة بعد المرة بناء على مئات الإشارات، والإيماءات غير المباشرة، واستنادا إلى بعض المعلومات التي اعتمدت عليها كدليل أهتدي به (كاحتفال الـ HUS في براغ، والاحتفال بالعيد السنوي للجمهورية الفرنسية، وعيد ميلاد ميلينا، وترقيم عدد من الرسائل بأرقام مسلسلة إلخ...)، كل هذا اقتضاني جهدا استغرق شهورا عدة. لم أضطلع بإنجاز هذا العمل وحدي، كما أنني أبعد ما أكون عن الإصرار على نجاح هذا العمل الذي قمت بأدائه، نجاحا لايقبل المراجعة في تفاصيله كلها. فليس من الصعب أن يصدر أحد معاهد اللغة، بمساعدة فهرس خاص من بضعة آلاف من الكلمات، طبعة خاصة تشتمل على تحقيق كامل للنص متضمنا التواريخ المضبوطة.

ومع ذلك فليس هذا هو هدف نشر هذه الرسائل، التي يهدف نشرها ببساطة إلى تقديم هذا السجل النادر في كتاب مقروء، منقح، ومفسر بأقصى عناية ممكنة. وعلى القراء أو النقاد الذين يظنون أنهم قد وقعوا في أثناء قراءتهم لهذه الرسائل على أخطاء في الترتيب الزمني من واقع ما تتضمنه من أحداث، على هؤلاء أن يتفحصوا ما يرونه فحصا دقيقا، فسوف يكتشفون– في أغلب الحالات – عندئذ أن إشارة من الإشارات القاطعة، لا تلبث أن تواجهها اثنتان من الإشارات الأخرى التي تناقضها.

إن محرر هذه الرسائل سيكون ممتنا غاية الامتنان، على الرغم من ذلك، للاقتراحات التى تقوم على أساس صحيح لإعادة ترتيب هذه الرسائل، حيث يمكن الانتفاع بهذه الاقتراحات فى طبعة ثانية. وفى هذا الخصوص لا يفوتنى أيضا أن أوجه شكرى إلى ناشر أعمال كافكا «مستر سالمان شوكين»، لاقتراحاته وإشاراته التى تستحق التسجيل.

أما فيما يختص بنص الرسائل، فقد شطب (كافكا) بنفسه فقرات عديدة، وردت بها، وربما تكون «ميلينا» قبل أن تسلمنى حافظة الأوراق التى احتوت على هذه الرسائل، قد كتبت بضع فقرات، غير واضحة، بالحبر.

وفى حالة نشر طبعة تتضمن تحقيقا شاملا لنص هذه الرسائل، يبدو لى أنه لن يكون من الصعب أن يتم نقل هذه الفقرات حتى تتضح قراءتها ببعض الوسائل الكيميائية، أو معالجة قراءتها بأشعة (إكس).

ولاحاجة بنا إلى القول بأن هذه الفكرة لايمكن الالتجاء إليها، فمن عديد من الفقرات القصيرة والتلميحات التى تبدو معلقة فى الفراغ، يمكن أن يستنتج المرء أن عددا قليلا من الصفحات، أو عددا من الرسائل قد فقدت.

أما فيما يتعلق بمن لايزالون على قيد الحياة ممن تناولتهم هذه الرسائل ، فقد كان لابد من حذف بضع فقرات معينة من الرسائل، ويأسف المحرر لاضطراره إلى هذا الإجراء الضرورى، فقد ورد اسم «المحرر شخصيا فى تلك الفقرات المحذوفة عديدا من المرات. ومحرر هذه الرسائل – وهذا موجه مقدما إلى أى ناشر لهذه الرسائل فى المستقبل – ليس لديه شخصيا أى اعتراض على نشر تلك الفقرات

المحذوفة التى تتضمن اسمه، على الرغم من بعض الاستنتاجات الوهمية، والخاطئة التى ربما كان (كافكا) قد استنتجها من إحدى الحوادث المؤسفة إلا أن ما يفاجئنا بغرابته فى هذه الرسائل الغرامية، هو أن (كافكا) لم يكن (بالمعنى المتفق عليه بصفة عامة) يغار من أصدقاء (ميلينا) من الرجال، بل كان يغار من صديقات شبابها المبكر من الفتيات. ومن الأمور الغريبة أيضا أنه لم يتبين فيما يبدو بوضوح سبب كراهيته لأناس معينين، ونتيجة هذا هو ما نجده فى هذه الرسائل، صور شخصية لبعض الكتاب، أو صور كاريكاتيرية لاعلاقة لها بالواقع.

وهى أجزاء لايمكن نشرها الآن!، إن الخطأ العميق الذى قد يترتب على نشر هذه الصور الشخصية هنا، والآن، قد يتأكد مستقبلا، عند صدور الطبعة الكاملة – ونأمل أن يتم ذلك يوما ما – لهذه الرسائل. ولأسباب أخرى مماثلة وواضحة، حذفنا كذلك أغلب ما يتعلق بأسرة ميلينا.

وعلى الرغم مما قد يثور من الريبة الشديدة، بالإضافة إلى ذلك، فقد رأيت الإبقاء على أغلب الفقرات التى تشير إلى اليهودية. ذلك أن غرام كافكا اليهودي بامرأة غير يهودية، كان مشكلة خطيرة مؤسية (مثقلة للغاية بالتعقيدات النفسية، ومركبات النكوص)، وقد تبدت أزمته تلك فى صورة ثورات بالغة من إذلاله لنفسه، كيهودى.

وحذف هذه الفقرات لم يكن ممكنا دون الإخلال بروح هذه الرسائل كلها، على الرغم من أن تلك الفقرات بالذات، تستقطب كل أشكال سوء الفهم، ولقد واجهت هذه الفقرات لحسن الحظ، فقرات أخرى عكست زهوه وثقته بالمستقبل إلى حد بعيد. لكى نؤكد، بعد

هذا، صبغة هذا الكتاب غير العلمية، ونبين أن هدفنا هو فقط تيسير قراءته، لم نعين مكان الفقرات المحذوفة.

إن العذر الوحيد الذى يبرر به محرر هذه السطور، عدم اضطلاع (ماكس برود)، بتحرير هذا الكتاب الذى بين أيدينا، كما فعل بباقى أعمال (كافكا) الأخرى، هو معرفة (المحرر) بميلينا وحلقة أصدقائها التشيكيين معرفة وثيقة دامت أعواما عدة، وكان على علاقة شخصية بهم، وإلا ما كان له أن يتورط فى مثل هذه المنافسة اليائسة مع محرر (كماكس برود) – الذى ربطته بكافكا صداقة دامت العمر كله، تلك الصداقة التى تمخضت عن اكتشاف عبقرية كافكا، ودفعها، بإخلاص لا يفوقه إخلاص، وأمانة فى عمله كمحرر لكتابات صديقه بعد وفاته –، إلا لمجرد وضع الخطوط الخارجية لصورة صديقة كافكا النبيلة (ميلينا)، ذلك أن صورتها الشخصية جديرة حقا بالظهور إلى حيز الضوء، وإن كان فقدان رسائلها إلى كافكا، خسارة لا سبيل إلى تعويضها.

لابد لى من أن أذكر أننى قد استخدمت أعمال ماكس برود عن سيرة حياة كافكا ودراسة أعماله، استخداما أساسيا– ولا أكاد أذكر لآخرين جهدا ذا بال استندت عليه فى هذا الشأن–، ولدى أخيرا، كل ما يدفعنى إلى التعبير عن عميق امتنانى لفراو (شتاتزا) التى ورد ذكرها كثيرا فى الرسائل.

ڤيلى هاس

ترويز دورف – مايو ١٩٥٢

الرسائل

سيدتي العزيزة ميلينا

ميران- أونترميه

بنسيون أوتوبورج

كتبت لك رسالة من براغ، ثم أخرى من ميران، ولم أتلق ردا عليهما. إن الرسالتين لاتتطلبان بالفعل ردا سريعا، على غير العادة، فإذا لم يكن صمتك سوى دليل على السعادة، التى تعكس نفسها غالبا في صورة رغبة عن الكتابة، فسوف أطمئن عندئذ. لكن من الممكن أيضا – وهذا هو ما يدفعني إلى أن أكتب إليك – أن أكون قد أسأت إليك فى رسالتى بصورة ما (فيا لليد الخرقاء، التى تأبى أن تنسجم مع كل ما أضمره!، هل يمكن أن تكون هذه هى القضية؟)، أو ... ماذا في الحقيقة يمكن أن يكون أكثر سوءا من هذا؟ لقد اختفت مرة أخرى تلك اللحظة التى أتنسم فيها نسمة هادئة مما تخطه يدك، ويشي هذا بأن وقتا عصيبا قد مر بك. ليس لدى ما أقوله عن الاحتمال الأول، إنه أبعد مما يمكنني أن أبلغه، أما ما عدا ذلك ففى متناول يدى. أما عن الاحتمال الثانى، فلن أنصح – كيف يتسنى لى أن أنصح ؟– ، لكننى فقط أتسأل: لماذا لا تغادرين فيينا لفترة من الوقت؟ ثم، إنك لست بلا وطن، كالآخرين، ألا تمدك رحلة إلى بوهيميا بنشاط، وطاقة متجددة؟ ، وإذا كان ثمة سبب من الأسباب قد حال دون أن أعلم برغبتك عن الذهاب إلى بوهيميا، فلماذا إذن لا تذهبين إلى أى مكان آخر، ربما، إلى «ميران» مثلا، هل تعرفينها؟.

أنا إذن فى انتظار أحد أمرين، إما أن تواصلى الصمت، الذى سيكون معناه: «لاتخش شيئا، إنني فى خير حال»، أو بالأحرى بضع سطور قلائل.

أرق تحيات
كافكا

لم أتمكن من أن أتذكر وجهك، ولا تذكرت شيئا من ملامحه بصورة واضحة، أذكرك فقط بينما كنت تبتعدين وسط مقاعد المقهى، هيئتك بصفة عامة، ثوبك... ما زلت أذكرهما.

***

سيدتي العزيزة ميلينا

إنك تثقلين على نفسك بالترجمة وسط جو ڤيينا الكئيب. إنه جو مقبض على نحو ما، ويثير الحيرة في نفسي. لعلك قد تسلمت أخيرا رسالة من ڤولف[1]، فقد كتب إلي رسالة وصلتني منذ فترة قصيرة أشار فيها إلى رسالته إليك؛ قال فيها أيضا أن قصة قصيرة بعنوان (القاتل) ستنشر في كتيب، إنني لم أكتبها بعد، ولعل الأمر قد اختلط عليه، لكن ما دام يفترض أنها ستكون أفضل قصصي، فلعل هذه أن تكون هي الحقيقة في نهاية الأمر.

يبدو أن القلق والهموم قد زايلتك تماما، استنتجت هذا من رسالتيك الأخيرتين، أتمنى لك الخير، ولزوجك أيضا، هذا ما أتمناه لكليكما، أذكر عصر يوم من أيام الأحد منذ بضع سنوات مضت، كنت أجرجر ساقيّ على امتداد (فرانتسنزكفه)، ملتصقا بجدران المنازل، أتقدم نحو زوجك، الذي كان مندفعا نحوي، في حال ليست خيرا من حالي. خبيرين في الصداع، رغم اختلاف سبيليهما اختلافا تاما. لست أذكر بعد ذلك إن كنا قد سرنا معا، أو تجنب أحدنا الآخر. ليس الفارق بين الاحتمالين بالفارق الهائل لكن، ذلك ماض، ويجب أن يبقى مدفونا في أعماق الماضي. هل تشعرين بالسعادة في موطنك؟

أرق تحياتي

كافكا المخلص لك

١) كورت ڤولف، ناشر كافكا.

ميران أونترميه

بنسيون أوتوبورج

سيدتي العزيزة ميلينا

الآن فقط انقطـع المطر الذى دام سقوطه يومـين وليلة، مع أن انقطاعه قد لايستمر سوى لحظة، لكنه مع ذلك حدث يستحق أن يحتفل به المرء، وهذا هو ما أفعله بالكتابة إليك. وحتى المطر كان محتملا في الحقيقة، فالمرء غريب هنا في نهاية الأمر، وإن يكن فحسب مجرد غريب على نحو ما، إلا أن ذلك يثلج القلب... أنت أيضا، لو صح تعبيرى (لقاء قصير، منعزل، شبه صامت، ربما لا يكون تسريه من خيال المرء محض صدفة)، أنت أيضا تمارسين الاستمتاع بغربتك فى فيينا، مع أنك قد تفقدين استمتاعك ذاك فيما بعد تحت ضغط الحالات السائدة، لكن ، هل تمارسين أنت أيضا متعة شعورك بالغربة إلى هذا الحد؟ (تلك المتعة، التى قد تكون مصادفة، مجرد دلالة سيئة، وقد لا تحدث).

إننى أعيش هنا فى خير حال، ولايطيق الجسد الفانى مزيدا من العناية. وتطل شرفة غرفتى على حديقة محاطة بسور، تزدهر فيها الشجيرات المزهرة (إن النباتات هنا غريبة، فالزهور تتفتح فى بطء أمام شرفتى، فى جو مثل جو براغ، تتجمد فيه بالفعل برك المياه)، وتتعرض شرفة الغرفة كذلك لأشعة الشمس، أو بالأحرى السماء التى تحجبها السحب إلى ما لا نهاية، كما هو الحال منذ ما يقرب من الأسبوع، تزورنى فى الغرفة السحالى، والطيور، وأنواع مختلفة من الكائنات تزورنى أزواجا أزواجا: إننى أرغب رغبة شديدة فى أن تكونى هنا فى ميران، لقد كتبت لى أخيرا عن عدم قدرتك على

التنفس، فى هذه الكلمة تتجاور الصورة والمعنى إلى حد بعيد، وفى ميران قد تخف وطأتهما بعض الشيء.

مع ارق تحياتى

المخلص ف . كافكا

***

إذن فهى الرئة. ظللت طوال النهار أدير هذه الجملة فى رأسى، ولم أتمكن من التفكير فى أى شيء آخر، لم أستطع أن أفكر حتى فى أن ثمة نذير كان قد أنذرنى بالفعل بهذا المرض، ولعل المرض، وهذا ما نأمله - وتشير تليمحاتك إلى هذا - يبدو فى حالتك فى صورة اشتباه عديم الأثر، على أن مرض الرئة الفعلى (ونصف سكان أوربا الغربية، يعانون كثيرا أو قليلا من الأمراض الصدرية)، هذا المرض الذى عرفته من خلال خبرتى الخاصة التى دامت ثلاث سنوات، لعله أن يكون قد أفادنى بقدر ما ضرنى. بدأ الأمر بالنسبة لى منذ حوالى ثلاث سنوات، فى منتصف إحدى الليالى بنزيف، نهضت مرتاعا بسببه، كما يحدث للمرء عندما يواجه شيئا للمرة الأولى، نهضت (بدلا من أن أستلقى متمددا كما تعلمت أن أفعل فيما بعد حسب أوامرالأطباء)، وكنت أيضا مضطربا بالطبع، على نحو ما، سرت نحو النافذة، وانحنيت متطلعا خارجها، وقصدت حوض الغسيل، ورحت أتجول فى أنحاء الحجرة، وجلست فوق الفراش- وكان الدم ينزف بلا توقف. ومع ذلك فلم تنل منى التعاسة من جراء ذلك، لأننى شيئا فشيئا، علمت بصورة قاطعة أننى سوف أنام، بعد أن انقضت ثلاث سنوات أو أربع هجرنى فيها النوم، سوف أنام لأول مرة، بعد أن يتوقف ذلك النزيف، ولقد توقف النزيف بالفعل (كما أنه لم يعاودنى منذ ذلك الحين)، واستغرقت فى النوم بقية الليلة. وعندما

دخلت الخادمة (كان لي في ذلك الحين شقة بالقرب من قصر شوينبورن) في الصباح، وهي فتاة طيبة تكاد تنكر ذاتها، في علاقتها بالآخرين، إلا أنها فتاة واقعية للغاية، قالت عندما رأت الدم: «سيدي الدكتور، إنك لن تعيش طويلا». لكنني أحسست بالتحسن ، على غير العادة، وذهبت إلى عملي، وتوجهت قرب الظهر إلى الطبيب، وليس لبقية القصة بعد ذلك كثير أهمية . لقد قصدت فقط أن أقول : إن مرضك ليس هو الذي أفزعني (خاصة أنني أقاطع نفسي باستمرار، لكي أعالج ذاكرتي، مكتشفا الانتعاش الذي يكاد يشبه انتعاش المرء وسط الحقول، تحت الرقة كلها، لأقرر بيني وبين نفسي قائلا: لا، إنك لست مريضا، إنه نذير بالمرض، ولكنه ليس مرضا بالرئة)، وهكذا فلم يكن ذلك هو ما يرعبني، لكن ما يرعبني هو التفكير فيما لابد قد سبق ذلك الاضطراب. في تلك اللحظة كنت على وشك أن أتجاهل كل شيء آخر في رسالتك، من قبيل : لا يوجد جحيم أفظع – شاي وتفاح – يوميا من الثانية حتى الثامنة–، هذه كلها أمور لم أتمكن من فهمها، ويبدو أنها لايمكن أن تفسر لي إلا شفويا. وعلى هذا فسوف أتجاهل هذه الأمور (مع أنني سأتجاهلها فقط في رسالتي هذه، ذلك أن المرء لا يمكنه أن ينساها)، وسوف أفكر فقط في التفسير الذي اهتديت إليه لتوي، في حالة مرضي، والذي ينطبق على كثير من الحالات. إن ما حدث هو أن العقل لم يكن ليحتمل مزيدا من الهموم والمعاناة المكومة فوق عاتقه. إنه يقول: «لقد عجزت عن تحمل ذلك، لكن لابد من وجود ثمة من يواصل الاهتمام بسلامة كل شيء، ويجب عليه أن يخلصني من بعض عبئي، وستظل الأمور سائرة في طريقها بعضا من الوقت» ثم تتحدث الرئة، مع أنه قد لايكون لديها الكثير مما يمكنها أن تفقده، مهما كانت

الحال. لعلها أن تكون مناقشات تثير الرعب، تلك المناقشات التى تدور بين العقل والرئة دون أن أعلم عنها شيئا.

وما الذى تنوين عمله الآن؟ قد يتضح أنه لم يكن سوى أمر عارض، لو أنك أحطت نفسك بشىء من الرعاية. وحاجتك إلى شىء من الرعاية، أمر لابد أن يدركه أى شخص مغرم بك، وكل شىء آخر، يجب لهذا، أن يوضع فى المحل الثانى. وهل يمكن أيضا ألا يكون ثمة شىء من العزاء لك فى أى شىء آخر؟. كما قلت من قبل – لا، لست فى حالة من حالات المزاج، كما أننى لا أحس مطلقا بالمرح، ولن أكون كذلك حتى تكتبى إلى وتخبرينى كيف ستحاولين إعادة تنظيم حياتك على نحو جديد، يوفر لك مزيدا من الصحة. لماذا لا تغادرين ڤيينا لفترة قصيرة، هذا ما لم ألح فى سؤالك عنه، بعد رسالتك الأخيرة، فأنا أفهم الآن لماذا لايمكنك مغادرة ڤيينا، إلا أن هناك مع ذلك أماكن أخرى رائعة بالقرب من ڤيينا، وكثير من الفرص لتوفير الرعاية لك. لن أكتب عن أى شىء آخر اليوم ، فلاشىء ذو أهمية كبيرة، يمكننى أن أتحدث عنه. سأكتب عن كل شىء آخر غدا، ومن بين هذه الأشياء الأخرى، شكرى على المخطوط الذى هزنى، وأشعرنى بالخجل، وبالحزن، وبالفرح. لا، ثمة شىء آخر قد تبقى لأقوله لك اليوم: لو أضاعت عليك الترجمة لحظة واحدة من لحظات نومك، فسوف تتحول هذه اللحظة إلى لعنة تحيق بى. ففى (يوم الحساب)، لن يكون ثمة مجال لبحث التفاصيل، لأنه سيكون ببساطة يوم إقرار الحيثيات: لقد حرمها من النوم. عن هذا سوف تثبت إدانتى، وسيكون هذا هو الجزاء العادل. وعلى هذا فإننى أحمى نفسى، عندما ما أطلب إليك ألا تفعلى شيئا من هذا بعد الآن.

المخلص لك

فرانتس ك

***

سيدتي العزيزة ميلينا

أريد اليوم أن أكتب لك عن أشياء أخرى، إلا أنني لا أستطيع، وليس ذلك لأنني أنظر بالفعل إلى تلك الأشياء نظرة جادة، فلو أنني كنت أنظر إليها على هذا النحو، لكنت في الحقيقة قد كتبت بصورة أخرى، لكنني الآن، وللمرة الثانية أقول إنه لابد لك من مقعد مريح من القماش تستلقين فوقه في أحد أركان الحديقة، ركن تتقاسمه الظلال وأشعة الشمس، ويجب أن توضع عشر زجاجات ممتلئة باللبن في متناول يديك. من الممكن أيضا أن يحدث ذلك في فيينا، خاصة الآن في الصيف، لكن بدون جوع، ولا قلق. أليس هذا ممكنا؟ أو هل لا يوجد من يمكن أن يجعله ممكنا؟، وماذا قال لك الطبيب؟

عندما أخرجت المخطوط من المظروف الكبير، أحسست بخيبة الأمل، فلقد كنت أريد أن أقرأ لك أنت، لا أن أستمع إلى ذلك الصوت المألوف، ذلك الصوت المنبعث من القبر العتيد. لماذا تدخل ذلك الصوت بيننا. ثم ماذا، إنني لا أكاد أصدق أنك قد أخذت بالفعل على عاتقك مشقة الاضطلاع بهذا الجهد الهائل. ولقد هزتني حتى أعماقي تلك الأمانة التي أنجزت بها هذا العمل، جملة بعد جملة، تلك الأمانة التي لم أكن أحسبها ممكنة في اللغة التشيكية إلا بالقدر الذي ساورتني عنده الريبة في قدرتك على تطويع اللغة على هذا النحو التلقائي الرائع. هل تتقارب اللغتان الألمانية والتشيكية إلى هذا الحد؟ مهما يكن من أمر، فإنها على أية حال، قصة بالغة البؤس، يمكنني أن أؤكد لك هذا ياسيدتي العزيزة ميلينا، سطرا بعد الآخر بغاية اليسر، غير أن النفور سيظل رغم هذا مستعصيا إلى حد ما على البرهان! أما عن إعجابك بالقصة، فإنه يكسبها بالطبع بعض القيمة، لكنه مع ذلك يساهم في إظلام صورة العالم أمامي. ليس لدي

مزيد مما يمكنني أن أقوله عنها. سيرسل لك ڤولف قصتي (طبيب الأرياف)، لقد كتبت له في هذا الشأن.

إنني أفهم اللغة التشيكية بلاشك. ولقد انتويت أكثر من مرة أن أسألك لماذا لم تكتبي لي بالتشيكية. لا أقصد بهذا أنك لا تجيدين اللغة الألمانية، فأنت تسيطرين عليها في أغلب الأحيان على نحو رائع يثير الدهشة، وإذا خانتك قدرتك في أحيان، فإن اللغة الألمانية تنحني عندئذ أمامك طائعة من تلقاء نفسها، وهو أمر يبعث على السرور حقا، ذلك أن الألماني نفسه لا يكاد يجرؤ على أن ينتظر هذا من لغته، فهو لاينتظر من لغته هذه أن تسعفه في الكتابة التي تبلغ هذه الدرجة من الخصوصية، غير أنني أريد أن أقرأك في التشيكية، لأنها لا تنفصل عنك؛ لأن فيها وحدها توجد (ميلينا) بأكملها، (إن الترجمة تؤكد ذلك)، بينما هنا، في اللغة الألمانية، لست سوى مجرد تلك التي في ڤيينا، أو تلك التي تحاول أن تبدو كما لو كانت من ڤيينا. لهذا أرجو أن تكتبي إلي بالتشيكية لو تفضلت بذلك. وأرجو أن ترسلي القصاصات التي وعدتني بها، لتكن تلقائية، فلقد تلمست طريقك أيضا، بنفسك من خلال بساطة قصتي، لست أدري إلى أي مدى. ربما أمكنني أن أفعل هذا أنا أيضا، فإن لم أتمكن، فسأبقى متمسكا إذن بأفضل الأهواء.

تسألين عن خطوبتي. لقد خطبت مرتين (ثلاث مرات، إن شئت، ومعنى هذا أنني خطبت فتاة منهما مرتين)، وعلى هذا فقد فسخت خطبتي ثلاث مرات، قبل إتمام الزواج في كل مرة، ببضعة أيام قلائل فحسب. ولقد انتهى تماما كل ما يتعلق بالخطيبة الأولى (سمعت أنها قد تزوجت أخيرا، ورزقت أيضا بطفل)، أما الخطوبة الثانية، فما زالت قائمة، لكن دون أدنى أمل في إتمام الزواج، وهي لهذا خطوبة

لا وجود لها في الحقيقة، أو أن لها وجودا مستقلا، وإن يكن استقلاله هذا على حساب آخرين. ولقد خرجت في النهاية من هذه التجربة، ومن تجارب أخرى غيرها، بأن الجانب الأكبر من المعاناة ربما كان من نصيب الرجال، أو، لو راق للمرء أن ينظر إلى المسألة من هذه الزاوية، فلعله أن يقول إن مقاومة الرجال أقل في هذا الصدد، وأن النساء يعانين معاناة أقرب إلى البراءة لا بمعنى أنهن (لسن مخطئات)، بل بمعنى أكثر اقترابا من الحقيقة، لعله يؤدى بنا مرة أخرى، على الرغم من هذا، إلى أنهن (غير ملومات). على أن التفكير في هذه الأمور، لايجدى. فهو أشبه بمحاولة المرء أن يحطم مرجلا واحدا من مراجل الجحيم، لاجدوى أولا، من محاولة كهذه، وثانيا، حتى لو كانت هذه المحاولة ذات جدوى، فسوف يحترق المرء مع ذلك، ويهلك في نوب اللهيب الذى سيتدفق عند تحطيم ذلك المرجل، هذا... على حين سيبقى الجحيم بكل عنفوانه.

إن على المرء في الحقيقة أن يعالج ذلك بطريقة أخرى.

ونقطة بدايتنا في هذا السبيل، هي بعد هذا كله، أن تستلقى في إحدى الحدائق، وتتخلصى من المرض، وخاصة إذا لم يكن مرضا فعليا، تخلصى منه بأقصى ما يسعك من الاستمتاع. فثمة متعة بالغة في تخلص المرء من المرض.

المخلص لك

فرانتس ك.

***

سيدتى العزيزة ميلينا

أصرح لك أولا، في حالة ما إذا كنت قد قرأت ذلك بين السطور رغم حرصى على ألا تفطنى إليه: بأننى أعانى من الأرق المتزايد

طوال ما يقرب من الأسبوعين، على أننى لم أهتم اهتماما زائدا بهذا، ففترات الأرق تنتابنى وتزايلنى، وتتوقف هذه النوبات على عوامل عديدة ثابتة، وإن تكن فى غير حاجة إليها (فمن الممكن كما يقول بيديكر أن يكون هواء ميران وحده، سببا كافيا تماما)، وحتى لو لم يتوفرأدنى أثر لأى من هذه العوامل الخارجية، فسوف يجد المرء نفسه، فى بعض الأحيان ثقيلا كالكتلة، وقلقا فى الوقت نفسه، قلقاً كحيوان فى داخل غابة.

عزائى الوحيد مع هذا أنك قد استغرقت فى نوم هادىء، وإن كنت ما تزالين تحسين (بغرابة ذلك)، على الرغم من أنك كنت غاضبة جدا بالأمس، إلا أنك على الرغم من هذا كله، قد استغرقت فى النوم. والآن، عندما يتجاوزنى النوم، ويمر فى الليل دون أن يحفل بى، فإننى أعرف عندئذ وجهته. وأرضاها، وفوق هذا، فمن الغباء أن يثور عليه المرء، فالنوم هو أكثر (المخلوقات) براءة، والرجل الذى يهجره النوم، هو أكثر الرجال ذنوبا.

إن ذلك الرجل الذى هجره النوم، هو الذى شكرته فى رسالتك الأخيرة. فلو قدر لغريب، لا يعلم شيئا عن الحقيقة، أن يقرأ هذا فلعله أن يتعجب قائلا: ياله من رجل !، يبدو عليه فى حالته تلك، وكأنه قد حرك الجبال، على أنه فى الحقيقة، لم يفعل شيئا، لم يحرك أصبعا (فيما عدا أصبعه التى يضغط بها على القلم)، إنه يعيش على اللبن، وعلى أطايب الطعام دون أن يرى الشاى والتفاح، أمامه دائما، وفوق هذا لا يحاول أن يقحم نفسه فى أمر من الأمور، ويترك فحسب كما هى فى أماكنها.

قد ترى تعرفين قصة أول نجاح صادفه دستويفسكى؟، إنها قصة زالت بأشياء عديدة وأنا أذكر اسم الرجل العظيم فقط تأكيدا لما

أريد قوله، ذلك أنك قد تسمعين هذه القصة من أحد جيرانك، قد تسمعين من هذا الجار أو من غيره قصة لها نفس المغزى، علاوة على أن تلك القصة ليست واضحة تمام الوضوح فى مخيلتى، خاصة فيما يتعلق بالأسماء. فبينما كان دستويفسكى يكتب روايته الأولى (الفقراء)، كان يقطن مع صديق له من الحقل الأدبى، يدعى جريجوربيف، ومع أن هذا الصديق كان يرى كل يوم صفحات الرواية الكثيرة فوق منضدة الكتابة أمامه، لشهور عديدة، إلا أنه لم يتناول ذلك المخطوط أبدا، إلا عندما كانت الرواية قد تمت. قرأها، فهزته، ودون أن يقول لدستويفسكى كلمة واحدة، أخذها، وذهب بها إلى الناقد الشهير عندئذ (نكراسوف)، وارتفعت دقات الجرس على باب دستويفسكى فى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى. كان الطارقان هما (جريجوربيف) و(نكراسوف)، اندفعا عندما انفتح الباب إلى داخل الحجرة، فاحتضنا دستويفسكى، وانهالا عليه تقبيلا، وأطلق عليه (نكراسوف) الذى لم يكن قد التقى به من قبل لقب (أمل روسيا). وانقضت ساعة، ثم أخرى، وهما يتحدثان إليه، ودار أغلب حديثهما حول الرواية، ولم ينصرفا إلا قرب الفجر. وانحنى دستويفسكى الذى ظل دائما يشير إلى هذه الليلة، على أنها أسعد ليالى عمره، انحنى على النافذة، وتبعهما بنظراته، كان الانفعال لحظتها قد أفقده توازنه تماماً، فشرع فى البكاء، وكان الشعور الذى سيطر عليه، وهو يبكى، هو ذلك الشعور الذى وصفه فيما بعد، لست أدرى أين، بهذه الكلمات: «هؤلاء الناس الأصلاء، يالهم من نبلاء، وطيبين، ويالى من زائف، آه لو أتيح لهم فقط أن ينظروا فى أعماقى!، ولو كان لى أن أقول لهم ما خفى عليهم، فقد لا يصدقون قولى!» إن محاولة دستويفسكى عندئذ لأن يماثلهما لم تكن ببساطة

سوى مجرد حذلقة، وعلى الشباب الذى لايقهر أن يقتنص الكلمة الأخيرة، وهذه الكلمة لا تنطوى عليها قصتى هذه التى انتهت عند هذا الحد! هل تبينت يا سيدتى ميلينا، ذلك المغزى الذى قد لا يتسنى للعقل أن يدركه؟ إنه هذا، على ما أظن: لم يكن جريجوربيف ونكراسوف، بلا جدال، على قدر ما يسعنى أن أوجز القول فى هذا المقام، أكثر نبلاً من دستويفسكى، لكننا لو صرفنا نظرنا عن تلك النظرة الشاملة التى لم يدعيها دستويفسكى أيضا فى تلك الليلة، والتى لاجدوى منها فى مثل تلك الحالة الفريدة – ولو أنك استمعت فقط إلى دستويفسكى، فسوف تقتنعين بأن جريجوربيف ونكراسوف كانا حقا أصيلين، وأن دستويفسكى ليس نقيا، وأنه زائف إلى غير حد – وأنه لن يبلغ بالطبع نصف علو شأوهما– ولندع جانبا احتمال أنه كان بإمكانه أن يرد لهما دوما عطفهما ذاك الهائل الذى غمراه به دون أن يستحقه منهما. إن المرء يوشك أن يراهما من خلال تلك النافذة، وهما يختفيان فى البعد، وبهذا يوحيان باستحالة أن يبلغهما أحد! – إن مغزى هذه القصة، لسوء الحظ، قد تبدد نتيجة لضخامة اسم دستويفسكى!

إلى أين سيؤدى بى سهادى؟

بالتأكيد ليس إلى شىء لم يكن مقصودا بالفعل.

المخلص لك

فرانتس ك.

***

سيدتى العزيزة ميلينا

بضع كلمات قليلة فحسب، وربما كتبت لك غدا مرة أخرى، أما اليوم، فإننى أكتب فقط لصالحى، لمجرد أن أفعل شيئا لنفسى، لمجرد

أن أبعد قليلا، ذلك الانطباع الذى أحدثته رسالتك، وإلا فإن ذلك الانطباع سيبقى مسيطرا على ليلا ونهارا. إنك فى غاية الغرابة، يا سيدتي ميلينا، فأنت تعيشين هناك فى ڤيينا، وتقاسين من هذا الأمر، ومن ذاك، ولايزال أمامك متسع من الوقت لكي يدهشك أن آخرين، أنا مثلا، لا أشعر بأنني على ما يرام، وأنني كل ليلة أنام نوما سيئا، أسوأ من نومي فى الليلة التى سبقتها، ولصديقاتي الثلاث اللائي يعشن معى هنا (ثلاث أخوات أكبرهن فى الخامسة من عمرها) موقف أكثر حساسية، فقد أردن أن يلقين بي فى الماء، فى أقرب فرصة، سواء كنا بالقرب من النهر، أو لم نكن، وليس ذلك لأنني قد تسببت فى إلحاق أدنى أذى بهن بحال من الأحوال. وعندما يهدد الكبار الأطفال على هذه الصورة، فإن الأمر بالطبع لايعدو أن يكون سوى مجرد مزاح، دافعه الحب، ولايعني سوى شيء من قبيل: على سبيل التسلية، هيا بنا نقول أكثر الأشياء استحالة، لكن الأطفال جادون، كما أنهم لايكادون يعرفون المستحيلات، إن عشر محاولات فاشلة لطرح أى شيء أرضا لايمكن أن تقنعهم بأن الأمر لن يتم على نفس الصورة فى المرة التالية، وهم فى الحقيقة، لايتحققون أيضا من فشل المرات العشر السابقة. إن الأطفال خبثاء عندما يثقل المرء ألفاظهم ونواياهم بمعلومات الشخص الراشد. وعندما تهاجمني تلك الطفلة ذات الأعوام الأربعة – التى تبدو كلها لم توجد فى هذا العالم سوى لكي تتلقى القبلات والأحضان، تلك الطفلة الممتلئة كالدبة الصغيرة، ببطنها التى ما تزال مستديرة من آثار أيام الطفولة الماضية، – وعندما تسندها شقيقتاها من اليمين ومن اليسار، ولايكون خلفى سوى الدرابزين، وأبوهم العطوف، وتلك الأم الرقيقة الجميلة الممتلئة (التى توشك على الوضع) تبتسم لهذا كله من على

البعد، دون أن تبدو عليها النية في تخليصي من بناتها، عندئذ أكاد أشرف على نهايتي، وربما يمكن للمرء أن يصف كيف تم إنقاذه!

إن الأطفال الحساسون، والملهمون، يحاولون أن يدفعونني بعيداً دائما دون سبب واضح، لعلهم يرونني زائدا عن الحاجة، ولعلهم لا يعرفون شيئا عن رسائلك أو عن ردودي.

إن (القصد الواضح)، في رسالتي الأخيرة، لايجب أن يخيفك، لقد حدث في نوبة من نوبات الأرق، وهي ليست نادرة الحدوث هنا. أن كتبت لك تلك القصة، إن استغراقي في التفكير فيها كان يبدو لي غالبا، شيئا يتعلق بك على نحو ما، لكنني عندما فرغت من كتابتها أحسست بتوتر يشد جانبي جبهتي حتى أنني لم أعد أنكر تماماً ما الذي رويته لك فيها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان قد تبقى ذلك الشكل غير المتبلور للأشياء التي كنت أنوي أن أرويها لك وأنا مستلق فوق مقعدي الخشبي خارج غرفتي، في الشرفة، وهكذا لم أجد أمامي ما أفعله سوى أن أشير إلى الشعور الأساسي، ولايمكنني حتى الآن أن أفعل شيئا أكثر من ذلك.

إن لديك كل ما نشر لي، فيما عدا كتابي الأخير (طبيب الأرياف)، وهو مجموعة قصص قصيرة، سيرسلها لك فولف، أو أنني على الأصح قد كتبت له منذ أسبوع لكي يرسلها لك. لا يوجد شيء معد للطبع ، كما أنني لا أعرف ما عسى أن يتم. ولا اعتراض لدي على أي شيء يروق لك أن تفعليه بالكتب والترجمات، إن ما يؤسف له أنها أشياء ليست ذات أهمية كبيرة عندي، حتى يكون تركي لها بين يديك تعبير حقيقي عن الثقة التي أشعر بها نحوك. ومن ناحية أخرى، فلقد أسعدتني قدرتي على أن أقوم بتلك التضحية الصغيرة، التي استلزمتها ملاحظاتك الصغيرة عن «العطشجي».

سوف يكون توقعا سابقا لأوانه، توقع تلك اللعنة الأبدية التي تنتج عن التورط مرة أخرى في ممارسة المرء لحياته بعين واعية، ذلك أن أسوأ ما في الأمر، ليس تبصر المرء بأخطائه الواضحة، بل تبصره بتلك الأعمال التي اعتبرها ذات مرة أعمالا صالحة.

وعلى الرغم من كل ذلك، فالكتابة تفيد المرء، فأنا أكثر هدوءا الآن مما كنت عليه قبل ساعتين، عندما كنت أقرأ رسالتك، على مقعدي في الشرفة. فبينما كنت أستلقي هنالك، سقطت خنفساء على ظهرها أمامي، على مسافة باردة من مكاني ، وبدا عليها اليأس لعجزها عن أن تعتدل، وودت أن أساعدها، فقد بدا لي ذلك سهلا، خطوة واحدة أخطوها، ودفعة بسيطة، كانت ستنتهي المشكلة، لكنني نسيتها بسبب رسالتك، كما أنني لم أتمكن من النهوض من مكاني إلى أن أعادتني إلى وعيي بالحياة من حولي مرة أخرى، سحلية، اتجهت في طريقها نحو الخنفساء، التي كانت ساكنة في وضعها كما هي، قلت في نفسي، ومع ذلك فلم تكن حادثة تلك التي وقعت لها، لكنه كان صراع الحياة مع الموت، ذلك المشهد النادر لموت الحيوان، ميتة طبيعية، لكن السحلية عندما زحفت فوقها، قلبتها إلى وضعها الطبيعي ، ومع أن الخنفساء بقيت مستلقية لفترة قصيرة، كما هي، وكأنها ميتة، فقد انطلقت بعد ذلك فجأة، تجري صاعدة حائط المنزل، وكأن شيئا لم يحدث. ولعل هذا أن يكون قد أعاد إلي شيئا من شجاعتي، فقد نهضت، وشربت قليلا من اللبن، وكتبت لك.

المخلص لك

فرانتس ك

***

غدا سأرسل لك التعليق، وسيكون بالمناسبة تعليقا قصيرا للغاية، لن يشغل سوى حيز محدود. إن صدق الترجمة الواضح بذاته، هو بالنسبة لى (عندما أحاول أن أتجاوز ذلك الوضوح) مثار دهشة دائمة، فلا يكاد يوجد التباس واحد، مع أن ذلك حتى لو وجد، لن يكون أمرا بالغ الخطورة، ويقابلنى التماسك دائما، والفهم الواثق. إن الشيء الوحيد الذى أريد أن أعرفه هو ما إذا كان التشيكيون لن يلومونك على إخلاصك هذا، الذى هو ما أحبه فى ترجمتك قبل أى شيء آخر (لا من أجل القصة بل من أجلى)، إن إحساسى باللغة التشيكية - فإن لى إحساسا بها أيضا - وهو إحساس قد أشبع تماما - صار إحساسا بالزهو البالغ، وأيا ما كانت الحال فهل يمكن أن يوجد من يمكن أن يلومك على هذا، حاولى إذن أن تستعيضى عن الإساءة بتقديرى.

***

سيدتى العزيزة ميلينا

(لقد أخذ هذا الأسلوب الذى نلتزمه فى حديث أحدنا إلى الآخر، يسبب إرهاقا لكلينا، ولكنه يعد يدا من تلك الأيدى التى يتشبث بها المريض فى دنيانا هذه الغادرة، ولا تعد مثل تلك الأيدى دليلا على التماثل للشفاء، عندما تتسبب فى إرهاق هؤلاء المرضى). لم يسبق لى أن اختلطت بالألمان، إن اللغة الألمانية هى لغة أمى، وهى لغة مألوفة لدى لهذا السبب، إلا أن التشيكية تبدو لى أكثر ألفة، لهذا السبب تؤكد رسالتك كثيرا من شكوكى. إننى أراك بصورة أكثر وضوحا، حركات جسدك، يديك بالغتى السرعة، الماهرتين غاية المهارة، إن رسالتك تكاد أن تكون لقاء فعليا، على الرغم من أننى كلما حاولت أن أرفع عينىّ إلى وجهك، كلما اندلعت النيران عندئذ

أثناء قراءتي لرسالتك – يالها من قصة ! –، فلا يسعني أن أرى شيئا بعد ذلك، سوى النيران.

من الممكن أن يحمل ذلك، أي شخص على أن يقتنع بذلك القانون الذي يحكم حياتك، تلك الحياة التي أهملتها. وبأنك لا تريدين أحدا أن يشفق عليك انسياقا مع ذلك القانون الذي تقرين بأن احتماله أمر ترينه طبيعيا، ذلك أن إهمال القانون ليس سوى محض غرور، وخيلاء (وأنا من يتكبد ثمن هذا)، كما أن البراهين التي سقتها لإثبات ذلك القانون، لاتحتاج من ناحية أخرى إلى مزيد من المناقشة، كل ما يسع المرء أن يفعله هو أن يلثم يدك في صمت. أما من ناحيتي، فإنني مؤمن بقانونك، وإن يكن في غير استطاعتي أن أقتنع بأن في مقدوره أن ينقذك، ويتسلط، على هذا النحو الصارخ، فوق حياتك إلى الأبد، فعلى الرغم من أن هذا يعد تبصرا من ناحيتك، إلا أنها بصيرة على الطريق، وليست للطريق من نهاية.

وبغض النظر عن هذا كله، فإنه مما يرهق الذكاء البشرى المحدود، أن يراك المرء في جوف ذلك الفرن مرتفع الحرارة الذي تعيشين فيه. سوف أتحدث الآن عن نفسي فحسب. ثمة احتمالات ثلاثة لديك فيما يتعلق بي، لو أن المرء نظر إلى الأمر كله كما لو كان واجبا مدرسيا. ففي مقدورك مثلا، ألا تخبريني بشيء عن نفسك، لكنك ستحرمينني عندئذ من متعة التعرف عليك، بل مما هو أكثر من هذا، من متعة اختبار نفسي عن أساس معرفتي بك. هذا هو السبب في أنك لم تتمكني من إخفاء نفسك عني، ثم إنك قد احتفظت بعديد من الأشياء كأسرار، أو ربما كنت قد تجاهلت ذكرها بالتفصيل، وهذا ما تصرين عليه حتى الآن. لكن ذلك في ضوء ما آلت إليه الأمور الآن هو ما قد أحسه، حتى ولو لم أشر إليه، وهو ما قد يسبب

لى ألما مضاعفا. وهكذا فأنت لايمكنك أن تفعلى هذا أيضا. ويبقى بعدئذ ثالث تلك الاحتمالات: وهو محاولتك حماية نفسك إلى حد ما، وإن شيئا من المجهود الذى تبذلينه فى هذا السبيل يتبدى واضحا بالفعل فى رسائلك. كثيرا ما قرأت عن الهدوء والثبات، مع أننى غالبا ما أقرأ الآن عن أشياء أخرى، أيضا، وأقرأ فى النهاية حتى عن: «الرعب الحقيقى».

ماذا عن صحتك (صحتى أنا على ما يرام، نومى فقط هو أسوأ شىء فى هواء الجبل). إن صحتك لا ترضينى، ولا أجد نفعا فى تشخيص الأطباء لحالتى بصورة عامة، أو أننى أجد أن ذلك التشخيص لا يتمخض عن شيء من النفع أو الضرر، رد الفعل وحده هو الذى ينجح فى توضيح حالة المرء الصحية. لاشك فى أن الأطباء أغبياء، أو أنهم ليسوا أكثر غباء من سواهم من الناس، إلا أن ادعاءاتهم تبعث على الضحك، وإن يكن على المرء أن يتنبه إلى حقيقة أن غباءهم يزداد أكثر فأكثر فى اللحظة التى يصبح فيها بين أيديهم. عندئذ لايحتاج الطبيب إلى أمر بالغ الغباء، أو إلى ما هو مستحيل. إن المستحيل هو أنك قد أصبحت مريضة بالفعل، وأن هذه الاستحالة ستبقى. إلى أى السبل تحولت حياتك منذ أن تحدثت إلى الطبيب؟– هذا هو السؤال الأساسى.

هناك بعد ذلك، بعض الأسئلة الأقل شأنا، والتى قد تسمحين لى بتوجيهها: لماذا ومنذ متى تحتاجين إلى النقود؟، لماذا رأيت فى وقت ما، كما تقولين، أناسا كثيرين فى ڤيينا، ثم لم تعودى ترين منهم أحدا الآن؟

إنك لا تريدين أن ترسلى إلىّ قصاصاتك، وعلى هذا فليست لديك

الثقة في قدرتي على أن أضعها في المكان الملائم من تلك الصورة التي أكونها لنفسي عنك. حسنا، سوف أغضب منك إذن لهذا، مع أن غضبي لن يكون هنا بالمناسبة، غضبا بالغا، ذلك أن شيئا من الغضب يلزم بالفعل لإحداث التوازن ، عندما ينزوي في ركن من أركان القلب قليل من ذلك الغضب، متحفزا ضدك.

المخلص لك

فرانتس ك

***

الجمعة

قبل كل شيء يا ميلينا ما شكل تلك الشقة التي كتبت لي منها يوم السبت ؟ هل هي فسيحة وخالية؟ هل أنت وحيدة؟ نهارا وليلا؟

لابد أن يكون هذا محزنا حقا، محزن أن تجلسي هنالك وحيدة في ظهيرة يوم السبت الرائع ذاك أمام «شخص مجهول»، وجهه ليس سوى «صفحة مكتوبة». كم تحسنت أنا !، فعلى الرغم من صغر مساحة حجرتي، فإن ميلينا الحقيقية، تلك التي زايلتك صراحة يوم السبت، توجد معي هنا، وصدقيني إنه شيء رائع جدا، أن أكون معها.

إنك تتشكين من اللاجدوى. في أيام أخرى كان الأمر يختلف، وسيبقى مختلفا. إن تلك الجملة الوحيدة (في أي مناسبة قيلت تلك الجملة؟) تسبب لك الرعب، إلا أنها غاية في الوضوح مع ذلك، لقد ذكرت تلك الجملة، أو قتلت بحثا بهذا المعنى، مرات لاحصر لها بالفعل. ويبدو حقا أن الإنسان حينما تعذبه شياطينه، يثأر لنفسه بصورة عمياء من أخيه الإنسان، لعلك في مثل تلك اللحظات قد أردت

أن تفتدى الآخر تماما، فإن لم يتم لك ذلك اعتبرت نفسك عديمة النفع.

من ذا الذى يجرؤ على أن يتجه نحو ذلك الكفر؟ إن أحدا لم يتمكن من تحقيق ذلك بعد، حتى ولا المسيح؛ يمكنه أن يقول فقط: «اتبعونى»، ثم ذلك السطر الرائع (الذى اقتبسته لسوء الحظ بصورة خاطئة): اسلكوا تبعا (لكلمتى)، وسوف ترون أنها ليست كلمة رجل، ولكنها كلمة (الرب). ويطرد (الشيطان) وحده، بعيدا عن هؤلاء الذين (تبعوه). وحتى ذلك لا يدوم إلى الأبد، ذلك أنهم لو تبعوه، فلن يلبث حتى (هو) أن يفقد التأثير «والهدف». حقا – وهذه هى النقطة الوحيدة التى أسلم لك بها – أنه قد استسلم هو أيضا للإغراء.

***

الجمعة

اليوم حتى المساء، قمت وحدى للمرة الأولى بالفعل بجولة طويلة إلى حد ما سيرا على قدمى، وإلا لكنت قد ذهبت مع آخرين، أو بقيت على الأغلب مستلقيا فى المنزل. ما هى تلك القرية! يا للسماء، لو أنك كنت هنا يا ميلينا – أنت «والعقل البائس، العاجز عن التفكير» ! إلا أنها ستكون كذبة بالنسبة لى لو قلت إننى أفتقدك، إنه السحر الكامل، المؤلم، إنك توجدين هنا، مثلما أنا هنا، إن وجودك مؤكد أكثر من وجودى، إنك تكونين حيث أكون، وجودك كوجودى، وأكثر كثيرا من وجودى فى الحقيقة. لست أمزح، ذلك أننى أتخيلك أحيانا، بما أنك هنا، تفتقدينني، وتتساءلين: «أين هو ؟، ألم يكتب قائلا إنه فى ميران؟»

ف

هلى تسلمت رسالتى، ردا على رسالتك؟

***

سيدتى العزيزة ميلينا

إن النهار بالغ القصر، فكيف يبدو لك، إن المرء ما يكاد يفرغ من قضاء بضعة أمور يومية تافهة حتى ينقضى النهار، فلا تكاد تتبقى لحظة واحدة يفرغ فيها المرء للكتابة إلى ميلينا الحقيقية، طالما أن ميلينا الأكثر حقيقية كانت هنا طوال النهار، فى حجرتى هذه، وفى هذه الشرفة، وفى السحب.

من أين أتت تلك الحيوية، وذلك المرح، وخلو البال، التى تطبع جميعها رسالتك الأخيرة؟ هل تغير شيء؟، أم أننى أخدع نفسى، ولا يخرج الأمر عن أن تلك الفقرات النثرية الرفيعة التى خطها قلمك هى التى أحدثت فى نفسى هذا الأثر؟ أو أنك قد أخضعت نفسك لشيء من هذا الانضباط، وبهذا أخضعتها كذلك للظروف؟، ماهى حقيقة الأمر؟

إن رسالتك تبدأ، كما يبدأ حديث القاضى، وأقول هذا جادا، إنك محقة فيما توجهينه من تعنيف «أو لعلك ليس لك كل الحق فى ذلك»، بقدر ما كان لك من الحق الواضح فيما يتعلق بذلك (الأمر الذى تعرفينه حق المعرفة). إن هذا واضح. ولو أن القلق البالغ المتصل يسيطر على، على نحو ما كان يسيطر على عندما كتبت لك، لما أمكننى، على الرغم من كل العوائق، أن أبقى مستقرا فوق مقعدى، ولكنت قد دخلت عليك حجرتك فى اليوم التالى – وهو البرهان الوحيد على الإخلاص، وما عداه ليس سوى مجرد لغو، بما فيه البرهان الأخير. أو هو لمحات إلى ذلك الشعور الذى يكمن تحت كل شيء، غير أن هذا الشعور، شعور صامت، ومستكين.

كيف حدث أن عجزت عن استيعاب هؤلاء الناس السخفاء الذين وصفتهم (وقد وصفتهم لهذا بحب يخلب الألباب)، مثلا، ذلك الشخص الذى توجه بالسؤال، وكثير من الآخرين. إن الأمر لك فى النهاية، لتحكمي بنفسك، والمرأة هى التى تحكم دائما فى النهاية. (إن أسطورة باريس تترك هذا الأمر مبهما على نحو ما، لكن حتى باريس يحكم فقط لصالح أولئك الذين يرى أن أحكام إ لهاتهم النهائية، هى أقوى الأحكام جميعا). إن السخافات التى من هذا القبيل لا تهم كثيرا، فقد تكون سخافات اللحظة، التى تتحول بعد ذلك بصفة عامة إلى جد و خير - هل هذا هو الأمل الذين يربطك بهؤلاء الناس؟ من الذى يستطيع أن يقول بأنه يعرف الأفكار السرية التى تدور فى رأس قاض من القضاة، غير أن انطباعا يتملكنى بأنك تتجاوزين مثل تلك السخافات، التى من قبيل الفهم، الحب، وأنك بحبك تضفين هالة من الشرف على مثل تلك السخافات. إن هذه السخافات ليست سوى شىء من قبيل اهتزازات الكلاب، وحركتها المتعرجة عندما تعدو، بينما السيد يمضى مستقيما فى طريقه إلى الأمام، لا فى الوسط بالضبط، لكن حيث ينفسح أمامه الطريق تماما. سوف يبقى مع ذلك، مكان ما لحبك، وهذا ما أثق فيه مطمئنا (على الرغم من أننى لا أستطيع أن أغالب التساؤل، والإحساس بغرابة هذا الاطمئنان الواثق) وهو ما يذكرنى، لمجرد أن أؤكد لنفسى وجها من وجوهه، بما قاله ذات مرة، موظف معى فى المكتب. اعتدت منذ سنوات عديدة أن أخرج غالبا للنزهة فى قارب صغير، فوق سطح (المولداو)، جدفت فى إحدى تلك المرات ضد التيار، ثم تمددت على ظهرى، وتركت نفسى للتيار يجرفنى تحت القنطرة. ربما كان منظرى يبدو مضحكا جدا، لشدة نحافتى، لمن قد يتطلع إلى من فوق

تلك القنطرة. وعندما شاهدني ذلك الموظف، على هذا النحو، في إحدى تلك المرات، وبعد أن ألح على الجانب الضاحك في ذلك المشهد بما يكفيه، لخص انطباعه عن ذلك المشهد كما يلي: إنه يبدو مشهدا يسبق (الحساب الأخير) مباشرة، يمثل اللحظة التي ترتفع فيها الأغطية عن الأكفان، بينما يبقى الموتى كما هم بلا حراك.

لقد خرجت في نزهة قصيرة (ليست هي تلك النزهة الطويلة التي حدثتك عنها ولم تتحقق)، وقد ظللت عاجزا نحو ثلاثة أيام من شدة الإرهاق (لم يكن إرهاقا خطيرا)، عن عمل أي شيء، عاجزا حتى عن الكتابة إليك، قرأت فقط الرسالة – وقرأت (المقال)[1] عددا من المرات، وفي اعتقادي أن مثل تلك القطعة النثرية لم توجد، بالطبع، في حد ذاتها، لكنها لابد قد خرجت إلى الوجود لكي تكون شيئا من قبيل لوحة الإعلانات على الطريق المؤدي إلى شخص ما، على طريق يواصل المرء سيره عليه بسعادة متزايدة، حتى يدرك المرء في لحظة إشراق، أنه لايتقدم بل يجري بسهولة في صورة دائرية في متاهته الخاصة به، غير أنه يجري بتأثر متزايد، وبانفعال متزايد عن ذي قبل، لكن، أيا كانت الحال: فليس كاتبا عاديا، ذلك الذي يمكنه أن يخط مثل ذلك المقال.

فعندما قرأته امتلأت ثقة في كتابتك، كثقتي في شخصك، أعرف في اللغة التشيكية (في حدود معلوماتي المحدودة)، موسيقى واحدة فقط تستهويني في تلك اللغة، هي موسيقى لغة (بوتسينا نيمكوفا)[2]، وهاهي ذي موسيقى أخرى، إلا أنها تنتمي إلى الموسيقى السابقة في

١) قصاصات ميلينا المنشورة في الصحف التشيكية.

٢) كاتبة تشيكية كبيرة (١٨٢٠ – ١٨٦٢)، من أشهر أعمالها روايتها (Babicka الجدّة).

الإرادة، والعاطفة، والجمال، وتتسم فوق ذلك كله بالذكاء الواعي، هل يمكن أن يكون هذا كله نتيجة للسنوات القلائل الأخيرة وحدها؟ هل تكتبين باستمرار؟ سوف تقولين بالطبع إنني أتحامل عليك بطريقة تثير الضحك، وإنك لمحقة بالفعل، إنني بالطبع متحامل، لكنني لست متحاملا بما اكتشفته في المقال (وهو بالمناسبة) ليس مقالا سلسا، وتشير بعض أجزائه من حين لآخر إلى تأثير الصحافة الضار)، لكنني متحامل بما عدت فاكتشفته مرة أخرى في المقال. في إمكانك أن تلحظي على الفور غرابة حكمي مع ذلك، فقد خدعتني فقرتان، فأوشكتا أن تقنعاني بأن أسلوب المقال المبتور يمكن أن يكون من نتاج يدك. أحب جدا أن أحتفظ بالقصاصات، ولو لكي أطلع عليها شقيقتي، لكن بما أنك تريدينها في الحال، فسوف أرسلها لك، خاصة، وأنني أرى بعض المذكرات الحسابية في الهامش.

لقد كونت لنفسي صورة أخرى عن زوجك. بدا لي وسط جمع المقهى أشد الأشخاص جدارة بثقة المرء، وأكثرهم قدرة على الفهم، وأكثرهم هدوءا. بدا لي شخصا يفيض بمشاعر الأبوة إلى غير حد، على الرغم من أنه شخص غامض أيضا، لكن ليس إلى الحد الذي يمكن أن يلغي ما قلته عنه الآن، إنني أكن احتراما له دائما، أما عما يمكنني أن أراه فيه، أبعد من ذلك، فليست لدي الفرصة ولا المقدرة على أن أرى شيئا فيما عدا ما ذكرته، لكن بعض الأصدقاء، وخاصة ماكس برود، له رأي قيم فيه، ولقد كنت دائما على وعي بهذا الرأي عندما كنت أفكر فيه.

لقد أحببت بصفة خاصة في إحدى المرات غرابة طوره التي تتبدى في اهتمامه بأن يطلب الرد على التليفون في كل مقهى، عدة

مرات خلال الليلة. ويبدو أن شخصا ما، لابد له، بدلا من أن ينام أن يجلس إلى التليفون، وهو يغالب نعاسه، ورأسه على ظهر مقعده، ويتفرغ هذا الشخص بين الحين والآخر، لكي يتصل به تليفونيا. إنها حالة أفهمها غاية الفهم، حتى أننى أذكرها فقط لهذا السبب.

المخلص لك

فرانتس ك

ماذا تعتقدين؟ هل يمكن أن تصلنى رسالة يوم السبت؟ من الممكن ذلك، لكنه مجنون ذلك الشوق إلى استلام الرسائل. ألا تكفى رسالة واحدة؟ ألا يكفى المرء أن يعرف مرة؟ لاشك أن مرة تكفيه، إلا أن المرء على الرغم من ذلك يميل إلى الخلف ويرتشف الرسائل، ولا يتوقف وعيه عند شيء سوى رغبته فى ألا يتوقف عن الارتشاف. فسرى لى هذا، يا ميلينا، يا مدرستى!

الخميس

لا أريد الآن أن أتحدث عن شيء سوى هذا (لم أقرأ رسائلك بعد جيدا، فقط حومت حولها كما تحوم الفراشة حول الضوء، واحترقت رأسى عدة مرات، لقد اتضح لى فجأة، وهذا ما اكتشفته الآن فحسب، أنهما رسالتان مختلفتان تمام الاختلاف، إحداهما يجب استنزافها إلى آخر قطرة، والأخرى يجب على المرء أن يتخذها نذيرا، ولعل الثانية أن تكون هى التى تأخرت.

لو أن المرء التقى بأحد معارفه، وسأله باهتمام عن حاصل ضرب ٢×٢ فسوف يبدو هذا السؤال عندئذ سؤالا أبله، لكنه سيبدو فى الصف الأول من المدرسة الابتدائية سؤالا معقولا للغاية، والآن

بسؤالي الذى أوجهه إليك يا ميلينا، يبدو الأمر على هذا النحو الأبله، وإن تضمن فى ثناياه سؤال المدرسة الابتدائية - إن فى سؤالى أيضا لحسن الحظ شيئاً من جوهر سؤال المدرسة الابتدائية. لكنه بدا لى دائما أمرا غير مفهوم بالمرة، عندما كان يرتبط بى شخص ما، وقد حطمت لهذا عديدا من العلاقات الإنسانية (منها مثلا علاقتى بفايس[1])، تبعا لمزاج عقلى يعتقد دائما فى خطأ الآخر أكثر مما يعتقد فى المعجزات (على الأقل إلى الحد الذى يعنينى).

إننى أعجب، لماذا تعكرين مزيدا من التعكير مياه الحياة العكرة بالفعل، بمثل هذه الأمور. إننى أرى أمامى امتدادا لطريق مفتوح، وأدرك كم هى هائلة تلك المسافة التى يشق على غالبا أن أقطعها، وإن كان لابد لى من أن أقطعها بادئا من وضعى الحالى قبل أن أصبح جديرا بنظرة عابرة (ألقيها بنفسى على نفسى، فكم يلزمنى لكى أحظى بنظرة من الآخرين) - ليس هذا تواضعا بل غرورا لو أنك تمعنت فى الأمر جيدا) - والآن لقد تسلمت رسالتك يا ميلينا، فكيف يمكننى أن أعبر عن الفارق؟ رجل يستلقى فى القذارة والنتن الذى يفوح من فراش موته، وهنا يحضر ملاك الموت، أجمل الملائكة جميعا، ويتطلع إليه، فهل يجرؤ هذا الرجل عندئذ أن يموت؟ إنه يستدير إلى الناحية الأخرى من الفراش، ويختبىء فى فراشه أكثر، إنه عاجز عن الموت.

باختصار، أنا لا أصدق ما تقولينه، يا ميلينا، ولا توجد أية وسيلة يمكنها أن تثبت لى ذلك - كما لم يتسن لأى شخص أن يثبت ذلك لدستويفسكى في تلك الليلة، وإن حياتى لتستمر ليلة واحدة - يمكننى

١) ارنست فايس ، شاعر وروائى من براغ.

أن أثبت ذلك لنفسي، ويخيل لي أنني قادر على ذلك (بنفس الطريقة التي أتيح لك بها ذات مرة رؤية الرجل الجالس فوق المقعد الخشبي)، إلا أنني لا أصدق ذلك عن نفسي. لقد كان ذلك السؤال لهذا، خدعة غريبة – ولعلك قد تبينت هذا في الحال – كما يحدث أحيانا لمدرس، لإرهاقه، ورغبته في الهدوء أن يسمح لنفسه بأن ينخدع بإجابة صحيحة من أحد التلاميذ، فيسمح لنفسه أن يقتنع بأن هذا التلميذ يفهم الموضوع حقا، بينما هذا التلميذ في الحقيقة يفهمه فقط من زاوية لا علاقة لها بالموضوع أصلا، وبدون فهم كامل للموضوع نفسه دون شك. وليس للمرء أن يحاول شرح الموضوع شرحا كاملا لهذا التلميذ، لأن هذا، هو ما يجب أن يضطلع به المدرس وحده. لا يتم هذا، مع ذلك بواسطة التشكي، والنواح، والتدليل، والتوسل، والأحلام، (هل تسلمت الرسالتين الأخيرتين الخامسة والسادسة، لعلك أن تتفحصيهما ، فهما تنتميان إلى الكل) أقول إن الأمر لا يتم بأية وسيلة أخرى سوى... – ليبق هذا الأمر معلقا الآن.

بالتطلع إلى رسالتك، رأيت أنك أيضا تتذكرين الفتاة. لهذا، ولكي لا أدع مجالا للشك هنا، أقول إنك قد أسديت إلى هذه الفتاة أكبر خدمة ممكنة، بالإضافة إلى ألمك المؤقت، ولايمكنني أن أفكر في أية وسيلة أخرى سوى هذه الوسيلة التي يمكنها أن تتحرر بها مني. إن لديها بالفعل إحساسا مريرا متشائما، لكن ليست لديها القدرة على أن تفهم من أين يحصل المكان الذي بجواري على دفئه (على اليسار، وإن لم يكن على يسارها). أتذكر أننا كنا نجلس بجوار بعضنا البعض فوق الأريكة في شقة تتكون من حجرة واحدة في

فرشوفتز)، ولعل ذلك كان فى شهر نوفمبر، وكانت الشقة لنا لمدة أسبوع، كانت سعيدة لعثورها على هذه الشقة بعد عناء بالغ، ولأن زوجها المقبل يجلس بجوارها، (وأكرر قولى بأننى بصفة خاصة كنت أتعجل ذلك الزواج، وكانت هى قد استجابت فقط، ولقد تملكها الخوف، ثم قاومت، لكنها بالطبع روضت نفسها على الفكرة تدريجيا) - عندما أفكر فى هذا المشهد بكل تفاصيله مرات تفوق فى عددها ضربات قلب المريض بالحمى، أعتقد عندئذ أننى قادر على فهم أى وهم بشرى (فى هذه الحالة كان الوهم، وهمىَ أنا أيضا لعدة شهور، ولم يكن الأمر بالنسبة لى وهما فقط، بل كان أمرا من نوع آخر، كما أنه كان من الممكن أيضا أن يكون زواجا عقليا بالمعنى الصادق للكلمة)، أقول إننى أعتقد أننى قادر على فهم أى وهم يمكن تخيله، وأخشى عندئذ أن أرفع كوب اللبن إلى فمى، ذلك أنه قد يرتطم بسهولة مباشرة، تحت عينىَ، لا مصادفة، بل عمدا، وتتناثر شظايا في وجهى.

سؤال: مم يتألف اللوم الموجه إليك؟، نعم، لقد سببت أنا أيضا للناس، شيئا من التعاسة، فى بعض الأحيان، لكننى أنكر تماما أنهم لم يوجهوا إلى لوما على شىء من هذا فى نهاية الأمر. فقط ظلوا صامتين. بل إنى أعتقد حتى أنهم لم يلومونى على شىء فيما بينهم وبين أنفسهم. إننى أتمتع بهذا الوضع الاستثنائى بين الناس.

إلا أن هذا كله لايهم إذا قورن بفكرة جاءتنى مبكرا فى هذ' الصباح عندما غادرت الفراش، ولقد استولت على هذه الفكرة، حتى لقد اغتسلت، وارتديت ملابسى دون أن أدرى كيف فعلت ذلك، وربم

كنت قد حلقت نقني أيضا على نفس الصورة. لو لم يزعجنى أحد الزوار، إن الأمر هو ما يلى باختصار : لقد تركت زوجك لفترة قصيرة، وليس هذا شيئا جديدا بعد كل ما حدث من قبل. إن الأسباب هى: مرضك، وعصبيته (سوف يستفيد أيضا من هذا)، ثم الأحوال التى تسود فيينا بالإضافة إلى ذلك.

إلى أين تريدين أن تذهبى، هذا ما لست أدريه. إن أفضل مكان تذهبين إليه قد يكون أحد الأماكن الهادئة فى بوهيميا. ومن الأفضل أيضا ألا أتدخل أنا، أو أظهر. أما المال اللازم لذلك فيمكنك مؤقتا (يمكننا أن نصل إلى اتفاق بخصوص رده)، أن تحصلى عليه منى (أنكر فقط ميزة واحدة إضافية يمكننى أن أجنيها من وراء ذلك، هى أننى سأتحول إلى موظف ذاهل العقل، منهمك فى العمل – إن وظيفتى، بالمناسبة، هى وظيفة غريبة مضحكة، وسهلة بصورة تدعو للأسف، سهلة سهولة لا يمكنك أن تتخيليها، ولست أدرى لماذا يدفعون لى مرتبا!)، فلو لم يكفك المال الذى أزودك به من حين لآخر على مدى شهر، فليس عليك سوى أن ترفعى المبلغ بإضافة الفارق المطلوب الذى لن يكون بالغا. لن أقول الآن شيئا أكثر من هذا مدحا فى هذه الفكرة، لكن لديك فرصة لكى تبينى لى بحكمك على هذه الفكرة إن كان لى أن أثق فى أحكامك على أفكارى الأخرى (إننى مقتنع بقيمة هذه الفكرة).

المخلص لك

كافكا

***

ليس من السهل مطلقا الآن، بعد أن قرأت هذه الرسالة المزعجة بالغة الإزعاج فى الحقيقة، أن أشكرك على السرور الذى جلبته لى

بوصولها. اليوم إجازة، ولم يصل البريد العادى بعد، ولا يمكننى أن أقطع بما إذا كان ثمة شيء سيصلنى منك غدا الجمعة، وعلى هذا فثمة نوع من الصمت الذى يبعث على الضيق، على الرغم من أنه لم يكن صمتا حزينا على الإطلاق بقدر مايسعك أن تدركى ذلك، لقد كنت فى غاية القوة، فى رسالتك الأخيرة، حتى لقد رحت أرقبك، كما لو كنت أرقب متسلقى الجبال من مكانى على مقعدى الخشبى لأرى إن كان فى استطاعتى أن أميزهم هنالك فى أعلى الجبل وسط الثلوج، ثم، لقد وصلت رسالتك فى النهاية، قبل الغداء، كان فى استطاعتى أن أتناولها فى الحال، أنتزعها من جيبى، وأضعهاعلى المائدة، ثم أضعها ثانية فى جيبى على نفس النحو الذى اعتادت الأيدى أن تسلكه فى العبث بالرسائل، إن المرء يرقب الأيدى وهى تفعل ذلك، ويعجب بما فيها من طفولة. طوال ذلك الوقت لم أكد أتعرف على الجنرال والمهندس اللذين كانا يجلسان فى مواجهتى (شخصين، مهذبين، ودودين)، ونادرا ما كنت أفهمهما، كما أن تناول الطعام الذى استأنفته اليوم ثانية (لم أتناول بالأمس شيئا من الطعام)، فلا تزيديننى خوفا إذن، فمن الخدع الحسابية التى درستها بعد تناول وجبتى بدت لى المشاكل القصيرة أكثر وضوحا بالنسبة لى من الحلول الطويلة، التى كان يتخللها رغم ذلك، مشهدا من خلال النافذة المفتوحة، كان فى مجال رؤيتى - منظر أشجار الشربين، والشمس، والجبال، والقرية، ومنظر عام لمدينة ڤيينا بالإضافة إلى هذا كله.

لكننى قرأت الرسالة بعد ذلك بعناية، أعنى أننى قرأت بعناية رسالة السبت، وسوف أؤجل قراءة رسالة الاثنين حتى تصلنى

رسائلك التالية، فثمة أشياء في تلك الرسالة لا أحتمل قراءتها بعناية. ويبدو واضحا أنني لم أشف شفاء تاما، علاوة على ذلك فالرسالة أصبحت رسالة قديمة الآن بالفعل، أذكر طبقا لإحصاء قمت به أن ثمة رسائل خمس في طريقها إليك حالياً، سوف تصل منها ثلاث على الأقل إلى يدك الآن، حتى لو حدث أن فقدت إحدى تلك الرسائل، أو تأخرت الرسائل المسجلة، والآن لا يبقى أمامي بعد هذا سوى أن أطالبك بالرد عليّ، هنا في الحال؛ مجرد كلمة واحدة تكفيني، لكنها يجب أن تكون تلك الكلمة التي تكسر حدة اللوم الذي تحفل به رسالة الاثنين، وتعينني على قراءة تلك الرسالة. اتفق لي، أن كنت خلال يوم الاثنين ذاك في نوبة صراع عقلي عنيف (وإن لم يصطبغ بصبغة يائسة).

والآن الرسالة الأخرى - إلا أن الوقت متأخر الآن، ذلك أنني كنت قد قبلت بصورة نهائية، بعد عدة وعود غير صريحة، أن أذهب لزيارة المهندس، وأن أتفرج على صور أطفاله، وهي صور كبيرة إلى حد لا يسهل معه إحضارها إلى هنا. إنه لا يكاد يزيد عني في العمر إلا قليلا، وهو باڤاري، صاحب ورشة، مثقف جدا، إلا أنه مرح، وحساس، أنجب خمسة أطفال، بقي اثنان منهم فقط على قيد الحياة (ومع ذلك فلن ينجب مزيدا من الأطفال، بسبب زوجته)، ويبلغ ابنه الآن الثالثة عشرة من عمره، وتبلغ ابنته الحادية عشرة. ياله من عالم!، ومع ذلك أمكنه أن يحتفظ بتوازنه. لا!... لا تقولي شيئا يا ميلينا... ضد التوازن.

المخلص لك

ف

سأكتب لك أكثر غدا، وقد أكتب لك مع ذلك بعد غد، وأرجوك ألا (تكرهى) مرة أخرى، لا تفعلى ذلك.

قرأت رسالة يوم السبت مرة أخرى، فبدت لى أشد إزعاجا منها عندما قرأتها لأول مرة، يجب على المرء يا ميلينا، أن يأخذ وجهك بين راحتيه، وينظر مباشرة فى عينيك، لعلك أن تتعرفى على نفسك فى عينى الآخر، فلا تقوين بعد تلك اللحظة حتى على مجرد التفكير فى مثل تلك الأشياء التى كتبتها فى رسالتك تلك.

***

الجمعة

متى يأتى فى النهاية شخص ما، فيقيم هذا العالم المقلوب رأسا على عقب؟ فى أثناء النهار يتجول المرء ورأسه تكاد تحترق - ثمة خرائب رائعة فى كل مكان، هنا فى الجبال، ويحس المرء عند رؤيته لها بأن عليه أن يصبح هو أيضا فى مثل روعتها - فى الفراش، مع ذلك، يقتنص المرء، بدلا من النوم، أروع الأفكار، اليوم مثلا، عنّ لى، بالإضافة إلى اقتراح الأمس، أن بإمكانك قضاء الصيف فى الريف مع (شتاشا)[1] التى كتبت لى عنها. سطرت أمس ملاحظة سخيفة، أشرت فيها إلى أنه قد تنقضى بضعة شهور قبل أن تعجز إمكانياتى المالية عن الوفاء بالمطلوب، لقد كان هذا محض هراء، إن المال سيكفى دائما.

إن رسالتى صباح الثلاثاء، ومساء الثلاثاء، قد أكدتا لى قيمة اقتراحى، وهو أمر لايعد مصادفة عارضة. ذلك أن قيمة الاقتراح لابد من أن يؤكدها كل شىء، كل شىء على الإطلاق. فلو كان ثمة شىء

١) إحدى صديقات ميلينا.

من الخبث فى ذلك الاقتراح – وأين هو المكان الذى يمكن ألا يوجد فيه ذلك (الحيوان) الشنيع الذى يمكنه أن يجعل نفسه صغيرا غاية الصغر حتى لتصعب رؤيته، متى راق له أن يفعل ذلك؟ – عندئذ سأعيد النظر فى الأمر، ويمكن أن يطمئن إلىّ فى هذا زوجك نفسه. إننى ميال إلى المبالغة، ومع ذلك فيمكن الثقة بى. لم أرك مطلقا، لا الآن، ولا فيما بعد. وسوف تعيشين أنت فى ذلك الريف الذى تحبينه (إننا متشابهان فى هذا: فالريف المنبسط، غير المقفر تماما، الريف الذى يزدحم بالغابات والبحيرات، هو ما أحبه غاية الحب)

إنك تبخسين قدر رسائلك يا ميلينا، إن رسائل يوم الاثنين (إننى مشغول بأمرك فحسب)، إننى لم أفرغ بعد من قراءة تلك الرسائل. (ولقد حاولت قراءتها هذا الصباح. لقد تحسنت رسائلك إلى حد ما –، حقا لقد أصبحت بالفعل، شيئا أقرب إلى التاريخ بفعل اقتراحاتى، إلا أننى مازلت عاجزا عن قراءة تلك الرسائل إلى نهايتها).

أما عن رسالة يوم الثلاثاء، فهى (مثلها مثل تلك البطاقة البريدية الغريبة، المكتوبة فى أحد المقاهى؟ – ليست لدى أية إجابة حتى الآن على اتهامك الذى يتناول موضوع ڤيرفل – وأخشى ألا أتمكن من الإجابة على أى شيء مما تنتظرين أن أجيبك عليه، إنك تجيدين الرد، على نحو أفضل منى، وهو ما يطمئن له المرء)، جعلتنى رسالة الثلاثاء تلك هادئا هدوءا تاما، وراضيا على الرغم من ليلة قضيتها فى أرق سببه رسالة يوم الاثنين. إن رسالة الثلاثاء لها بالطبع وخزتها هى أيضا، وهى وخزة تنفذ فى الجسم، لكنك أنت[1] من تتخسين تلك الوخزات – هذا بالطبع هو مجرد حقيقة لحظة، لحظة

١) هنا يستخدم كافكا لأول مرة، ضمير الشخص الثانى المفرد (أنت)–Du، فى مخاطبة حبيبته، بدون تكلف، لكنه سرعان ما يعود ثانية إلى استخدام ضمير الجمع Sie الذى يستخدم فى صيغة التحفظ.

ترتعش بالسعادة والألم –، فما هو الشيء الذى يصدر عنك، ثم يصعب على تحمله؟

ف

لو واتتك الفرصة، ولم تجدى في الأمر غضاضة، أرجوك أن تقولى كلمة رقيقة (لڤيرفل) نيابة عني– ثمة أسئلة لسوء الحظ لم تجيبني عليها مع ذلك. مثلا، تلك الأسئلة التى تتناول كتاباتك.

لقد حلمت بك أخيرا مرة أخرى، ولقد كان حلما طويلا إلا أننى لا أكاد أذكر منه شيئا. كنت فى ڤيينا التى لا أذكر عنها شيئا، ثم وصلت بعد ذلك إلى براغ، ونسيت عنوانك، لم أنس اسم الشارع فحسب، بل لقد نسيت المدينة بأكملها أيضا، نسيت كل شيء. فقط طفا على سطح ذاكرتى على نحو ما اسم (شرايبر)، إلا أننى لم أدر ماذا يمكننى أن أفعل به. وعلى هذا فقد فقدتك نهائيا. وفى غمرة يأسى قمت بعديد من المحاولات الخبيثة التى لم أدر كيف لم تنجح على الرغم من خبثها فى تحقيق أى شيء ، ولم أعد أذكر من هذه المحاولات سوى واحدة فقط.

كتبت فوق أحد مظاريف الرسائل اسم (ميلينا)، وتحته (أرجو أن تسلم هذه الرسالة إليها، وإلا فإن وزارة المالية، سوف تتكبد خسائر فادحة)، وبهذا التهديد كنت آمل أن تتحرك كل إمكانيات الحكومة للعثور عليك!

الخبث؟ لا تسمحى لنفسك بأن تتهمينى به لهذا. لقد كان ذلك فى الحلم وحده. إننى لست شريرا إلى هذا الحد سوى في الأحلام فقط.

لقد أخرجت الرسالة مرة أخرى من داخل المظروف، فثمة متسع لها غيره: أرجوك قولى مرة أخرى فحسب، – لا تقوليها دائما، فلست أريد ذلك أيضا –، قولى أنت Du فحسب، عندما تخاطبيننى، مرة أخرى.

***

إننى أقوم بشىء من قبيل الإحصاء. كتبت هذه الرسالة فى يوم السبت، ووصلت يوم الثلاثاء ظهرا، على الرغم من عطلة الأحد، و اليوم الثلاثاء، أنتزع من يد الخادمة، ذلك الرباط البريدى البديع، وعلى أن أرحل يوم الاثنين، وأتركها، أترك هذه الرسالة.

إنك بالغة الطيبة لانزعاجك بشأنى، أنت تنتظرين الرسائل، نعم، فى الأسبوع الماضى لم أكتب، انقضت بضعة أيام قلائل، لم أكتب لك فيها، لكننى كتبت لك يوميا ابتداء من يوم السبت، وعلى هذا فسوف تصلك الآن ثلاث رسائل، عند مقارنتها بما سبقها من رسائل، سوف تحمدين الفترة التى لم تصلك خلالها أية رسائل منى. ستتحققين من أن مخاوفك قد تحققت بصورة عامة، وأننى غاضب منك أيضا. وأن ثمة أشياء لا أحبها فى رسائلك على وجه الخصوص، وأن القصاصات قد ضايقتنى، وهكذا.

لا ياميلينا، ليس لك أن تخشى شيئا من هذا كله، ذلك أن العكس هو ما سوف يجعلك ترتعدين.

إنه لأمر بالغ الخطر أن يتسلم المرء رسالتك، وأن يكون عليه أن يرد عليها بعقلى المؤرق. لا يمكننى أن أفكر فى شىء يصلح لكى أكتب لك فيه، إننى أتسكع فحسب، هنا بين السطور. تحت ضياء عينيك، وتحت أنفاسك كما لو كنت أتنزه فى يوم سعيد صحو، يظل صحوا وسعيدا، حتى عندما يكون الرأس متوعكا، مرهقا، وعندما يكون على المرء أن يرحل يوم الاثنين عن طريق ميونيخ.

المخلص لك

ف

ها عدت جريا، متقطعة الأنفاس إلى المنزل بسببى؟ ، لكن ألست مريضة، وهل لم يعد لي بعد أن أخاف عليك؟ إن هذه هى الحقيقة،

إننى لم أعد أهتم بأمرك – لا، إننى أبالغ الآن كما سأبالغ فيما بعد، لكنه ذلك الاهتمام الذى كنت سأبديه نحوك لو أنك كنت هنا تحت إشرافى، أسقيك اللبن الذى أشربه. وأنعشك كما أحاول أن أنعش نفسى باستنشاق الهواء الذى يهب علي من الحديقة – لا، سوف يكون هذا قليلا جدا، أعنى إنعاشك بصورة تفوق كثيرا انتعاشى أنا.

قد لا أغادر هذا المكان يوم الاثنين لعدة أسباب، ولعلنى أغادره بعد ذلك بقليل. سوف أسافر مباشرة، مع ذلك، إلى براغ، فلقد سيروا أخيرا قطارا سريعا على خط بولتسانو– ميونيخ – براغ. إذا كنت ما تزالين ترغبين فى أن تكتبى إلى بضعة سطور، فيمكنك أن تفعلى ذلك، فهل لن تصلنى هذه السطور، أظن أنها سوف تسبقنى إلى براغ.

فامضى قدما فى العناية بي.

ف

إن المرء بالغ الحمق حقا، إننى أقرأ كتابا عن التبت، وعندما بلغت وصف إحدى المستعمرات التى تقوم بالقرب من حدود التبت، فى الجبال، أخذ قلبى فجأة يزداد ثقلا، إن هذه القرية تبدو لى مقفرة بصورة موحشة للغاية وهى على هذا البعد من فيينا. إن ما أراه حمقا هو فكرة، إن التبت بعيدة عن فيينا، فهل ستكون بعيدة حقا ؟

***

الخميس

ها أنت ترين يا ميلينا أننى أستلقى فوق المقعد الخشبى فى الصباح، عارياً، نصفى فى الشمس، ونصفى الآخر فى الظل، بعد ليلة مؤرقة بطولها تقريبا، وكيف يتسنى لى أن أنام، وأنا، الخفيف

كالريشة بالنسبة للنوم، أدور حولك باستمرار، وطالما كنت خائفا(تماماً كما كتبت أنت اليوم) ، خائفا حقا من ذلك (الذى سقط فى طوقى)، خائفا نفس الخوف الذى سمعناه عن الأنبياء، الذين كانوا أطفالا ضعفاء (خائفين فعلا، وإن يكن خوفهم هذا مايزال فى بدايته). حين سمعوا صوتا يناديهم، فخافوا، وشقوا عصا الطاعة، ودقوا أقدامهم فى الأرض، وأحسوا لحظتها بخوف يطير له العقل شعاعا، لابد أنهم قد سمعوا بلا شك، أصواتا من قبل، لكنهم لم يفهموا كيف تأتى لهذه الرهبة أن تصدر عن هذا النداء بالذات، فهل كان ضعف آذانهم، أو كانت قوة الصوت هى السبب؟، كما أنهم لم يدركوا، لأنهم كانوا أطفالا، أن ذلك الصوت كان قد ساد بالفعل، وأكد وجوده بذلك النذير السابق نفسه الذى أحسوه عند سماعه، والذى لم يثبت بعد بحدوثه مع ذلك، أى شئ يتعلق بأمر نبوتهم، ذلك أن الكثيرين قد سمعوا ذلك الصوت، لكن جدارتهم بسماعه هو أمر يكتنفه الشك، فلكى يلزم المرء جانب الأمان، من الأفضل له أن ينكره بشدة، مقدما – هذه إذن هى حالتى وأنا مستلق هنا عندما وصلتنى رسائلك.

ثمة صفة غريبة أظن أننا كلانا نشترك فيها يا ميلينا، ذلك أننا فى غاية الخجل، والقلق، وتختلف كل رسالة من رسائلنا عن الأخرى على نحو ما، وترتعد كل رسالة عن الرسالة التى تليها، وترتعد أكثر من الرد. إنك لست كذلك بطبيعتك، من السهل أن يدرك المرء ذلك، وأنا، ربما كنت أنا أيضا، مخالفا لذلك بطبيعتى، إلا أن ذلك قد أصبح على الأغلب، هو طبيعتى الثانية بالفعل، إن حالتى هذه تختفى فقط عندما ينتابنى اليأس، وأحيانا عندما ينتابنى الغضب، ولا حاجة

بى إلى أن أقول إنها تزايلنى عندما أشعر بالخوف.

ينتابنى أحيانا إحساس بأننا كلانا فى حجرة واحدة لها بابان متقابلان، وكل منا يقبض على مقبض أحد البابين، وما إن يطرف جفن أحدنا، حتى يكون الآخر خارج الباب الذى يمسك بمقبضه، عندئذ لا يكون على الأول سوى أن ينطق بكلمة حتى يكون الآخر قد أغلق الباب خلفه، فلا تصبح رؤيته ممكنة. إنه سيفتح الباب ثانية بلا شك، لأنها حجرة قد لا يتسنى للمرء أن يغادرها، فلو لم يكن الأول يشبه الثانى إلى هذا الحد، لو أنه كان هادئا، أو لو أنه فقط تعمد ألا ينظر إلى الآخر، لو أمكنه بتؤدة أن يشرع فى ترتيب الحجرة كما لو كانت مجرد حجرة كغيرها من الحجرات، لكنه بدلا من أن يفعل ذلك، فعل ببابه نفس ما فعله الآخر تماما، حتى أن كلاهما قد يكونان أحيانا خارج البابين، بينما تبقى الحجرة البديعة خالية.

عن مثل هذه الحالة ينتج الكثير من سوء التفاهم المؤلم. تشكين يا ميلينا من بعض الرسائل التى نفضتها جيدا فلم يسقط منها شئ، إلا أنها، ما لم أكن مخطئا هى تلك الرسائل التى أحسست عند كتابتها أننى قريب منك غاية القرب، وأن دمائى تألفك، وتحاول أن تروض دمائك، إنها تلك الرسائل التى أحسست بنفسى فيها أغوص فى أعماق الغابة، وأحسست فيها بغاية الراحة، فى ارتياحى، حتى أن المرء لا يريد فى الحقيقة أن يقول شيئا سوى أن هناك فى الأعالى، خلال قمم الأشجار يمكنه رؤية السماء، وهذا هو كل شئ، وطوال ساعة يظل المرء يردد نفس الشئ، ولا يوجد فى هذا كله حقا «كلمة واحدة لم يتدبرها المرء تمام التدبر». غير أن ذلك لم يدم طويلا مع ذلك، دقيقة على الأغلب، وسرعان ما ارتفعت ثانية أصوات طبول

الليل الساهر.

يجب أن تتدبرى أنت أيضا يا ميلينا، نوع الشخص الذى خطا نحوك، إن رحلة الثمانية والثلاثين عاما تستلقى خلفه (ولما كنت يهوديا فإن الرحلة فى حقيقتها أطول بالفعل من ذلك)، فلو أننى عند منعطف عارض تبدى لى فى طريقى، قد رأيتك، أنت التى لم أتوقع أن أراك مطلقا، وأن تجئ رؤيتى لك فوق ذلك متأخرة إلى هذا الحد، عندئذ لا يمكننى يا ميلينا أن أصيح ملوحا لك، ولا أن يهتف لك شئ فى داخلى، ولا أن أقول آلاف الأشياء الحمقاء، التى لا أجد لدى شيئا منها (وأحذف الحماقات الأخرى التى أحس أن لدى منها ما يزيد عن حاجتى)، أما عن حقيقة أننى راكع، فلعلنى لم أكتشف تلك الحقيقة إلا من خلال رؤيتى لقدميك أمام عينى مباشرة، فحسب، ومن تطويقى لهما بذراعىّ.

ولا تطالبيننى بشئ من الإخلاص، يا ميلينا، فلا أحد يمكنه أن يطالبنى بالإخلاص أكثر مما أطالب به نفسى، إلا أن أشياء كثيرة قد أفلتت منى، إننى واثق من ذلك، ولعل كل شئ يراوغنى. غير أن التشجيع فى هذه المطاردة لا يدفعنى، بل على العكس، فلعلنى لا أستطيع عندئذ أن أخطو خطوة واحدة، فكل شئ يصبح على حين فجأة مجرد كذبة، ويحاصر الصيد الصياد، إننى أسير على مثل ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر يا ميلينا.

إنك تقفين فى ثبات بالقرب من إحدى الأشجار، صغيرة، وجميلة، وعيناك بتألقهما تقهران العالم الذى يعانى الآلام. إننا نلعب لعبة (الاستخفاء)، فأنا أزحف من شجرة إلى أخرى فى الظلال، إننى أسير فى طريقى، وتنادييننى أنت، وتنبهيننى إلى الأخطار، وتحاولين

أن تبثى الشجاعة في نفسي، أنا المشدوه لخطوتى المتعثرة، تذكريننى أنا (أنا!) بخطورة اللعبة ـ غير أننى لم أستطع أن ألعبها، سقطت، وها أنذا الآن مستلق على الأرض، لا يمكننى أن أستمع فى وقت ما إلى ذلك الصوت المزعج الذى يرتفع من أعماقى، وأن أستمع إليك، غير أنه يمكننى أن أستمع إلى الصوت الأول، وأن أستودعه لديك، لديك دون أى كائن آخر سواك فى هذه الدنيا.

المخلص لك

ف

الأحد

هذه المحاضرة التى تشغل صفحتى رسالتك يا ميلينا، تنبعث من أعماق القلب – القلب الجريح – (لقد جرحنى ذلك – أليس هذا ما كتبته؟، – ولقد فعلت أنا ذلك حقا، لقد جرحتك) ولقد بدا ذلك أمرا بالغ البراعة، ومدعاة للفخر، وكأنه لم يكن القلب وقد جرح، بل قطعة من الصلب قد طرقها المرء، يتطلب ذلك من المرء سلوكا واضحا، ويسيء تأويل قصده كذلك – (ذلك أن «السخفاء» الذين يحسبون علىّ يحسبون عليك أيضا، ولأوجه عندئذ هذا السؤال: متى حدث أن تدخلت بينكما؟ أين هو الحكم؟ وكيف يتسنى لى أن أكون لنفسى هذه الفكرة الخسيسة؟ ومن أنا حتى أدين الغير، أنا الشخص الذى أبدو فى أى مجال يتطلب أن أكون واقعيا كالزواج – العمل – الشجاعة – التضحية – النقاء – الحرية – الاكتفاء الذاتى – الصدق، أبدو فى صورة أدنى بكثير فى أى من هذه الأمور بالقياس إليكما، حتى أن مجرد الحديث فى ذلك، يصيبنى بالسأم، ومتى حدث أن تجرأت أنا على تقديم المساعدة الفعالة، وإذا كنت قد تجرأت، فهل

كنت لأقدم هذه المساعدة؟

أسئلة وفيرة، كانت مستغرقة في النوم فى العالم السفلى، فما الذى توسل إليها بالخروج إلى ضوء النهار ؟، إنها أسئلة قاتمة وحزينة، وتجعل المرء مكتئبا وحزينا كذلك. لا تقولى لى أن ساعتين من الحياة، تزيدان قطعا عن صفحتين من الكتابة، (إن الكتابة أفقر، ولكنها أوضح) – وعلى هذا فقد أسىء تفسير قصدى، لايهم، إن المحاضرة قد ألقيت على، وأنا لست بريئاً، إننى لست بريئاً بما يكفى، وهو ما يبدو لى أمرا بالغ الغرابة، أساسا لأنه كان يجب الرد على الأسئلة السابقة بـ (لا)، وأبدا.

ثم تأتينى برقيتك العذبة، عزاء يعيننى على مواجهة الليل، ذلك العدو العتيد (فلو لم تكن برقيتك بالعزاء الذى يفى تماما بحاجتى، فلاشك أن ذلك ليس خطاك، لكنها قسوة الليل. فهذه الليالى القصيرة الدنيوية، تبث عميقا فى نفس المرء بنور الخوف من الليل الأبدى)، ومع أن الرسالة تحمل إلىّ عزاء بالغا ورائعا، إلا أنها رسالة فريدة مفعمة غضبا ينتشر فى ثنايا صفحتيها. غير أن البرقية مع ذلك تبدو على العكس من تلك الرسالة. ولايبدو عليها أنها تدرى شيئا عن طبيعة الرسالة، غير أننى يمكننى أن أقول هذا يا ميلينا، عن البرقية: لو أننى، دون اعتبار لأى شىء آخر، قد حضرت إلى ڤيينا، وألقيت أنت تلك المحاضرة علىّ (تلك المحاضرة التى كما قلت الآن لتوى، لاتتجاوزنى، بل تلكزنى عمدا، بقوة، وإن لم يكن ذلك بصورة مباشرة)، وجها لوجه – ولقد كانت تلك المحاضرة ستوجه إلى بصورة ما، وإن لم تكن فى صورة كلمات، فلقد كانت ستوجه إلى فى صورة أفكار، تشى بها نظرة، أو رمشة جفن، أو تضمين فى ثنايا

حديث آخر - عندئذ كنت سأنطرح على وجهى أرضا، ولم يكن ليوقفنى ثانية على قدمى أى مجهود من جانبك، تبذلينه فى تمريضى. فلو لم يحدث ذلك، على هذا النحو، فلست أشك فى أنه كان سيحدث بصورة أخرى أشد سوءا. هل تفهمين، يا ميلينا.

المخلص لك

ف

***

ماذا عن خبرتك بالطبيعة البشرية يا ميلينا؟، لقد انتابنى الشك بالفعل فى خبرتك بها عددا من المرات، عندما كتبت عن (فيرفل) مثلا. فعلى الرغم من الحب الذى يتبدى فيما كتبته، ولعل ما كتبته عنه لم ينطو على شىء غير الحب، إلا أن ماكتبته لم يكن صحيحا مع ذلك، فلو تجاهل المرء تجاهلا تاما جوهر شخصية فيرفل، وراح يعزف فقط على وتر وحيد هو التعريض ببدانته (التى تبدو لى بالمناسبة، مسألة لامبرر للتعرض لها على الإطلاق. على أن فيرفل يزداد فيما أرى جمالا وظرفا من عام إلى عام، وإن كنت فى الحقيقة لا أكاد أراه إلا رؤية عابرة)، ألا تعلمين أن البدناء من الناس هم وحدهم أهل الثقة؟ فى هذه الأوعية سميكة الجدران وحدها يتسنى لكل شىء أن ينضج نضجا تاما، وهل تعلمين أن هؤلاء (الرأسماليين) الذين يشغلون أكبر حيز من (الفراغ)، محصنون، غاية الحصانة المتاحة للبشر ضد الخوف، والجنون، وأنهم قادرون على أن يمضوا بهدوء فى أداء أعمالهم، وأنهم هم وحدهم، كما قيل ذات مرة، هم النافعون فى أنحاء العالم كله، باعتبارهم مواطنين عالميين، فهم يدفئون فى الشمال، ويلقون ظلا عريضا فى الجنوب (من

الممكن أن يعكس المرء هذا القول بالطبع، إلا أنه لا يصبح قولا حقيقيا عندئذ).

أما بالنسبة لليهود. أنت تسألينني عما إذا كنت يهوديا. ربما كان هذا السؤال مجرد مزحة فحسب، وربما كنت تسألينني فقط عما إذا كنت أنتمي إلى أولئك اليهود القلقين، لا يمكنك على أية حال باعتبارك مواطنة من براغ، أن تكوني في مثل سذاجة ماتيلدا، زوجة هاينز، في هذا الصدد. ولعلك لا تعرفين القصة. يبدو لي أن هناك بعض الأمور الهامة على أن أقصها عليك، ولاشك أيضا في أنني سأوذي نفسي على نحو ما، لا بالقصة، بل بمجرد سردها، غير أنك تستحقين على الرغم من كل شيء أن تستمعي مني مرة إلى شيء جدير بالسماع - هذه القصة يحكيها(مايسنر)، وهو شاعر بوهيمي - ألماني، وهو ليس يهوديا؛ يحكيها في سيرته الذاتية. فلقد اعتادت ماتيلدا أن تضايقه بهجومها على الألمان، فقد قالت إن الألمان هم قوم خبثاء، صلفون، متعصبون لجنسهم، وتثيرهم توافه الأمور، وأنهم فضوليون، وأنهم باختصار أمة لاتطاق.

حتى قال لها مايسنر أخيرا ذات مرة : «ولكنك لا تعرفين الألمان مطلقا»!، فهنري، لا يختلط على أية حال، سوى بالصحفيين الألمان وحدهم، وهم هنا في باريس جميعا من اليهود!»، فأجابته ماتيلدا قائلة : «أوه... إنك تبالغ، فربما كان بينهم يهودي هنا، أو يهودي هناك، (سيفرت) مثلا-، قال مايسنر : «لا، إنه الوحيد غير اليهودي بينهم»، فقالت ماتيلدا : «ماذا ؟ هل تعني بقولك هذا أن يتيليس مثلا (وهو رجل طويل أشقر، قوي البنية) يهودي ؟»، قال مايسنر «بالطبع إنه كذلك» «لكن ماذا عن بامبيرجر؟» - «هو يهودي أيضا!»، و

«أرنشتين؟»، «وأرنشتين كذلك!»، وهكذا راحا يعددان جميع معارفهم وأخيرا استطاعت ماتيلدا وقالت: «إنك تحاول أن تغيظني، ولعلك ستنتهي أيضا إلى أن (كون) هو اسم لشخص يهودي، غير أن (كون) في نهاية الأمر، هو اسم ابن عم هنري، وهنري لوثري كما تعلم!»

عند هذا لم يجد مايستر شيئا ليقوله - وعلى أية حال، لا يبدو أنك تتوجسين خيفة من اليهود، إننا لو نظرنا إلى الجيل الأخير، أو الجيل الأخير والوحيد من اليهود في مدننا، لبدا لنا الاختلاط بهم ضربا من البطولة، و - لندع المزاح جانبا - لو أن فتاة بريئة قد قالت لذويها : «إني راحلة!»، ورحلت لتختلط بهؤلاء، لكان الأمر عندئذ شيئا أخطر من رحيل (جان دارك) من قريتها.

قد تلومين اليهود على قلقهم البالغ، غير أن مثل هذا اللوم العام، إنما يكشف عن معرفة نظرية أكثر منها عملية بالطبيعة البشرية. معرفة نظرية أكثر، ذلك أن هذا اللوم، على أية حال، لايناسب زوجك على الإطلاق بناء على وصفك السابق، وثانيا لأنني لا أراه لخبرتي منطبقا على معظم اليهود، وثالثا لأن مثل هذا اللوم ينطبق فحسب على الأفراد المنعزلين، غير أن هؤلاء أشد حدة ، مثلي شخصيا. إن أغرب شيء هو أن ذلك اللوم هو لوم لم يصادف محله بصفة عامة. إن وضع اليهود المهدد، ذلك الشعور بعدم الأمان الذي ينبعث من داخلهم، وشعورهم بعدم الأمان وسط الآخرين، يوضح جيدا، وقبل كل شيء ما يقوم في نفوسهم بأنه ليس لهم أن يمتلكوا سوى ما يقع في أيديهم، أو ما يقبضون عليه بأسنانهم، ذلك الشيء الذي تقع أيديهم عليه، أو تنطبق عليه أسنانهم والذي يتحدد فضلا عن ذلك في

صورة ملكيات صريحة ، هو ما يعطيهم وحده الحق في الحياة، بالإضافة إلى شعورهم بأنهم لن يحصلوا مره أخرى أبدا على مايفقدونه ذات مرة، ذلك أن ما يفقدونه يسبح، بدلا من عودته إليهم، مبتعدا عنهم إلى الأبد، إن اليهود من جوانب عدة ، بعيدة الاحتمال، مهددون بالأخطار، أو لنقل، حتى نكون أكثر دقة، ولنترك الأخطار جانبا، ونقول إنهم مهددون بالتهديدات. ثمة مثال يتصل بك على نحو غير مباشر، كنت قد انتويت بالفعل ألا أتحدث عنه (في وقت لم أكن قد عرفتك فيه معرفة كافية)، غير أنني لا أجد ما يثقل ضميري لذكره لك، لأنه لن يحيطك علما بجديد، وإن كان سيوضح لك حب الأقارب، وإن كنت لن أذكر الأسماء والتفاصيل، طالما أنني لا أعرفها. كان من المفروض أن أختي الصغرى ستتزوج شخصا تشيكيا، مسيحيا، وعندما أخبر ذلك الشخص إحدى قريباتك ذات مرة، بأنه ينوي الزواج من يهودية، قالت: «كل شيء إلا هذا ، كل شيء إلا الاختلاط باليهود!»، فتصوري هذا يا ميلينتنا...!

إلى أين تراني أحاول أن أقودك بهذا كله؟ ، لقد ضللت طريقي إلى حد ما، إلا أن هذا لايهم، ذلك أنك ربما كنت تتعقبينني، وعلى ذلك فقد ضل كلانا الآن. إن جمال ترجمتك يكمن فحسب في صدقها (انهريني مادمت صادقة في هذا، في وسعك أن تفعلي أي شيء، غير أن أفضل ما يمكنك أن تفعليه، ربما كان هو التعنيف الذي توجهينه إلي، يسعدني أن أكون تلميذك، وأن أرتكب الأخطاء طوال الوقت، فقط لمجرد أن تعنفيني طوال الوقت، إن المرء ليجلس في مقعد الدراسة ولايكاد يجرؤ على التطلع إلى أعلى. فتنحنين أنت علي، ويتألق طرف أصبعك الذي ترفعين به احتجاجاتك، هل هذا صحيح؟)

– حسنا أن يكون هذا هو الصدق، وأن يكون لدى إحساس باقتيادك من يدك خلفى بطول الممرات الأرضية المظلمة، المنخفضة، الكئيبة، ممرات القصة، التى لا نهاية لها على الأغلب (وهذا هو السبب فى أن العبارات، عبارات طويلة لا نهاية لها، ألم تلاحظى ذلك؟)، تلك الممرات التى لا نهاية لها غالبا (هل قلت شهرين فقط؟)، حتى ينتابك، وهذا ما آمل فيه، الإحساس بالتزايل عند التقائك بالضوء الساطع، فى نهاية الممر المؤدى إلى سطح الأرض.

مذكرة لأن أنطلق اليوم، أن أرخى اليوم تلك اليد التى تسعدنى. غدا سأكتب ثانية، وأشرح بقدر ما يسعنى أن أضمن ما قد ينتهى إليه الحال من ناحيتى، لماذا لن أحضر إلى فيينا، ولن أهدأ، حتى أسمعك تقولين: إنه على حق.

المخلص لك

ف

أرجو أن تكتبى العنوان بوضوح أكثر قليلا، فما إن تصبح رسائلك فى داخل مظاريفها، حتى تصبح عندئذ ملكا لى على الفور، وعليك أن تتناولى ممتلكات الغير بعناية أكثر، بشعور أكثر بالمسئولية (هكذا!).

ولدى أيضا انطباع ما، دون أن تكون لدى القدرة الكافية لتحديده، انطباع بأن رسالة لى قد فقدت، قلق اليهود!، وهو بديل عن خوفى من أن تكون الرسائل قد وصلتنى بسلام!

والآن سأقول شيئا آخر أحمق فى نفس الصدد. شيئا أحمق، ذلك لأننى بسبيلى إلى أن أقول شيئا أعتبره صحيحا، بصرف النظر عن حقيقة أنه سيسبب لى ضررا ما. ومازال ميلينا عندئذ تتحدث عن

القلق، وتلطمنى على صدرى لطمة، أو تسألنى (ما الذى يجعل الصوت والإيقاع مترابطا إلى هذا الحد، موحيا بنفس معناه فى اللغة التشيكية): (Jste Zid?) (هل أنت يهودى؟)، ألا تلاحظين كيف تتراجع قبضة اليد فى الـ (Jste) ، تتراجع لكى تتجمع قوة عضلاتها؟، ثم فى الـ (Zid)، تهوى اللطمة الخاطفة، المنتعشة التى لا تخطىء هدفها؟ هذه هى الآثار الجانبية التى توحى بها اللغة التشيكية للأذن الألمانية.

لقد سألتنى ذات مرة، على سبيل المثال، كيف أمكننى أن أجعل إقامتى هنا تعتمد على استلام رسالة، و رددت على نفسك فى الحال بقولك:

«لست أدرى» (nechápu)، كلمة غريبة فى اللغة التشيكية، وهى تبدو أكثر من ذلك غرابة عندما تصدر عن فمك، إنها كلمة بالغة القسوة والجمود، كلمة جافة، عديمة الرحمة، وشبيهة فوق هذا كله بكسارة البندق، فالفكين يصران فوق بعضهما ثلاث مرات فى أثناء نطقها- أو إن شئنا الدقة، فإن المقطع الأول منها يبدو وكأنه محاولة للإمساك بالبندقة، مجرد الإمساك بها فقط، ثم يفتح المقطع الثانى من تلك الكلمة، الفم على اتساعه، فتدخل البندقة فى داخله عندئذ، ويكسرها المقطع الثالث فى النهاية، ألا تسمعين صرير الأسنان[1]، ثم إغلاق الشفتين بعد هذا كله فى النهاية، تلك الحركة التى تمنع الآخر من أن يحاول القيام بأننى اعتراض يحاول به تفسير الأمر، وهو ما يجب حدوثه بالفعل، لوكان الآخر مثلا، لايفعل سوى الثرثرة

١) ربما كانت المقاطع الثلاث فى هذه (الكلمة) تشير أيضا إلى الحركات الثلاث التى يأتيها (الحواريون) فوق ساعة براغ. الوصول، وإثبات وجودهم، ثم الرحيل الغاضب (تذييل كافكا).

كما أفعل أنا الآن. عندئذ يعتذر الثرثار قائلا مرة أخرى: «إن المرء، على أية حال، لايثرثر إلا عندما يشعر مرة بشيء من السعادة».

بالمناسبة لم تصلني منك اليوم رسالة. وما أردت أن أقوله في الحقيقة بعد هذا كله، لم أقله لك بعد. ربما قلته لك في فرصة أخرى. يسرني كثيرا جدا أن أتلقى منك شيئا غدا، ذلك أن الكلمات الأخيرة التي سمعتها منك قبل صفق الباب - إن صفق الأبواب أمر بالغ الفظاعة في كل الأحوال - كانت كلمات مزعجة.

المخلص لك

ف

***

الاثنين

والآن هاهو التفسير الذي وعدتك به بالأمس:

إنني لا أريد أن (ساعديني يا ميلينا وحاولي أن تفهمي أكثر مما أقوله!) لست أريد أن (ليس هذا ترددا) أحضر إلى فيينا، ذلك أنني لا أحتمل الجهد العقلي، إنني مريض عقليا، وإن مرض الرئة ليس سوى فيضان مرضي العقلي. إنني مريض على هذا النحو منذ السنوات الأربع أو الخمس التي انقضت في محاولتي الأوليتين للخطبة (في البداية لم أستطع أن أفسر لنفسي بهجة رسالتك الأخيرة، ثم أدركت تفسير ذلك فيما بعد، وإن ظللت أتجاهله: فأنت على أية حال، شابة صغيرة للغاية، لعلك لم تبلغي بعد الخامسة والعشرين من عمرك، وربما كنت في الثالثة والعشرين، بينما أنا في السابعة والثلاثين من عمري، أو أكاد أكمل الثامنة والثلاثين على وجه الدقة، أي أنني أكبرك بجيل تقريبا، وقد ابيض شعري بفعل الليالي

الماضية، وآلام الصداع). لن أعرض عليك قصتي الطويلة بغاباتها المتكاثفة من التفاصيل، تلك التفاصيل التي ما أزال أخافها كطفل، وإن لم تكن لدي قدرة الطفل على النسيان، إن ما آلت إليه محاولات خطوبتي الثلاث بصفة عامة لا يعني سوى أنني كنت مخطئا في كل شيء، لاشك في أنني كنت مخطئا غاية الخطأ. لقد تسببت في تعاسة الفتاة في كلتا المرتين - إنني أتحدث الآن فقط عن الأولى، فلا يسعني الحديث عن الثانية، فهي فتاة بالغة الحساسية، حتى أن أية كلمة، وإن كانت أرق الكلمات، قد تكون من أقسى الإساءات التي توجه إليها، وهو شيء أفهمه حق الفهم - ولأنه لولاها وحدها بالفعل (تلك الفتاة التي لوكانت قد لمست شيئا من الإصرار من جانبي لكانت قد ضحت بنفسها) ما تسنى لي أن أذوق طعم السعادة المتصلة، ولا عرفت الهدوء، أو التصميم. وقد تلاشت قدرتي على مواجهة الزواج، على الرغم من أنني كنت قد أكدت لها تكرارا، ومن تلقاء نفسي عزمي على الزواج، وعلى الرغم من أنني أحببتها أحيانا حبا عنيفا متهورا، وعلى الرغم من أنني لم أعرف وقتها شيئا أحب إلي من فكرة الزواج في حد ذاتها. ولقد أنفقت خمس سنوات أطرق تلك الفتاة بمطرقتي، أو أطرق نفسي، إذا شئت - حسنا، كانت لحسن الحظ، فتاة يهودية - بروسية، مولدة، غير قابلة للكسر، كانت خليطا قويا لايقهر. بينما لم أكن أنا ذلك الشخص القادر على رفع المطرقة، على أنها على أية حال، لم يكن أمامها سوى أن تعاني فحسب، بينما كنت أنا أهوى عليها بمطرقتي وأعاني.

كفى لا يمكنني أن أكتب أكثر من هذا، ولا أن أشرح أكثر من

كفي لا يمكنني أن أكتب أكثر من هذا، ولا أن أشرح أكثر من هذا، على الرغم من أنني قد بدأت فحسب، وعلى الرغم من أنني سأشخص المرض العقلي، وسوف أذكر أسبابا أخرى لعدم حضوري. لقد وصلتني برقية:

«مكان اللقاء كارلسباد، في الثامن من الشهر. أرجو أن تتصل برسالة»،أعترف بأنني قد صدمت عندما فضضت هذه البرقية، صدمة شديدة، على الرغم من أن من كان يختفي خلف تلك البرقية كانت أكثر المخلوقات تنزها عن الأنانية، وأكثرهم هدوءا، وأكثرهم تواضعا، وعلى الرغم من أن ذلك كله هو ما كنت أريده. لايمكنني أن أوضح ذلك الآن، ذلك لأنني لايمكنني أن أشير إلى تشخيص للمرض. غير أنه من المؤكد تماما في هذه اللحظة: أنني سأرحل من هنا يوم الاثنين. إنني أتطلع إلى البرقية من وقت لآخر، ولايمكنني أن أقرأها سوى بصعوبة بالغة، كما لوكان ثمة سر يكمن تحت كلماتها، سر يدفع الكلمات إلى السطح لتتضح من تحتها الكلمات الحقيقية التي تتضمنها البرقية: «ارحل عن طريق ڤيينا!» أمر صريح، لكن بدون ذلك الرعب الذي تتركه الأوامر في النفس عادة. لن أفعل ذلك، وإن لم يبد لي أي معنى من الناحية العملية، لاتخاذ الطريق الطويل عن طريق «لنتس»، ثم الطريق الأطول منه عن طريق (ڤيينا)، بدلا من الطريق القصير الذي يمر (بميونيخ). إنني أجري اختبارا ما، فثمة عصفور في الشرفة، يتوقع أن أقذف إليه ببعض فتات الخبز من على المائدة. توقف الطائر خارج الحجرة. وراح يتطلع من هناك إلى الطعام في العتمة، إن التوتر يستولي عليه، إنه يتواجد هنا أكثر مما يتواجد في مكانه من الشرفة، لكن هنا الظلام، وبجانب الخبز أوجد

أنا، تلك القوة الغامضة، على أنه قفز مع ذلك إلى العتبة، قفزات قليلة أخرى عليه أن يقفزها، إلا أنه لم يجرؤ على أن يتقدم أكثر من ذلك، وفي خوف مفاجيء طار بعيدا. لكن أية طاقة تلك التي تدفع ذلك الطائر متواضع التركيب، ذلك أنه لم يلبث أن عاد ثانية بعد فترة قصيرة، وراح يتفحص الموقف. ونثرت أنا بعضا من فتات الخبز حتى أسهل عليه محاولته في الحصول عليه، على أنني لو لم أطارده، سواء كنت فعلت ذلك عن عمد أو بغير عمد (وهذه هي كيفية عمل القوى الغامضة)، بحركتي المفاجئة، لكان قد حصل على الخبز.

الحقيقة أن عطلتي تنتهي في نهاية يونيو، غير أنني أحب كمرحلة انتقال - إن الجو يزداد حرارة هنا، وهو أمر لن يضايقني كثيرا في حد ذاته -، أن أقضي بعضا من الوقت في مكان ما غير هذا المكان، في الريف - وتريد هي أن ترحل أيضا، وكان المفروض أن نلتقي هناك الآن، سأبقى بضعة أيام قلائل، وقد أبقى بضعة أيام قلائل أخرى في كونستنتينباد بصحبة والدي، ثم بعد ذلك أذهب إلى براغ، عندما تمر ببالي تلك الرحلات، ثم أفكر في حالتي العقلية، أشعر عندما أعقد مقارنة بينهما بنفس ما قد يشعر به نابليون لو أنه، وهو يعد خططه لحملته على روسيا، قد أتيح له أن يعلم مقدما بالنتائج الخاسرة لتلك الحملة في لحظة إعداده لها.

وعندما وصلتني رسالتك الأولى، منذ فترة قصيرة، وأظن أن ذلك كان قبل موعد الزفاف المحدد مباشرة (ذلك الزفاف الذي كنت أنا نفسي قد قمت بالفعل بكل ترتيباته) فقد سررت لوصول تلك الرسالة منك، وأطلعتها عليها، وفيما بعد - لا لن أمضي في ذلك، ولن أمزق رسالتي هذه أيضا مرة أخرى، يبدو أن لنا بعض الطباع المشتركة

فيما عدا أنني لا أجد موقدا فى متناول يدى، وإننى أخشى أن أكون – فثمة دلالة على ذلك أو دلالتين – قد أرسلت فى إحدى المرات إلى الفتاة ردا على إحدى رسائلها، رسالة كتبتها علي ظهر أحد رسائلى تلك التى لم تتم، ولم أرسلها إليك.

على أن هذا كله لايهم، فلم يكن يسعنى أن أحضر إلى ڤيينا حتى ولو لم تصلنى برقية، على العكس، لقد حفزتنى البرقية على القيام بالرحلة.

من المؤكد أننى لن أحضر، غير أننى من ناحية أخرى– ولن يحدث هذا – قد أجدنى لدهشتى البالغة فى ڤيينا. عندئذ لن أكون فى حاجة لا إلى الإفطار ولا إلى العشاء، بل سأجدنى في حاجة إلى محفة، أستلقى فوقها بعضا من الوقت.

وداعا. لن يمر هذا الأسبوع هنا فى سلام.

المخلص لك

ف

لو رغبت فى أن تكتبى إلى شيئا، فاكتبى لى على العنوان التالى (كارلسباد، شباك البريد).لا، لاتكتبى شيئا حتى أصل براغ.

ما هو نوع تلك المدارس الهائلة التى تقومين بالتدريس فيها، هل تضم مائتين من الطلبة، أم تراها تضم خمسين طالبا. بودى أن أجد لنفسي مقعدا بجوار إحدى النوافذ فى الصف الأخير، لمدة ساعة، أرفض بعدها أى لقاء معك (ذلك اللقاء الذى لن يتم بحال من الأحوال)، وأرفض جميع الرحلات، و... – كفى، إن هذه الورقة البيضاء التى لاتبدو لها نهاية، تخطف عينى المرء، وهذا هو السبب فى إنسياق المرء فى الكتابة.

كان ذلك فى الظهيرة، على حين تقترب الساعة الآن من الحادية عشر مساء، لقد رتبت كل شىء على النحو الوحيد الممكن في هذه اللحظة. لقد أبرقت إلى براغ بأننى لن أتمكن من الحضور إلى كارلسباد، وسوف أوضح ذلك في شيء من التضارب، هو غاية فى الصراحة من ناحية، وإن لم يبد لائقا من ناحية أخرى، وكنت قد قررت الذهاب فى البداية، بسبب حالتى هذه إلى كارلسباد، هذا هو أسلوبى فى التعامل مع كائن إنسانى حى. إلا أننى لا أستطيع أن أتمالك نفسي، ذلك أننى لا يمكننى فى كارلسباد أن أتحدث، ولا أن أبقى صامتا، أو أننى على نحو أكثر دقة سوف أتكلم، على أية حال، حينما أكون صامتا، ذلك أننى لست الآن سوى كلمة وحيدة، على أننى لا أريد على الرغم من ذلك أن أرحل عن طريق فيينا، بل عن طريق ميونيخ يوم الاثنين، إلى أين، لست أدرى، إلى كارلسباد، مارينباد، وحيدا، على أية حال، وسوف أكتب لك، و(ربما)[1] تلقيت رسائلك، خلال ثلاثة أسابيع. فى براغ فقط.

السبت

إننى أسائل نفسي، إذا كنت قد فهمت أن ردى عليك كان مقدرا له أن يكون كما اتفق له، نظرا لحالتي العقلية في صورتها العامة – نعم لقد كان ردى غاية فى الرقة ، وكان غاية فى المراوغة، وكان متألقا غاية التألق بعد هذا كله. إننى أسأل نفسى طوال الوقت، نهارا وليلا، هذا السؤال، مرتعدا أمام ردك، أسأل نفسى عبثا هذا السؤال، كما لو كنت قد أمرت بأن أدق مسمارا فى قلب حجر

١) مشطوبة فى الأصل

أسبوعا بأكمله دون أن أستريح فى أثناء الليل، بل أظل على الدوام طارقاً، ومسماراً فى وقت معا، يا ميلينا.

يشاع – ولست أصدق ذلك –، أن الاتصالات بالتيرول عن طريق السكك الحديدية سوف تتعطل الليلة بسبب الإضرابات.

***

السبت

لقد وصلت رسالتك، وصلتنى نفحة رسالتك، ووجدت فى نهاية ما جاء بها – أن بها فقرة واحدة رئيسية: أنك قد لاتتمكنين من الكتابة إلى بعد الآن فى براغ.

هذا هو ما سوف أؤكده قبل أى شيء آخر غيره، حتى يتسنى للعالم كله أن يراه دون بقية ما جاء فى رسالتك – أنت أيضا، يا ميلينا. هذا هو إذن ما يهدد به المرء شخصا ما، ويعرف – على الأقل – من على البعد، بواعث هذا الشخص أيضا، ويدعى المرء، فوق ذلك، أنه مغرم بهذا الشخص.

لكنك ربما كنت على حق فى ألا تكتبى إلى بعد الآن ، فقرات عديدة فى رسالتك تشير إلى هذا الاضطرار. لا يمكننى أن أتوسل بأى شيء ضد هذه الفقرات . إنها هى نفسها تلك الفقرات التى أعرف عندها حق المعرفة، وأتحقق عند قراءتها على نحو واضح، من أننى معلق على ارتفاع هائل، غير أن الهواء على هذا الارتفاع، يعد لهذا السبب نفسه أمرا بالغ الخطر بالنسبة لرئتى، وعلى أن أستريح.

المخلص لك

ف

سأكتب لك غدا

***

الأحد

ثمة جديد اليوم لعله أن يفسر عديدا من الأشياء، يا ميلينا (ياله من اسم، غني، له وقع ثقيل، في أغلب الأحيان، حتى ليصعب التقاطه، لم أكن أحبه كثيرا في البداية، ذلك أنه كان يبدو لي اسما يونانيا أو رومانيا قد ضل طريقه إلى بوهيميا، فاغتصبه التشيكوسلوفاكيون، ولفقوا نطقه، لكنه قد تحول شكلا، ولونا، إلى امرأة، امرأة يحملها المرء بين ذراعيه إلى خارج العالم، وخارج النيران، لست أدري أية نيران، بينما تضغط هي نفسها ، راضية، مطمئنة، إلى ذراعيك،... اللكنة القوية فقط في الـ (ي)[1] سيئة، ألا يواصل ذلك الاسم قفزاته مبتعدا عنك؟ أو لعلها فقط تلك القفزات التي قفزتها أنت نفسك بكل العبء الذي يجثم فوق كاهلك؟)

أنت[2] تكتبين نوعين من الرسائل، لست أعني تلك الرسائل المكتوبة بالحبر، وتلك الرسائل المكتوبة بالقلم الرصاص، على الرغم من أن الكتابة بالقلم الرصاص في ذاتها توحي بأشياء عديدة، وتجعل المرء يرهف أذنيه، إلا أن هذا الاختلاف في الحقيقة، ليس اختلافا قاطعا. إن الرسالة الأخيرة التي تتضمن خريطة الشقة مثلا، مكتوبة بالقلم الرصاص، إلا أنها قد أسعدتني، وكان ما سعدت به (قدري سنِّي يا ميلينا، وإنهاك قواي، والخوف الذي يستولي على فوق هذا كله، وقدري شبابك، ونضارتك، وجرأتك، وخوفي الذي يتزايد كما

١) التشديد في لفظة (ميلينا)، على المقطع الأول منها.

٢) هنا يستخدم كافكا مرة أخرى ضمير الشخص الثاني المفرد «Du» «أنت».

ترين، لأنه يعني الانسحاب من العالم، لهذا تزداد وطأته، ولهذا يتكاثف الخوف، ويشتد، لكن جرأتك على عكس ذلك تعنى الزحف إلى الأمام، فلو ازداد ضغط زحفك الذى يدفعك إلى الأمام، ترعرعت جرأتك، وازدهرت)، كان ما سعدت به هى رسائلك المسالمة، حتى ليمكنني أن أجلس عند أقدام تلك الرسائل، سعيدا سعادة لا حد لها، فهى غيث انصب فوق الرأس الملتهبة، لكن عندما وصلتنى تلك الرسائل الأخرى، يا ميلينا، حتى ولو كانت بطبيعتها أكثر لباقة من سابقتها (لم يمكنني مع ذلك، لضعفى، أن أنفذ إلى مايشيع فيها من سعادة إلا بعد أيام)، هذه الرسائل تبدأ بألوان التعجب (وأنا، على هذه المسافة البعيدة، مع ذلك)، وتنتهى برعب لا أدرى كنهه، عندئذ أبدأ فى الارتعاد فعلا يا ميلينا، كما لو كنت أقف تحت جرس من أجراس الخطر، فلا يسعنى قراءة تلك الرسائل، وإن كان لابد لى من قراءتها، كما يشرب الحيوان العطشان، وهو يشعر بالخوف، بينما يتزايد خوفه أكثر فأكثر، لهذا أبحث عن قطع الأثاث التى يمكننى أن أختبىء تحتها، مرتعدا، أُصلِّى، وأنا لا أكاد أعى شيئا من صلواتى فى أحد الأركان، عساك أن تندفعى طائرة فى الهواء، خارجة من النافذة، كما اندفعت فجأة، داخله من خلالها فى رسالتك، ذلك أننى لايمكننى، على أية حال، أن أحتمل عاصفة فى حجرتى، فى تلك الرسائل لابد أن يكون لك رأس (الميدوزا) الهائل، ذلك أن ثعابين الرعب تفح حول رأسك، على حين تفح فى الحقيقة حول رأسى أنا، ثعابين الخوف فحيحا أشد ضراوة.

(فى الهامش الأيسر): وصلتنى رسالة الجمعة يوم الأربعاء، أما

الرسائل المسجلة المستعجلة فهى أبطأ من الرسائل العادية.

رسـالتك التى وصلتنى يوم الأربعـاء، وتلك التى وصلتنى يوم الخميس. لكنك طفلة، طفلة صغيرة (إنتى بالفعل من يخاطب الميلوزا، على هذا النحـو)، يبـدو عليك كـمـا لو كنت تحـملين كل فكاهاتى السـخـيـفـة (التى تدور حـول - اليـهـودى - و «لست أدرى»، و «الكراهية») محمل الجد، لقد أردت فقط، على أية حال، أن أضحكك قليلا، على أن كلا منا يخطىء بسبب الخوف، فهم الآخر، فأرجو ألا تجبرينى على الكتابة إليك بالتشيكية، لم يكن ثمة أثر مطلقا للملام فى كـتـابتى، يمكننى بالأحـرى أن ألومك لأن لديك مـثل هذا الظن الحسن، الذى يبلغ هذا الحد البعيد باليهود الذين تعرفينهم هذه المعرفة الكافية (بمن فيهم أنا) - فثمة يهود آخرون!- ، أحيانا أود لو أحشر هؤلاء اليهود جميعا (وأنا أيضا بينهم) فى أحد أدراج دولاب الغسيل، وأنتظر قليلا، ثم أفتح الدرج قليلا، لأرى إن كانوا قد اختنقوا جميعاً، فإن لم أجدهم قد اختنقوا، أغلقت الدرج، و... أمضى فى تلك المحاولة إلى نهايتها.

ما قلته عن (محاضرتك) كان قولا جاداً (ernst) في الحقيقة (هاهى لفظة- Ernst [1] - تحشر نفسها فى الرسالة، المرة بعد المرة)، ربما كنت أظلمه - ولا أحتمل التفكير فى هذا - ظلما بالغا، غير أن شعورى بأننى متورط معه الآن أكثر فأكثر، وأننى أشد ما أكون التصاقا به، إنه شعور مساوٍ فى عنفه، لشعورى بأننى أظلمه ظلما بالغا، وغالبا ما أقول فى (الحياة والموت). فلو أمكننى فقط أن

١) Ernst (ارنست) هو اسم زوج ميلينا.

أتحدث إليه!، إلا أننى أخشـاه، فهو متفوق على. أتعلمين يا ميلينا، إنك عندما تذهبين إليه فإنك تخطين بذلك خطوة واسعة إلى أسفل، بالنسبة لمستواك – لكنك إذا خطوت نحوى فسوف تترددين في الهاوية. هل تدركين ذلك؟ لا، لم يكن ذلك هو «مستواى الرفيع» كما جاء في تلك الرسالة، بل «مستواك أنت» – كنت أتحدث عن (المحاضرة)، ولقد حملت كلامى عنها أيضا محمل الجد. إننى واثق من أننى لست مخطئا فيما يتعلق بذلك.

علمت ثانية بمرضك. لنفرض أن عليك يا ميلينا أن تذهبى إلى فراشك، ولعلك ستأوين إليه، وربما كنت تستلقين فوقه، بينما أكتب أنا هذه الرسالة. ألم أكن قبل مضى شهر، رجلا أفضل مما أنا عليه الآن؟، لقد كنت مشغولا بأمرك (ولم يتعد هذا الانشغال حدود تفكيرى فحسب)، وكنت قد علمت بمرضك، ولم أعد الآن كذلك، ذلك أننى الآن أفكر في مرضى وحده، وفى صحتى، مع أنهما كليهما، سواء كان مرضى أو كانت صحتى، هما أنت.

ف

خرجت اليوم في رحلة قصيرة، بصحبة صديقى الحميم، المهندس، لمجرد أن أنتزع نفسى من قلب ذلك الجو الناعس؛ وكتبت لك أيضا بطاقة من هناك غير أننى لم أستطع أن أوقع عليها، ولا أن أرسلها، لايسعنى أن أكتب لك بعد الآن كما لو كنت أكتب إلى غريبة.

***

الاثنين

في وقت مبكر من هذا الصباح ، قبل أن أستيقظ بفترة قصيرة (وقد استيقظت أيضا بعد فترة قصيرة من استغراقي في النوم)، حلمت حلما مزعجا، ولا أقول مرعبا (فقد كان أثر الحلم قد تبخر سريعا لحسن الحظ)، إنني مدين أيضا، في الحقيقة، لهذا الحلم، بتلك الفترة القصيرة التي استغرقت فيها في النوم، بم أن المرء لايستيقظ من مثل ذلك الحلم إلا بعد أن يكون الحلم قد بلغ غايته، ولايمكن للمرء أن ينتشل نفسه منه قبل ذلك، فهو يمسك بالمرء من لسانه.

كان ذلك في ڤيينا ، بقدر ما يمكنني أن أتخيلها في أحلام يقظتي، استعدادا لذهابي إليها (وفي أحلام يقظتي تلك تتألف ڤيينا فحسب، من ميدان صغير هادئ، ويقع منزلك في أحد الجانبين، وفي مواجهته يقوم الفندق الذي سأنزل فيه، وعلى يساره تقوم المحطة الغربية التي وصلت إليها، وإلى يساره (أيضا) تقوم محطة فرانتس - يوزيف التي سأرحل منها، نعم، ويوجد في الطابق الأرضي من المبنى الذي أقيم فيه، مطعم، بالغ الاستعداد، يقدم الأطعمة النباتية. هو المطعم الذي أتناول فيه وجباتي، لا لمجرد تناول الوجبات بل لكي أذهب إلى براغ، وقد ازداد وزني بعض الشيء.

لماذا أقول هذا ؟ إنه لا يمت بالفعل إلى الحلم بأية صلة، إنني فيما يبدو مازلت أخشى ذلك الحلم)، حسنا، لم يكن الأمر تماما على هذا النحو، فلقد كانت مدينة عادية، وكان الوقت يقترب من المساء، كانت المدينة مبتلة، ومظلمة، وثمة إحساس بحركة هائلة للمرور في شوارعها، وكان يفصل المنزل الذي أقيم فيه عن ذلك الذي تقيمين

فيه، حديقة عامة مربعة الشكل.

لقد وصلت فجأة إلى ڤيينا، وصلت على رأس رسائلي التي كانت ما تزال في طريقها إليك (وهو ما أحزنني فيما بعد)، ومع ذلك فقد تناهى إليك نبأ قدومي، وكان المفروض أن نلتقي، غير أنني لم أكن وحيدا لحسن الحظ (على الرغم من أنني كنت أضيق بذلك في الوقت نفسه)، فقد كنت وسط جماعة قليلة العدد، وكانت ثمة فتاة أيضا، كانت ترافقني فيما أظن، غير أنني لا أعرف شيئا من التفاصيل التي تتعلق بأمر هؤلاء، فلقد ظهروا أمامي جميعا على نحو ما، كشهود في صفي. فلو كانوا قد لزموا الصمت فقط، ذلك أنهم كانوا يتكلمون بلا انقطاع، ربما يتناولون شئوني الخاصة في حديثهم، ولقد تناهت إلى سمعي همهمة عصبية فحسب، غير أنني لم أفهم منها شيئا، كما أنني لم أرغب في أن أفهم شيئا. وقفت إلى يمين منزلي، على حافة الرصيف، أتطلع إلى منزلك. كان عبارة عن ڤيللا منخفضة، لها سلم جميل بسيط من الحجر في واجهتها، ينتهي إلى الطابق الثاني.

والآن، كان الوقت فجأة، وقت تناول الإفطار، وكانت المائدة قد وضعت في الشرفة، ولمحت من على البعد كيف وصل زوجك، وجلس إلى اليمين فوق مقعد من الخيزران، وهو مايزال يغالب نومه، وكان يتمطى بذراعيه المفرودتين على اتساعهما، ثم ظهرت أنت وجلست خلف المائدة، بحيث كان من الممكن أن يراك المرء رؤية تامة. ليس بكامل التفاصيل، بالطبع، مع ذلك، فلقد كانت المسافة بعيدة، كان من الممكن رؤية الخطوط الخارجية التي تحدد هيئة زوجك العامة بوضوح أكثر، لست أدري كيف، على حين بقيت أنت كيانا يتنازعه اللونان الأزرق والأبيض، كيان فياض، متألق، وكانت ذراعاك أيضا مفرودتين

على اتساعهما، وإن لم يتضح من ذلك أنك كنت تتمطين، بل كانت حركة ذراعيك المفرودتين توحي بشيء أبعد من ذلك، كانت حركة ترحيب.

وبعد ذلك مباشرة، لكن... لقد وجدتني ثانية في الليلة التي سبقت ذلك، وكنت تسيرين في الشارع برفقتي، كنت تقفين على الرصيف، وكانت إحدى قدمي على الطريق، وكنت أمسك بيدك، ثم بدأ بيننا عندئذ حديث ما، سريع، مقتضب العبارات، ولا معنى له، وقد اتصل ذلك الحديث في كلمة منك وأخرى مني ردا عليها، اتصل بغير توقف حتى نهاية الحلم.

لايمكنني أن أتذكر ذلك الحوار، وإن كنت أذكر فقط العبارتين الأوليتين، والأخيرتين، أما لب الحوار فكان عبارة عن قطعة من العذاب لايمكن نقلها إليك الآن بواسطة الكلمات.

قلت مسرعا، بدلا من التحية التي كان يجب أن أستقبلك بها «لقد كنت تتوقعين أن أبدو في صورة غير التي أبدو بها الآن»، تعبير ما كان قد ارتسم على وجهك، هو ما دفعني إلى أن أتفوه بذلك، وأجبتني أنت بقولك: «لكي أكون صريحة معك غاية الصراحة، أقول إنني كنت قد توقعت أن تبدو أكثر ظرفا، (ولقد استعملت في الواقع تعبيرا شائعا في ڤيينا، غير أنني قد نسيته).

كانت هاتان هما العبارتين الأوليتين (في هذا المقام يتبادر إلى ذهني هذا السؤال: هل تحققت من أنني لا أحس الإيقاع[1] مطلقا، وأنني لخبرتي لا أظن أن لمثل عجزي التام عن الإحساس به وجودا بالمرة في أي مكان؟).

١) (جملة) تقابلها في الألمانية (Satz) . وهي تعني أيضا (حركة) في الإصطلاح الموسيقي.

بهاتين العبارتين فى الحقيقة كان كل شىء قد تقرر، فما الذى يمكن أن يكون قد تبقى؟ غير أن الجدل كان قد بدأ عندئذ بشأن لقاء آخر، ذلك الجدل الذى كان يتبدى فيما كان يصدر عنك من التعبيرات بالغة الغموض، وفى تساؤلاتى الملحة التى لا تنتهى عند حد.

عندئذ تدخل رفاقى، وصرح أحدهم بأننى كنت قد قدمت أيضا إلى ڤيينا لزيارة إحدى المدارس الزراعية فى ضواحى ڤيينا، وبدا عندئذ أن الوقت سيتسع لى على الرغم من كل شىء للقيام بهذه الزيارة، بدا لى أنهم كانوا يحاولون أن يتخلصوا منى رحمة بى. ومع أننى كنت قد تبينت ذلك، إلا أننى على الرغم من ذلك توجهت نحو المحطة لا ألوى على شىء ، يداعبنى الأمل دون شك، فى احتمال أن يكون لإظهار رغبتى الحاسمة تلك فى الرحيل تأثير ما عليك، وبلغنا تلك المحطة القريبة جميعنا، ثم اتضح عندئذ أننى قد نسيت اسم البلدة الذى توجد بها تلك المدرسة، توقفنا أمام جداول مواعيد القطارات الضخمة، بينما راح شخص ما يمر بأصبعه على أسماء المحطات وهو يسألنى إن كانت هذه المحطة أو تلك، هى المحطة التى أريدها، غير أن المحطة التى كنت أريدها لم توجد بين تلك المحطات جميعا.

وسنحت لى الفرصة فى تلك الأثناء لكى أرقبك بعضا من الوقت، ولم يكن مظهرك ليغير من الأمر شيئا في الحقيقة بالنسبة لي. كان الشىء الوحيد الذى يعنينى هو كلمتك. على أنك لم تكونى على أية حال كعهدى بك، كنت تلوحين لى أشد سمرة، بدا لى وجهك نحيلا، إلا أن من لها مثل هذين الخدين الممتلئين لايمكن أن تكون فى مثل قسوتك. (لكن هل كان الموقف قاسيا بالفعل إلى هذا الحد؟)، ثوبك

الذى بدا لى غريبا جدا، كان من نفس قماش بدلتى، وكان أقرب ما يكون إلى القماش الرجالى، لم أحبه لهذا، فى الحقيقة، مطلقا. غير أننى تذكرت عندئذ فقرة وردت فى إحدى الرسائل (تقول الأغنية : لست أملك سوى ثوبين فحسب، لكننى أبدو جميلة ما أزال)[1]، إلى هذا الحد البالغ، كانت قوة تأثير عبارتك فى نفسى، حتى أننى قد أحببت ثوبك غاية الحب منذ تلك اللحظة.

ثم كانت النهاية، كان رفاقى ما يزالون يبحثون فى جداول مواعيد القطارات، فتنحينا جانبا، وتناقشنا.

وكان ما انتهت إليه المناقشة شيئا من هذا القبيل: إن اليوم التالى هو الأحد، بدا لك ذلك أمرا يكاد يدفعك إلى الكراهية، فكيف أمكننى أن أفترض أن وقتك سيتسع لى يوم الأحد. بدا مع ذلك أنك قد أذعنت أخيرا، وقلت إنك ستحاولين أن تعطينى من وقتك أربعين دقيقة. (لم يكن أشد ما يثير الرعب فى نفس المرء فى هذا الحديث، مجرد كلماته بالطبع، بل كانت لهجته المستخفية، إحساس المرء البالغ باللاجدوى فى تلك اللهجة، ذلك الإحساس الذى كان يتأكد فى مجادلتك المتصلة (لا أريد أن أحضر، فإذا حدث أن تمكنت من الحضور على الرغم من ذلك فما الذى ستجنيه من حضورى؟)، لكنك ما إن قررت تدبير تلك الدقائق الأربعين، حتى وجدتنى لا أكاد أقوى على الانفصال عنك، إنك لا تعلمين شيئا، فعلى الرغم من كل ما بدا عليك من الاستغراق فى التفكير، لم يسعك أن تتخذى قرارا، وتساءلت أنا فى النهاية قائلا: «هل سأنتظرك طوال اليوم؟»، فأجبتنى قائلة: «نعم»، وتركتنى إلى جمع من الناس الذين كانوا يقفون هنالك

[1] لعلها أغنية شعبية.

فى انتظارك. كان معنى إجابتك هو أنك لن تحضرى مطلقا. وأن الامتياز الوحيد الذى أمكنك أن تقدميه إلى هو السماح لى بانتظارك. قلت فى صوت خفيض «لن أنتظر»، ولما بدا لى أنك لم تسمعى ما قلت، وأن ما قلته كان هو ورقتى الأخيرة فى نهاية الأمر، صحت فى يأس مرددا ما قلته عندما استدرت مبتعدة عنى. غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا بالنسبة لك، ذلك أنه لم يبد عليك أدنى اهتمام بما قلت. فترنحت أنا على نحو ما راجعا إلى المدينة.

ثم وصلتنى بعد مضى ساعتين رسائل وزهور، ودٌ وسلوى.

المخلص لك

ف

العناوين ليست واضحة مرة أخرى ياميلينا، ولقد أعاد موظفو البريد كتابتها وإكمالها. كانت العناوين بعد أن التمست منك توضيحها أول مرة، مدهشة، كانت مجموعة من النماذج الخطية الجميلة، المتنوعة، وإن لم تكن واضحة مع ذلك. فلو كان لمكتب البريد عيناى، لما أمكنه أن يقرأ سوى عناوينك وحدها، لكنه لما لم يكن سوى مكتب بريد...

***

الاثنين

أنت على حق، الآن فقط عندما كنت... – لقد وصلت الرسائل، بالأسف، وصلتنى متأخرة فى المساء، وأريد فى صباح الغد الباكر أن أخرج فى نزهة قصيرة مع المهندس إلى (بولتسانو) – قرأت اللوم الذى توجهينه إلى (الطفل الصغير)، لقد قلت لنفسى بالفعل: كفى،

لايمكنك أن تواصل قراءة الرسائل الليلة. لابدّ لك من أن تنالى قسطا من النوم إن شئت أن تمضى فى نزهتك القصيرة فى صباح الغد الباكر – انقضى بعض الوقت قبل أن أمضى فى القراءة، وقبل أن أفهم، وقبل أن ينحل التوتر، وقبل أن أدفن وجهى بزفرة ارتياح فى صدرك، لوجودك هنا (ولست أعنى بذلك وجودك الجسدى وحده). إن هذا معناه بلا شك أننى مريض، أليس كذلك؟ إننى أعرفك على أية حال، و أعرف أيضا أن (الطفل الصغير) ليس أسلوبيا بالغ السوء فى مخاطبة شخص ما.

يمكننى أن أعتبر هذه العبارة هى أيضا مجرد مزحة، إلا أن كل شيء يمكن كذلك أن يتحول بالنسبة لى إلى تهديد. فلو حدث أن كتبت إلى قائلة: «لقد أحصيت بالأمس عدد المرات التي وردت فيها (واو) العطف، فى رسالتك، ولقد وجدت منها ما يقرب من كذا، فكيف واتتك الجرأة على أن تكتب إلى (و)، وأن تكتبها علاوة على ذلك بمثل تلك الكثرة؟» – ثم لعلنى أن أكون، – بشرط أن تلتزمى بجديتك –، قد اقتنعت بأننى قد وجهت إليك إساءة ما، وأن أغرق فى تعاستى البالغة لهذا. ولعل ثمة إساءة تكون قد وجهت إليك بالفعل على أية حال، من الصعب أن يراجع المرء نفسه لكى يتأكد من هذا.

كما لايجب عليك أن تنسى أن المزاح، والالتزام بالجد، وإن كان من السهل التفريق بينهما فى سهولة، إلا أنه عندما يقع فى روع نوى الشأن من الناس أن حياة المرء الخاصة تعتمد عليهما، هنا لايبدو التفريق بين المزاح والجد بمثل السهولة التى سبق له أن تبدى بها، هنا فى الحقيقة، تكون مجازفة المرء بالغة الخطورة عندما يمعن فى تدقيق نظرته الفاحصة، وما إن تتهيأ للمرء مثل تلك النظرة البالغة

التدقيق، حتى يكون قد أسلم نفسه كلية للضيا ع. فى هذا المقام، لم أكن أتمتع بالقـوة، حـتى فى لحظات قـوتى، فى الصف الأول، من المدرسة الابتدائية، مثلا. فطباختنا، وهى امرأة نحيلة، ضئيلة، معروقة، لها أنف مدبب، وخدود مجوفة، مصفرة البشرة، وإن كانت شديدة، ونشطة، ومتفوقة، كانت تقودنى كل صباح إلى المدرسة. كنا نعيش فى ذلك المنزل الذى يفصل (الساحة الصغيرة) عن (الساحة الكبيرة). وعلى هذا فقد عبرنا (الساحة) أولا، ثم سرنا عبر (تاينجاسه)، واخترقنا نفقا ذا سقف مقبى فى ممر (سوق اللحم)، منحدرين نحو (سوق اللحم). وذات يوم بعد أن انقضى ما يقرب من العام، ونحن نقطع كل صباح نفس الطريق، قالت الطباخة في اللحظة التى غادرنا فيها المنزل، إنها سوف تخبر المدرسة بشقاوتى الزائدة فى المنزل. ولعل وصف الشقاوة الزائدة، لم يكن لينطبق على، فى الحقيقة، فقد كنت عنيدا على نحو ما، وخائبا، وحزينا، وسيء الطبع، وكان من الممكن اختلاق شيء ما من بين هذا كله، وتبليغه إلى المدرسة. كنت أعلم هذا، لذا لم يبد لى تهديد الطباخة مما يستهان به. ومع ذلك فقد اعتقدت أن شيئا ما قد يطرأ على جدية هذا التهديد، فى طريقنا إلى المدرسة، ذلك أنه كان طريقا بالغ الطول (ينبع ذلك القلق، وتلك الجدية العمياء من مثل خفة القلب الصبيانية تلك، التى تزداد فى مثل تلك الحالة شيئا فشيئا، فقط عندما لا تكون الطريق بمثل ذلك الامتداد البالغ). كان الشك يراودني أيضا، خاصة عندما كنا نجتاز ساحة (ألتشتاتر)، فيما إذا كانت الطباخة، تلك المرأة التى، وإن كانت توحى بالاحترام في أوساط الخدم، ستجرؤ على أن تتحدث إلى المدرسة، تلك الشخصية التى تفرض على العالم

احـتـرامـهـا. ربما كنت قد تفوهت بشيء من هذا، على حين كـانت الطباخة تجيبني دائما باقتضاب، بشفتيـهـا الرفيعتين، القاسيتين، قائلة إنني لا أصدق أنها ستفعل ذلك، إلا أنها ستفعله. وفي مكان مـا، على مقربة من مدخل ممر سوق اللحم، (وهو مكان مـايزال ذا أهمية تاريخية بالنسبة لي بصورة ما؛... في أي حي من أحياء براغ قضيت طفولتك؟)، تملكني تماماً الخوف من عاقبة ذلك التهديد. كانت المدرسة في حد ذاتها كابوسا لا أقوى على احتماله، والآن تحاول الطباخة أن تزيد الأمر سوءا، ورحت أتوسل إليها، فهزت رأسها، وكلما أمعنت في التوسل، كلما اتضح لي هول ما كنت أتوسل من أجله، وكلما تضخم الخطر أمام عيني، فتوقفت في مكاني، ورجوتها أن تغفر لي، جرجرتني خلفها في الطريق ، وهددتها بانتقام والدي، فضحكت، (هنا) بدت لي غاية في القوة، فتشبثت بأبواب الحوانيت، وبأحجار الزوايا، ورفضت أن أخطو خطوة واحدة، ما لم تعلن صفحها عني، وتشبثت بردائها، أجذبها إلى الخلف (ولم تلزم هي الأخرى بدورها جانب الحلم)، بل ظلت تجرجرني خلفها، وهي تؤكد لي بلهجة قاطعة، إنها ستخبر المدرسة عن هذا أيضا، وتأخر بنا الوقت، ودقت ساعة (كنيسة ياكوب) معلنة تمام الثامنة، وبلغت أسماعنا رنات أجراس المدرسة، وأسرع الأطفال الآخرون بالجري، وكان أشد ما يرعبني دائما هو خوف التأخر، كان علينا أن نسرع نحن أيضا بالجري، وكنت طوال الوقت نهبا للتفكير في أنها: ستقول، لن تقول - حسنا ؛. لم تقل شيئا، لم تتفوه مطلقا بشيء، غير أن الفرصة كانت أمامها دائما في أي وقت، لكي تقول ما تشاء، بل إن الفرص لتتزايد أمامها يوما بعد يوم (لم أقل شيئا بالأمس، لكنني

سأقول اليوم حتما)، لم تقلع عن ذلك مطلقا. وكانت أحيانا - تصوري هذا يا ميلينا - تدق قدمها في الأرض، غضبا مني، وكان يتصادف وجود بائعة الفحم هناك. تتطلع إلينا حينذاك. يا لها من حماقات يا ميلينا!، وكم يبدو ارتباطي بك وثيقا، بكل الطباخات، والتهديدات، وكل ذلك الغبار الرهيب، الذي أثارته سنابك الأعوام الثماني والثلاثين، حتى استقر في رئتي.

لم أقصد في الحقيقة أن أخبرك بهذا كله، أو أنني على الأقل لم أقصد أن أخبرك به على هذه الصورة. لقد تأخر بي الوقت، ويجب علي أن أكف عن الكتابة، لكي آوي إلى النوم، ولن أتمكن من الاستغراق في النوم، لأنني قد توقفت عن الكتابة إليك. لو راودتك الرغبة، في أي وقت، في أن تعرفي النهج الذي كانت تسير عليه طفولتي المبكرة، فسوف أرسل إليك من براغ تلك الرسالة الهائلة، التي كتبتها إلى أبي، منذ ستة شهور، وإن لم أسلمها إليه بعد.

وسوف أرد على رسالتك غدا، فإذا تأخر بي الوقت في المساء، فسوف أرد بعد غد.

سوف أبقى بضعة أيام أخرى لأنني قد نبذت زيارة والديّ في (فرانتسنباد)، على الرغم من أن أحدا لا يمكنه بسهولة أن يطلق على ذلك (الاسترخاء في أركان الشرفة) نبذا.

ومرة أخرى أشكرك على رسالتك.

ف

***

الثلاثاء

اليوم، في الصباح الباكر، حلمت بك مرة أخرى. كنا نجلس

بجوار بعضنا البعض، وكنت تبعدينني، في غير غضب، بل كنت تبعدينني عنك بود. وكنت غارقا في تعاستي. لا بسبب إبعادك لي، بل كنت أحس التعاسة لأنني كنت أعاملك كأية امرأة صامتة أخرى، ولأنني كنت قد فشلت في أن أسمع ذلك الصوت الذى تناهى إلى صادرا عنك، ذلك الصوت الذى تحدث إلى ببلاغة، ولعل تعاستى لم يكن مرجعها فشلى فى أن أسمع ذلك الصوت، بل عجزى عن إجابته.

انصرفت مبتعدا، ويأسى يفوق ما أحسسته من يأس في حلمى الأول. تذكرت في هذا الصدد، شيئا كنت قد قرأته ذات مرة، في مكان ما، هو ما يلى ، وإن يكن على شيء من الغموض:

«حبيبتى نهر هائج يتدفق فوق سطح الأرض، نهر يطوقنى الآن، ومع ذلك فهو لا يصطحب هؤلاء الذين يطوقهم، بل أولئك الذين يتطلعون».

لك

(الآن. حتى اسمي فقدته. فقد أخذ
ينكمش. وينكمش طوال الوقت. فأصبح
الآن : لك)

***

الأربعاء

وصلتني رسالتاك معا. عند الظهر، ولم يكن الوقت يسمح بقراءتهما، بل بنشرهما حتى يتسنى للمرء أن يمرغ وجهه على صفحاتهما، وأن يفقد صوابه، وإن بدا لى الآن أننى قد فقدت بالفعل بعضا من صوابي، وعلى لهذا أن أحتفظ بالبقية الباقية منه، لأطول

فترة ممكنة. وما يلي هو كيف واجهت سنواتي اليهودية الثماني والثلاثين بسنواتك المسيحية الأربع والعشرين:

كيف يمكن ذلك؟ وأين هي القوانين التي تحكم العالم، وأين هم جند السماء جميعا؟ لقد بلغت الثامنة والثلاثين من عمرك، وقد نال منك التعب كما لم ينل ممن لم يتقدم مطلقا في العمر. أو أنك على نحو أكثر دقة: لست متعبا بالفعل، في حقيقة الأمر، لكنك قلق ، تخشى أن تخطو خطوة على هذه الأرض، التي تنتشر فوقها الكمائن، التي أعدت لاصطياد الإنسان، وهذا هو السبب في أنك تجهد في أن تظل قدماك كلتاهما في الهواء دائما، في وقت معا، إنك لست متعبا، لكنك خائف من ذلك التعب اللانهائي، الذي سوف يعقب ذلك القلق اللانهائي، والذي (وأنت يهودي، على أية حال، وتعرف ما هو الخوف!) يمكن تجسيده للرؤية، أوضح ما يكون في صورتك كشخص مختل العقل يحدق أمامه في الفراغ، في حديقة مستشفى المجانين، خلف ميدان كارلسبلاتز.

حسنا، هذا هو إذن وضعك، لقد اشتركت في العديد من المناوشات، وعلى هذا فقد كدرت كلا من الصديق والعدو على حد سواء (ولم يكن هنالك بالفعل، سوى الأصدقاء فقط، هم هؤلاء الطيبون الأعزاء، ولم يكن ثمة أعداء لك)، وأصبحت لهذا مريضا بالفعل ، أصبحت واحدا من هؤلاء الذين يرتعدون عندما تقع أعينهم على مسدس يشهره في وجوههم طفل، والآن: الآن فجأة تشعر بشعور من وجهت إليه الدعوة للاشتراك في معركة لتحرير العالم كله. وسوف يبدو لك هذا أمرا بالغ الغرابة، أليس كذلك؟

تذكر أيضا، أنه ربما كانت أفضل فترة في حياتك كلها، هي تلك

الفترة التى ربما لم تتحدث عنها بصراحة إلى أى شخص بالفعل، وهى تلك الشهور الثمانية التى قضيتها فى إحدى القرى القريبة منذ سنتين، حيث ظننت هناك أنك قد تخلصت من كل شىء، وحيث انشغلت فقط، بما لم يكن بينك وبين نفسك محلا للتساؤل. هناك، حيث عشت طليقا، بلا رسائل، وبغير ذلك الاتصال الذى دام خمس سنوات ببرلين عن طريق البريد، وحيث عشت هناك فى حماية مرضك، حين لم يكن عليك أن تغير كثيرا مما بنفسك، بل كان عليك فقط أن تتعقب مرة أخرى - بمزيد من الحزم - آثار الخطوط الخارجية الضيقة التى تحدد طبيعتك (فوجهك على أية حال، تحت شعرك الرمادى . لم يطرأ عليه تغيير ذو بال ، منذ أن كنت فى السادسة من عمرك).

لم تكن هذه هى النهاية التى انتهيت إليها، للأسف، خلال الشهور الثمانية عشرة الأخيرة. لم يكن يسعك سوى بصعوبة بالغة أن تغطس فى هذا الاتجاه إلى عمق أبعد من هذا (أستثنى هنا الخريف الماضى الذى ناضلت خلاله مخلصا من أجل الزواج)، ولم يكن يسعك أن تجرجر خلفك مخلوقا بشريا آخر، فتاة طيبة، تستهلك نفسها فى الأنانية، وتهبط بك إلى أعماق أبعد، لا، ليست أبعد، بل هى أعماق لا مخرج منها، حتى ولو إلى القرار.

حسنا، والآن تدعوك ميلينا بصوت يتطرق إلى عقلك، وإلى قلبك بنفس العمق. ولا تعرفك ميلينا بالطبع، فقد خطفت بصرها بضع قصص قليلة، وبضع رسائل، إنها كالبحر، جبارة كالبحر بمياهه التى تمتد إلى غير حد، وإن كان؛ وهذا هو عيبه؛ يتقهقر بكل جبروته، وينزل على رغبة القمر الميت هناك، على ذلك البعد اللامتناهى. إنها لا

تعرفك، ولعل لديها شعوراً صادقاً خفياً يجعلها ترحب بحضورك. وأن حضورك بالفعل سيبهرها في التو، شيء يمكنك أن تتيقن منه فلعل هذا إذن أن يكون، يا رفيق الروح، هو السبب في رغبتك عن الذهاب، لأنك تخشى أن يحدث لها شيء من هذا؟

لكن لنفرض: أن لديك مئة سبب آخر خاص، يمنعك من الذهاب (ولديك بالفعل ما يمنعك)، وأن لديك، بالإضافة إلي ذلك، سببا آخر لا يتعلق بك وحدك ، هو ذلك السبب الذي يتلخص في أنك لن تتمكن من مخاطبة زوج ميلينا، وأنك لن تقوى حتى على مجرد رؤيته، وأنك لن تقوى أيضا، وبنفس الدرجة، على أن تتحدث إلى ميلينا ، أو أن تراها حين لا يكون زوجها حاضرا. لو أننا فرضنا هذا كله، لبقي مع ذلك اعتباران آخران ليواجها ما سبق أن سلمنا به جدلا.

أولهما، عندما قلت أنك ستحضر، لعل ميلينا ألا تكون لديها الرغبة في حضورك، لا لترددها، بل لإرهاقها الواضح، ولعلها ستسمح لك بكل سرور وارتياح، أن ترحل لو شئت.

لكن ثانيهما. هو رغبتك في مجرد الذهاب إلى ڤيينا، ولنر ما يحدث! إن ما يشغل بال ميلينا هو، فتح الباب! ولسوف يفتح الباب بالفعل، لكن بعد ذلك؟، بعذ ذلك، سيقف هنالك في فتحته كائن ما، نحيل، على شفتيه ابتسامة ودية (وستعلو وجهه تلك الابتسامة طوال الوقت، ابتسامة ربما كان قد ورثها من إحدى العمات المسنات، اللواتي يبتسمن على الدوام، وإن لم تفعل أي منهن ذلك عن قصد، لكنهن يبتسمن ببساطة لارتباكهن)، وبعد ذلك سيجلس ذلك الكائن حيث اعتزم أن يجلس، وبهذا يكون التكلف قد بلغ غايته بالفعل، ذلك أنه لايبدو أن ذلك الكائن سيتحدث كثيرا، فسوف يفتقد الحيوية

اللازمـة لذلك، (بـالأمس قـال جـارى الجـديد علـى مـائدة الطعـام فى مـجـال الحـديث عن الغـذاء النبـاتى الذى يتناوله الرجل الصـامت: «أعتقد أن اللحوم، لاغنى عنها مطلقا، كعنصر أسـاسـى فى غذاء من يمارس العـمل الذهنـى») ، كـمـا أن ذلك الكائن لن يشـعـر، حـتى بالسعادة، ذلك أنه سيفتقد الحيوية اللازمة لممارسة مثل ذلك الشعور، أيضا.

ترين من هذا، يا ميلينا، أننى أتحدث بصراحة. إلا أنك تتمتعين بالذكاء، وسـتـدركين طوال الوقت، أننى وإن كنت أقول الحـقـيـقـة (الحقيقة الكاملة، الصادقة، بحذافيرها)، إلا أننى أتحدث، على الرغم من ذلك فى صراحـة بالغـة. فى مـقـدورى على أية حـال، أن أحضـر بدون هذا الإعلان، وفى مقـدورى أن أنبـهك، دون أن أتوسل إلى ذلك بمثل هذه الضجة التى أثيرها الآن. فإن كنت لم أفعل ذلك، فلا معنى لهذا، سوى أنه دليل آخر على صدقى، أو دليل آخر على ضعفى.

سـأبقى أسـبـوعين آخـرين، لأننـى أشـعـر بالخـجل، وهو شـعـورى الغالب، و أخـاف من العودة بهذه النتيجة التى انتهى إليها علاجى. إن الضيق الذى أشعر بأننى سـأواجهه عند عودتى إلى منزلى، وإلى عملى بصفة خاصة، لن يسببه سوى توقعهم هناك، عند عودتى، شيئا يقرب من الشفاء التام، فى نهاية هذه العطلة.

بالإضـافة إلى العذاب الذى تسببه لى تلك الأسئلة: كم بلغ وزنك فى هذه المرة؟ على حين أن وزنى قد نقص. لاتقتصد! (توجه إلىّ هذه الكلمة، إشارة إلى بخلى)، و ... إننى أدفع فـاتورة البنسيون كاملة، إلا أننى لا أسـتطيع أن أتناول مـا يقـدمـونه لى من الطعـام. ونكات عديدة من هذا القبيل.

وجدت أنك مازلت ترغبين في حضوري، في نهاية الأسبوعين، رغبة صريحة، كتلك التي صرحت لي بها يوم الجمعة، فسوف أحضر عندئذ.

المخلص لك
ف

***

السبت مرة أخرى

يجب أن نكف عن كتابة هذه الرسائل التي تشطب بعضها بعضا، يا ميلينا، إنها تدفعنا إلى الجنون، إن المرء لا يكاد يعرف ما كتبه، ولا ما أجاب به، ويرتعد طوال الوقت، أيا كان الأمر. إنني أفهم لغتك التشيكية غاية الفهم، ويمكنني كذلك أن أسمع الضحكة، إلا أنني أنقب في رسائلك، أنقب حتى بين الكلمة والضحكة، ثم أسمع الكلمة فقط، وعلاوة على ذلك، فإن طبيعتي هي : الخوف.

لايمكنني أن أقطع بما إذا كنت ماتزالين ترغبين في رؤيتي بعد رسالتيّ إليك يومي الأربعاء والخميس ، إن الرابطة التي تربطني بك، هي رابطة أعرفها (فأنت تنتمين إلى حتى ولو قدر لي ألا أراك ثانية على الإطلاق) – رابطة أعرفها بقدر ما تنقطع صلتها بذلك الشعاع من الخوف الذي لايمكنني أن أسبر غوره، غير أن ما يربطك بي هو ما لا أعرفه مطلقا، ذلك أن تلك الرابطة التي تربطك بي، تنتمي كلية إلى الخوف. لكنك لا تعرفينني يا ميلينا، وأكرر هذا القول.*

فيما يتعلق بي، لعلك ترين أن ما يحدث لي، هو حدث خطير. إن عالمي يتهاوى، إن عالمي يتعالى، ويرقب (وهذا هو أنا) كيف تحيينه

* [في الهامش الأيسر] : لا، أنت لا تفهمينني، أيضا، يا ميلينا، فلقد كانت (المسألة اليهودية) على أية حال، مجرد نكتة سخيفة.

أنت. لست أرثي للانهيار، فلقد كان مجرد انهيار وسط موكب الانهيار، إلا أن ما أرثي له حقا، هو نهوضه، يؤسفني افتقاري إلى القوة، يؤسفني أنني ولدت ، أرثي لضوء الشمس.

كيف سنتمكن من أن نواصل الحياة؟ لو أنك قلت (نعم)، ردا على رسائلي،فلا يجب عليك عندئذ أن تواصلي حياتك في ڤيينا، فهذا مستحيل.

ميلينا، أنت بالنسبة لي ، لست امرأة، أنت فتاة، فتاة لم أر مثلها أبدا من قبل، لست أظن لهذا أنني سأجرؤ على أن أقدم لك يدي أيتها الفتاة، تلك اليد الملوثة، والمعروقة، المهتزة، المترددة ، التي تتناوبها السخونة والبرودة.

ف

بخصوص ساعي بريد براغ، أراها خطة فاشلة، فسوف تجدين فقط بيتا خاويا. هو مكتبي. بينما أكون جالسا في تلك الأثناء في رقم ٦ ساحة ألتشتاتر، في الطابق الثالث، إلى إحدى المناضد، ووجهي بين يدي.

***

الأربعاء

من الصعب قول الصدق، فعلى الرغم من أنه لا يوجد سوى (صدق) واحد فقط، لكنه صدق مفعم بالحياة، وعلى هذا فإن له وجها متغيرا، ممتلئا حيوية: «وهو ليس وجها جميلا على أية حال، ليس جميلا في الحقيقة، لكنه قد يبدو جذابا في بعض الأحيان».

لو أنني قضيت الليل كله من مساء الاثنين حتى صباح الثلاثاء في الإجابة على رسالتك، لكان ذلك مرعبا. لقد استلقيت على

لو أنني قضيت الليل كله من مساء الاثنين حتى صباح الثلاثاء في الإجابة على رسالتك، لكان ذلك مرعبا. لقد استلقيت على فراشي، كما لو كنت قد تمددت فوق آلة تعذيب، لقد قضيت الليل كله في الرد عليك، في الشكوى إليك، قضيته محاولا أن أخيفك حتى تبتعدي عني، وكنت ألعن نفسي (كان السبب في هذا أيضا أنني كنت قد تسلمت رسالتك في الحقيقة في ساعة متأخرة من المساء، وأنني كنت، وأنا في أحضان الليل، متأثرا غاية التأثر، ومرتاحا إلى الإجابة على ما جاء فيها من التساؤلات الجادة).

ثم رحلت في الصباح الباكر إلى بولتسانو، فأخذت القطار الكهربائي إلى كلوبنشتاين، على ارتفاع ١٢٠٠ متر، واستنشقت، وإن لم يكن بكل طاقتي هواء نقيا يميل إلى البرودة، أمام بداية سلسلة جبال دولومايت، ثم كتبت لك في طريق عودتي ما أنسخه لك الآن، حيث وجدت أن ماكتبته لك، كان شيئا بالغ الحدة، كما يبدو لي اليوم على الأقل، وعلى هذا فالأيام تتفاوت:

أصحبت وحدي أخيرا، فقد بقي المهندس في بولتسانو، وأنا في طريق عودتي. إنني لم أتألم كثيرا من حقيقة أن المهندس والطبيعة كانا قد اندسا بيني وبينك، ذلك أنني لم أكن مع نفسي. لقد أمضيت مساء الأمس حتى الساعة الثانية عشرة والنصف معك، أكتب إليك، ثم بعد ذلك كنت معك بأفكاري، ثم ظللت مستلقيا في فراشي حتى السادسة صباحا، وكنت قد استغرقت أثناء ذلك في النوم بضع دقائق قليلة فقط، ثم انتزعت نفسي من الفراش، كما ينتزع غريب غريبا من فراشه، وكان هذا كله حسنا، ذلك أنني لم أكن لأفعل غير هذا سوى التسكع بلا هدف، وقضاء اليوم هناك في ميران.

لا يعنيني كـثـيـرا أنني لم أكن في كـامل وعـيـي في أثناء هذه الرحلة، وأن هذه الرحلة ستبقى في ذاكرتي فقط كـحلم غامض إلى حد مـا. كانت الليلة شبيهه بهذه، ذلك أنك برسالتك (إن لك لنظرة ثاقبة وإن لم يبد أن لهذا أهمية خاصة، مع أن الناس، يتجولون دائما في الشوارع، ويتهجمون على نظرة المرء، لكنك تتمتعين بشجاعة تنطق بها نظرتك في مواجهة ذلك التهجم، وتتمتعين فوق هذا كله بالقوة على أن توجهي نظرتك إلى ما هو أبعد من هذا، وهذه النظرة إلى البعيد هي أكثر الأشياء أهمية، وإنك لتتمتعين بقدرتك على توجيه هذه النظرة)، قد أيقظت كل الشياطين القديمة التي تنام بعين مغلقة واحدة، وبعينها الأخرى المفتوحة تتحين الفرصة، تلك الفرصة التي تبدو، على الرغم من الرعب الذي تثيره، حتى ليتصبب المرء عرقا باردا (وأقسم لك : إن ذلك العرق لايتصبب من شيء آخر سواها، سوى تلك القوى غير المحسوسة)، فرصة طيبة على الرغم من هذا، وصحية، وإن المرء ليتطلع إليها،إلى تلك الشياطين ويعلم أنها هناك، ومع ذلك فإن تفسيرك لنصيحتي بأن (عليك أن تغادري فيينا) ليس تفسيرا بالغ الدقة. إنني لم أكتب ذلك دون تدبر، كما إنني لست عاجزا عن تحمل العبء المادي (دخلي ليس كبيرا، لكنني أعتقد أنه يكفينا معا، ولايعني هذا بالطبع، أن كفايته تغطي أيضا احتمالات المرض)، كما أنني مخلص، علاوة على ذلك، في حدود قدرتي على التفكير والتعبير (ولقد كنت هكذا دائما، على الرغم من أنك كنت أول من شملني بنظرة العطف التي شجعتني على أن أبقى هكذا). إن ما أخافه، ما أخافه وعيناي مفتوحتان على اتساعهما، بعد أن غرقت في أعماق خوفي، عاجزاً حتى عن محاولة النجاة (لو أمكنني أن أستغرق في النوم، كما أغرق في خوفي على هذا النحو، فلن أكون حينئذ على

قيد الحياة) هو تلك المؤامرة التى تقوم فى داخلى ضد ذاتى، تلك المؤامرة وحدها هى ما أخشاه، (وهذا ما سوف تفهمينه بصورة أوضح بعد قراءة رسالتى إلى أبى، وإن كنت لن تفهمى ذلك منها تمام الفهم مع ذلك، لأن تلك الرسالة قد وجهت في إحكام بالغ نحو هدفها) وهى مؤامرة لعلها قد قامت على أساس أننى فى مباراة الشطرنج الهائلة، التى لا دور لى فيها سوى دور حصان، بل دور أهون منه بكثير، أجدنى الآن خلافا لكل القواعد المتبعة فى اللعبة، وعلى حساب اللعبة، راغبا فى احتلال مكان الوزير - أنا (الحصان)و ذلك الشيء الذى لا وجود له، والذى لا أهمية مطلقا لدوره فى المباراة - وربما كنت راغبا أبعد من هذا فى أن أحتل مكان (الملك) نفسه، وربما راودتنى الفكرة فى أن أحتل وحدى رقعة الشطرنج كلها، وهكذا، لو أننى كنت حقا قد أردت ذلك، لكان حتما أن يتم هذا بطريقة أخرىٰ أبعد ما تكون عن الإنسانية.

هذا هو السبب فى أن الاقتراح الذى اقترحته عليك، له بالنسبة لى أهمية تفوق كثيرا أهميته بالنسبة لك. ذلك أن هذا الاقتراح هو الشيء الوحيد المؤكد الآن، الخالص من الشوائب، وهو الشيء الوحيد الذى يسعدنى سعادة كاملة.

كان هذا هو الحال بالأمس، سأقول لك اليوم مثلا، أننى لن أحضر قطعا ، إلى ڤيينا، لكن لما كان اليوم هو اليوم ، وكان الغد هو الغد، فسوف أسمح لنفسى بشيء من الحرية. لن يدهشك أمرى بحال من الأحوال، كما أننى لن أتأخر عن الحضور أكثر من يوم الخميس، فلو وصلت إلى ڤيينا فسوف أرسل لك برقية (لايمكننى أن

أقابل أحدا سواك، أعلم هذا)، من المؤكد أننى لن أصل قبل يوم الثلاثاء. سوف أصل إلى المحطة الجنوبية، وإن كنت لا أعلم حتى الآن إلى أين سأذهب بعد ذلك عندما أبلغها، وعلى هذا فسوف أبقى بالقرب من المحطة الجنوبية، يؤسفني أننى لا أعرف أين تقومين بإلقاء دروسك فى المحطة الجنوبية، فيمكنني أن أنتظرك هناك فى الساعة الخامسة . (لابد أننى قد قرأت هذه الجملة من قبل فى إحدى القصص الخرافية، فى مكان لا يبعد كثيرا عن الجملة التالية : إن لم يكونوا قد ماتوا، فلا شك أنهم ما يزالون اليوم على قيد الحياة).

رأيت اليوم خريطة لڤيينا، فبدا لى، للحظة، أنه مما يستعصى على الفهم، قيامهم بتشييد مثل تلك المدينة على حين أنك تريدين فقط، حجرة واحدة.

ف

***

قرأت بإمعان تلك الملاحظة التى تتعلق بالطعام، نعم، هذا أيضا سوف يترتب تلقائيا، لقد أصبحت ذلك الرجل المهم الآن – وإننى أقرأ الرسالتين بنفس الطريقة التى يلتقط بها العصفور الفتات فى حجرتى، مرتعشا مرهفا سمعه، متفحصا ما حوله، نافشا كل ريشه.

***

الخميس

يكون المرء أشد يقظة بعد ليلة يقضيها مسهدا، منه بعد ليلة يستغرق فيها فى النوم. بالأمس استغرقت فى نوم عميق إلى حد ما، ثم كتبت فى الحال تلك الحماقات عن رحلتى إلى ڤيينا. ليست هذه الرحلة، فى نهاية الأمر بالشىء الهين، إنها ليست موضوعا للتسلية.

تيقني من أنني لن أفاجئك بحال من الأحوال، إن مجرد التفكير في ذلك يجعلني أرتعد، لست أنوي مطلقا الحضور إلى شقتك. إذا لم تصلك برقية مني حتى يوم الخميس، فسوف أكون قد ذهبت حينئذ إلى براغ . سأصل، بالمناسبة، بناء على ما بلغني، إلى المحطة الجنوبية (أظن أنني قد كتبتها في الليلة الماضية المحطة الجنوبية)، إلا أن هذا لايهم. وعلاوة على هذا، فلست شخصا شاردا، ولا متبلدا، ولا مهملا إلى أقصى حد - بل لقد استغرقت قليلا في النوم بعد أن فرغت من ترتيب كل شيء. فلا تخشي شيئا في هذا الخصوص، ذلك أنني إن خطوت إلى داخل العربة، قاصدا ڤيينا، فلن أغادرها إلا في ڤيينا، غير أن الصعود إلى العربة يثير بعضا من الصعوبات. إلى اللقاء إذن (وقد لايكون اللقاء في ڤيينا، فمن الممكن أيضا أن نلتقي في الرسائل).

ف

لاعلاقة لاسم ميلينا على أية حال بالچرمانية أو اليهودية. وإن من يجيدون فهم اللغة التشيكية (فيما عدا اليهود التشيكيين بالطبع)، هم السادة الذين ينحدرون من أصل چرماني، ويليهم قراء المجلة، ثم يليهم المشتركون فيها، وأنا واحد من بين هؤلاء المشتركين... أقول لك هذا لأن علاقة اسم ميلينا باللغة التشيكية لا تتعدى تصغيره (ميلينكا)، وسواء راق لك هذا التصغير أو لم يرقك، فهو ما يقوله[١] فقه اللغة (الفيلولوچي).

١) يرى كافكا أن اسم (ميلينا)، اسم لاتيني الأصل، إلا أن تصغيره (ميلينكا) هو اسم تشيكي أصيل ، على الرغم من ذلك ، ومعناه (الحبيبة)، ويرى كافكا لهذا أن التركيب الصحيح للاسم في اللغة التشيكية هو (ميلادا).

لو أنني وصلت إلى ڤيينا فعلا، فسوف أكتب لك، أو أرسل لك برقية على مكتب البريد يوم الثلاثاء أو الأربعاء. لقد وضعت الطوابع بالتأكيد فوق مظاريف الرسائل جميعا، ألا يبدو لك أنها قد انتزعت من فوق المظروف؟

***

مساء الجمعة

كتبت لك بغباء صباح اليوم، والآن وصلتني رسالتاك الغاليتان الفياضتان. وسوف أرد عليهما شفويا، فسأصل إلى ڤيينا يوم الثلاثاء، مالم يقع ما ليس في الحسبان، ظاهرا كان أو باطنا. وربما كان من الأصوب، لو استطعت أن أحدد لك الآن في أي مكان سأنتظرك (أظن أن يوم الثلاثاء عطلة، وقد يكون مكتب البريد الذي سأرسل لك إليه رسالتي أو برقيتي، مغلقا) على أنني، لواستطعت أن أعين لك اليوم، وفي هذه اللحظة مكانا، لابد لي أن أراه بعين الخيال شاغرا طوال ثلاثة أيام، وثلاث ليال مقدما، في انتظار وصولي يوم الثلاثاء، في ساعة معينة، لاختنقت لهذا قبل أن أبلغه. فهل يوجد يا ميلينا، ثمه مكان في هذه الدنيا يسعه أن يطيق معي صبرا. حدثيني عن هذا يوم الثلاثاء.

ف

***

(بطاقة بريدية. خاتم بريد ٢٩/٢/٢٠ ڤيينا)

الثلاثاء - الساعة العاشرة

قد لاتصلك هذه البطاقة في الثانية عشرة، أو أنها بالأحرى لن تصلك قطعا في ذلك الموعد، فالساعة الآن تمام العاشرة. ستصلك

إذا في الغد، وقد لا تصلك أيضا في الغد، ذلك أنني أنا أيضا على الرغم من وجودي في ڤيينا الآن، جالسا في مقهى بالقرب من محطة الجنوب (مانوع هذه الشيكولاته؟، وأي بقلاوة هذه؟ هل هذه هي الأطعمة التي تعيشين عليها؟)، إلا أنني لم أصل بالفعل في الحقيقة إلى مكاني هذا الذي أجلس فيه الآن ، فلم أذق للنوم طعما طوال ليلتين، وإن كنت لا أكاد أصدق أنني سأستغرق في النوم، في الليلة الثالثة، التي سأقضيها في (فندق ريڤا) بالقرب من محطة الجنوب، حيث تطل حجرتي على أحد الجاراچات. لن أصادف ما يطيب لي أكثر من: أنني سأنتظرك صباح الأربعاء في العاشرة، أمام الفندق. أرجوك يا ميلينا ألا تفاجئيني بالقدوم من أحد الجانبين ، أو من الخلف، وأعدك بأنني لن أفعل ذلك بدوري أيضا. ربما نظرت اليوم إلى المشاهد التي تحيط بي: شارع (ل) [1]، ومكتب البريد، والساحة الخارجية التي تمتد من محطة الجنوب إلى شارع (ل) ، وبائعة الفحم، وغيرذلك - بقدر ما أسعفتني الرؤية.

لك

***

من براغ
الأحد [2]

اليوم ميلينا، ميلينا، ميلينا - لايمكنني أن أكتب شيئا آخر. لكنني سأكتب، وعلى هذا، فإنني أكتب ميلينا اليوم فقط متعجلا، مرهقا، شاردا إلى حد ما (أما ميلينا الثانية فسأكتبها غدا بالفعل، هي أيضا) كيف يمكن ألا ينال الإرهاق من المرء؟ لقد وعدوا المريض

١) حيث تقطن ميلينا.
٢) كانا قد التقيا في ڤيينا، في تلك الأثناء.

بثلاثة شهور إجازة، ومنحوه فقط أربعة أيام؛ وجزءا من الثلاثاء ومن السبت ، وحتى الأمسيات والفترات الصباحية قد فقدها . ألست محقا لهذا في ألا أتماثل تماما للشفاء؟ ألست محقا في هذا؟

ميلينا! (همسة، همستها في أذنك اليسرى، بينما كنت تستلقين هنالك فوق الفراش المتواضع، مستغرقة في إغفاءة عميقة، يشغلك شاغل يبدو ملحا، وبينما كنت تستديرين في بطء ، لاشعوريا من اليمين إلى اليسار، نحو شفتي)

الرحلة؟ في البداية بدا الأمر بسيطا غاية البساطة، وكان من المستحيل أنْ يبتاع المرء الصحف من نافذة القطار. مجرد عذر للخروج، غير أن عينيّ لم تقعا لك على أثر، تبينت هذا تماما، ثم دخلت إلى العربة ثانية، وتحرك القطار، وشرعت في قراءة الصحف، كان كل شيء ما يزال على ما يرام، وتوقفت عن القراءة بعد لحظة، لكنك فجأة لم تكوني معي، أو أنك كنت معي، فهذا ما كنت أشعر به بكل كياني. غير أن وجودك معي على هذا النحو، كان يختلف مع ذلك، اختلافا بالغا عن وجودك بجانبي خلال تلك الأيام الأربعة، وكنت قد اعتدت على ذلك في أول الأمر. شرعت مرة أخرى في القراءة، إلا أن صفحة اليوميات التي يكتبها (بار)[1] بدأت بوصف (حمام الصليب) بالقرب من (جراين). انصرفت عن القراءة عندئذ، وعندما تطلعت إلى الخارج، مر بنا أحد القطارات، وفوق إحدى عرباته، وقعت عيناي على كلمة (جراين). سحبت نظراتي إلى داخل الديوان. كان يجلس أمامي شخص يقرأ نسخة الأحد الماضي من جريدة (نارودني ليستي). لمحت بها مقالا بقلم روتسيتا بيرزينسكا،

١) يوميات هيرمان بار، التي كانت تظهر في طبعات الأحد من جريدة (نويه فاينر).

فاستعرتها، وبدأت فى قراءته شاردا، ثم وضعت الجريدة جانبا، وبقيت بعد ذلك، جالسا فى مكانى، ووجهك يتبدى لى، تماما كما بدا لى فى لحظة وداعنا فى المحطة. بدت لى لحظة وداعنا تلك، على رصيف المحطة، ظاهرة طبيعية، لم أشهد لها مثيلا من قبل أبدا، فلقد غشى ضوء الشمس قتامة لمن تسببها الغيوم، كان ضوء الشمس قد خفت من نفسه.

ماذا عساى أن أقول أيضا؟ إن حلقى لايطاوعنى، ولا تطاوعنى يداى.

لك

غدا يصلك وصف الحكاية الغريبة، لبقية الرحلة.

الأحد – بعد قليل من كتابة الرسالة السابقة[1]

أحضر ساعى البريد هذه الرسالة المغلقة (أرجوك أن تفضيها فى الحال، وكذلك الرسالة التى أرسلها ماكس [2])، إنه يريد ردا عاجلا، لهذا أكتب له قائلا إننى سأكون هناك فى الساعة التاسعة. إن ما ينبغى أن أقوله شىء بالغ الوضوح، أما كيف سأقوله، فلست أدرى كيف. فلترحمنى السماء، لو أننى كنت متزوجا وعدت إلى منزلى فلم أجد ساعى البريد، بل وجدت فراشا، من المستحيل أن أختبىء فيه، دون أن أجد سردابا يصلنى بڤيينا!

أقول لنفسى هذا، حتى أقنعها بمدى سهولة تلك الصعوبات التى تواجهنى.

١) الرسائل التالية من براغ.
٢) الشاعر ماكس برود.

لك

إننى أرسل إليك تلك الرسالة ، كما لو كان يسعنى بذلك أن أدعوك للمجىء، وحدك - لكى تكونى بجوارى، وأنا أتمشى ذهابا وجيئة أمام ذلك المنزل.

***

(٣) الأحد - الساعة الحادية عشرة والنصف

أرقم هذه الرسائل على الأقل.
حتى لايتاح لأى منها أن تضل
طريقها إليك. إلا بقدر مايمكننى
أن أفتقدك. فى الحديقة. وقتئذ.

لافائدة، على الرغم من أن كل شىء ، كان فى نهاية الأمر، واضحا غاية الوضوح، وأننى كنت من جانبى قد أوضحته غاية الوضوح. لا أريد أن أخوض فى التفاصيل، سوى أنها لم تتفوه بكلمة واحدة تشى بشىء من الغضب. فيما يتعلق بك أو بنى. ولست أشعر لهذا الوضوح الصريح، بأدنى شعور بالأسف. كل ما يمكننى أن أقوله صادقا، أن شيئا بينها وبينى لم يتغير، ولايبدو أن شيئا سيتغير على الإطلاق، فيما عدا- لاشيء، إن هذا مخيف كله، إنها مهمة تتطلب جلادا ليضطلع بعبئها، وليست هى بالمهمة التى أقوى عليها. يبقى أمر واحد، يا ميلينا، هو احتمال أن تمرض مرضا خطيرا (فهى لاتبدو مطلقا فى صحة حسنة، ويسيطر عليها يأس بالغ، ولابد لى من أن أذهب لزيارتها مرة أخرى بعد ظهر الغد) - حسنا، هل سيدهمها المرض، أو أن شيئا آخر غيره سيقع لها، لم يعد لى بعد أى سلطان عليها. فلا يمكننى سوى أن أواصل إخبارها

فقط بالحقيقة. غير أن الحقيقة، ليست هى مجرد الصدق، لكنها شىء أكثر من هذا، ذلك أن تلك الحقيقة تتحلل فى داخلى، بينما أسير إلى جوارها - لهذا ، عليك إذن، أن تحضرى يا ميلينا مرة أخرى، لو حدث شيء.

ف

ياله من هراء! لن يمكنك بالطبع أن تحضرى، (لنفس) السبب.

غدا سأرسل (رسالة الأب) على عنوان شقتك. فأرجوك أن تعتنى بها، فلعلنى أن أعطيها لوالدى يوما ما. ولا تسمحى لغيرك بقراءتها لو أمكنك هذا ، وحاولى أن تفهمى أثناء قراءتها كل حيل رجال القانون، فهى رسالة كتبها أحد رجال القانون. ولا تتخلى في أثناء ذلك عن لامبالاتك البالغة.

صباح الاثنين الباكر

أرسل لك (عازف الكمان الفقير[1])، - لا لأن لها أهمية خاصة عندى، مع أن تلك الأهمية كانت لها عندى قبل سنوات، - بل أرسلها لك لأنها قصة تنتسب إلى ڤيينا كل الانتساب، ولأنها بالغة البساطة - وتكاد تدفع المرء إلى البكاء، لأنه ينظر إلى أسفل، ينظر إلينا فى الحديقة العامة (إلينا !، لأنك كنت يا ميلينا ، تسيرين إلى جانبى، فتصورى هذا ، تصورى أنك تسيرين إلى جانبى!)، ولأنه بيروقراطى إلى أقصى حد، ولأنه كان يحب فتاة، كانت تجيد عملها.

***

(٤) صباح الاثنين

تسلمت رسالة الجمعة فى ساعة مبكرة من هذا الصباح، ثم

١) قصة قصيرة بقلم فرانتس جريلبارتسر.

وصلتني بعد ذلك رسالتك التي كتبتها مساء الجمعة. كانت الرسالة الأولى رسالة بالغة الحزن، يتبدى على صفحتها وجهك الحبيب الحزين على رصيف المحطة. كانت رسالة حزينة، لا لما كان يشيع فيها من الرضا، بل لأنها لم تصل في حينها.... لأنها تنتمي إلى الماضي، إلى الغابة المشتركة، والضاحية المشتركة، والرحلة المشتركة، إلا أن مسيرتنا معا، قدما إلى الأمام، عبر الطريق الحجري، لم تنته، ولا انتهت عودتنا بطول الشارع تحت شمس المساء، لم ينته شيء من هذا، وإن كانت مجرد نكتة سخيفة عندما يقول المرء إن ذلك لم ينته. ثمة وثائق هنا، في متناول يدي، هي بضع رسائل قليلة، انتهيت الآن من قراءتها، رسائل تتضمن تحيات ودية من المدير (لم أفصل إذن من العمل)، وتحيات من آخرين هنا وهناك، ويرن في أذني وسط هذا كله، ناقوس صغير يقول: «إنها لم تعد بعد معك!»، على الرغم من أن ناقوسا آخر، أكثر ارتفاعا يرن من مكان ما، في السماء، قائلا : «إنها لن تتركك!» . إلا أن رنات الناقوس الصغير تدوي في داخل أذني، وها هي مرة أخرى رسالة المساء، وهي رسالة لايكاد المرء يدرك شيئا مما بها، رسالة مستغلقة حتى ليتسع صدر المرء وينقبض في قوة محاولا أن يتنفس تلك الأنفاس التي تشيع فيها. رسالة لايكاد المرء يصدق ، لانغلاقها، أنه من الممكن أن يكون بعيدا عنك إلى هذا الحد.

إلا أنني لست أشكو، على الرغم من ذلك، ليس هذا كله نواحا، بعد أن بلغتني كلماتك.

أحكي لك الآن قصة الرحلة. ولعلك تواصلين بعدها القول، بأنك

لست ملاكا: في طريق عودتي عرفت أن تأشيرة دخولي إلى النمسا كانت قد انتهت مدتها بالفعل قبل شهرين، لكنهم كانوا قد قالوا في ميران، أن أحدا لن يلتفت إلى تأشيرة الدخول في حالة دخولي إلى النمسا عابرا، ولم تواجهني بالفعل أية صعوبات عند اجتياز حدود النمسا. وكانت هذه السهولة هي السبب في أنني قد نسيت هذا الإهمال نسيانا تاما، أثناء وجودي في ڤيينا. ومع ذلك فقد اكتشف، في جموند، أحد موظفي مكتب جوازات السفر - وهو شاب قاس القلب - هذا الإهمال للوهلة الأولى. واحتجزوا جواز سفري، وأصبح في مقدور كل شخص أن يجتاز المنطقة الجمركية ما عداي ، كان هذا أمرا سيئا للغاية (لم أنعم طوال الوقت بلحظة راحة واحدة خالية من الإزعاج، وهذا هو أول يوم لي في مقر عملي، على أية حال، فلم أصبح بعد مجبرا على الاستماع إلى أحاديث الغيبة التي تجري في المكتب، إلا أن شخصا أو آخر لايكف عن الدخول، ويحاول أن يصرفني عنك - أي يبعدك عني إلا أنهم لن ينجحوا في ذلك، يا ميلينا، هل ينجحون في ذلك ؟ لن ينجح واحد منهم). كان هذا هو ما حدث، غير أن سحرك كان قد بدأ مفعوله في الحال. جاء حارس من حرس الحدود، رجُل ودود، صريح، نمساوي، رحيم، مخلص، واقتادني، فارتقينا درجا، وعبرنا ممرات إلى حيث مفتش الحدود. وهناك كانت تقف أيضا امرأة يهودية من رومانيا، وبيدها جواز سفر تنقصه أيضا تأشيرة الخروج، وكانت، ويا للغرابة البالغة، واحدة هي أيضاً من مبعوثيك الودودين، أيتها الملاك الحارس لليهود، غير أن القوى المضادة كانت لها اليد العليا ما تزال. أمسك المفتش العظيم ومساعده الضئيل - وكان كلاهما شاحب اللون، نحيلا، متكدرا، في

تلك اللحظة، على الأقل بجواز السفر، وكان القرار الذى انتهى إليه المفتش من فوره هو : «عد إلى ڤيينا واحصل على تأشيرة الخروج من قسم البوليس!» ، ولم أقو سوى على أن أقول : «إن هذا شاق بالنسبة لى!»، وأجابنى المفتش أيضا مرات عديدة، فى تهكم، وهياج قائلا : «إن هذا الأمر يبدو لك شاقا فقط». «ألا يمكن طلب التأشيرة ببرقية؟» «لا؟». «حتى ولو كان المرء مستعدا لدفع كل ما يلزم من النفقات؟» «لا!»، «ألا توجد أية سلطة أعلى هنا؟»، «لا» هنا توجهت المرأة التى كانت قد شعرت بعذابى، والتى كانت تلزم الصمت التام طوال الوقت، إلى المفتش تسأله أن يسمح لى، على الأقل، بالمرور. كان المجهود بالغ الضعف يا ميلينا! لم يكن هذا هو السبيل الذى يمكننى أن أسلكه. وكان على أن أقطع الطريق الطويل راجعا مرة أخرى إلى مكتب جوازات السفر، بحثا عن أمتعتى، ذلك أن فرصة السفر فى ذلك اليوم كانت قد ضاعت نهائيا. وكنا نجلس معا عندئذ فى حجرة مفتش الحدود، وحتى الحارس كان لديه عزاء بسيط يمكنه أن يقدمه لنا، فيما عدا أن صلاحية أوراقنا من الممكن أن يمد أجلها، أو أى شيء من هذا القبيل. وكان المفتش قد قال كلمته الأخيرة، وانسحب إلى مكتبه المنعزل، وكان الحارس النحيل، هو وحده الذى كان قد بقى هنالك. ورحت أحسب الأمر: إن القطار التالى المتجه إلى ڤيينا، يتحرك فى الساعة العاشرة بعد الظهر، ويصلها فى الثانية والنصف. وكنت مازلت أعانى من اللدغات التى نالتنى من البق الذى يملأ فراش فندق ريڤا، فكيف ستكون حال حجرتى فى فندق محطة فرانتس- يوزيف؟، إلا أننى لن أحصل على حجرة فيه على أية حال. حسنا، ثم سأتجه بعد ذلك (نعم ، فى الثانية

والنصف صباحا) إلى شارع ل.

وأسأل عن مأوى (نعم، فى الخامسة صباحا). لكن أيا كان الأمر، فعلى أن أذهب وأحصل على التأشيرة اللازمة فى صباح الاثنين، على أية حال (وهل سأتمكن من الحصول على تلك التأشيرة فى الحال، وليس فى يوم الثلاثاء؟) ، ثم أذهب إليك، وأصيبك بالدهشة فى فرجة الباب الذى ستفتحينه لى، ياللسماء! هنا توقفت أفكارى، غير أنها واصلت تدفقها ثانية : كيف سيكون مظهرى بعد انقضاء الليلة فى القطار؟ وسيكون على فى المساء أن أقفل راجعا فى الحال رحلة الست عشرة ساعة، ففى أية صورة سأبلغ براغ، وما الذى سيقوله المدير الذى يتعين على الآن أن أبرق له طالبا مهلة لرحيلى من هنا ؟ قلت لنفسى، لاشك أنك لا تريد هذا كله؟ لكن ما الذى تريده إذن؟ ليس أمامك مخرج آخر سوى هذا من ورطتك هذه. كان العزاء الوحيد الذى تبدى لى، هو أننى سأمضى الليلة فى جموند، ومن ثم أتجه إلى ڤيينا فى صباح الغد المبكر، وعلى هذا، وبينما كنت مرهقا غاية الإرهاق، سألت المساعد الصامت عن موعد أحد القطارات الصباحية المتجهة إلى ڤيينا. هناك واحد – يتحرك فى الخامسة والنصف صباحا، ويصلها فى الحادية عشرة. حسنا، هذا هو القطار الذى سأصحب السيدة الرومانية إليه، لكن الحديث اتجه فى تلك اللحظة اتجاها مختلفا فجأة، لست أدرى كيف، على أية حال اتضح من الحديث أن المساعد الضئيل سيحاول مساعدتنا. فلو أننا قضينا الليل فى جموند، فسوف يحاول هو عندما يكون بمفرده فى المكتب فى الصباح الباكر، أن يسمح لنا سرا بركوب قطار الركاب إلى براغ، وسنبلغ براغ عندئذ فى الرابعة بعد الظهر. وعلينا أن

نتظاهر أمام المفتش بأننا سنأخذ القطار الصباحى إلى ڤيينا. رائع! إنه في الحقيقة ، أمر بالغ الروعة، ذلك أنه ما يزال فى مقدورى أن أبرق إلى براغ. ليكن. وجاء المفتش، وقمنا بتمثيل مهزلة صغيرة تدور حول قطار الصباح الذاهب إلى ڤيينا، ثم طلب منا المساعد أن ننصرف ، وكان علينا أن نلتقى به سرا فى المساء لنناقش بعض الترتيبات التالية. لقد اعتقدت أنا اعتقادا قاطعا بأن هذا كله هو من صنع يديك، على حين لم يكن ذلك فى الحقيقة سوى الهجوم الأخير للقوى المعادية. عند هذا سرنا، أنا والمرأة، مبتعدين فى تثاقل عن المحطة (كان القطار السريع الذى سيحملنا إلى براغ، ما يزال واقفا فى المحطة، ذلك أن تفتيش أمتعة الركاب يستغرق وقتا طويلا) كم تبعد المدينة عن هنا؟ ساعة واحدة ، هذا أيضا! ثم اتضح لنا أن ثمة فندقين بالقرب من المحطة، سوف نذهب إلى أحدهما، وكان ثمة قطار من قطارات البضاعة تكاد آخر عربة من عرباته تبلغ مكاناً يقرب من الفندقين، وكان علينا أن نعبر إلى الجانب الآخر، وكنت أوشك على أن أعبر الخط مسرعا، عندما تشبثت المرأة بى، تجرنى إلى الخلف عندئذ، ذلك أن أحد قطارات البضاعة كان يقترب من مكاننا فى تلك اللحظة، ثم توقف قطار البضاعة أمامنا، وكان علينا أن ننتظر. كان ذلك إضافة قليلة أخرى تضاف إلى حظنا التعس، هذا ما جال بخاطرنا. غير أن ذلك الانتظار وحده، الذى لم أكن بدونه لأصل إلى براغ يوم الأحد، كان هو نقطة التحول فى رحلتى. ويبدو كأنك كنت قد هرولت عندئذ – كما هرولت من فندق إلى آخر عند محطة الغرب – من بوابة من بوابات السماء إلى الأخرى، تتشفعين لى، ذلك أن حارسك كان يسرع خلفنا فى تلك اللحظة متقطع الأنفاس، صائحا

بنا من الطريق الذى خلفناه وراءنا إلى المحطة: «عودا بسرعة إلى المحطة، فإن المفتش يسمح لكما بالسفر!» «هل يمكن أن يحدث هذا؟!»، إن مثل تلك اللحظة تأخذ بخناق المرء، ورجونا الحارس عشر مرات أن يقبل منا نقودا. وكان علينا أخيرا أن نسرع عائدين جرياً ونبحث عن أمتعتنا فى مكتب المفتش، ونندفع بها نحو مكتب جوازات السفر، ومنه إلى الجمرك، غير أنك كنت فيما يبدو قد رتبت بنفسك كل شىء منذ تلك اللحظة -؛ فعندما لم أجد لدى القدرة على أن أقبض على أمتعتى، وجدت فى الحال، حمالا إلى جانبى، بالصدفة، وعندما اندفعت نحو أحد الأركان فى مكتب جوازات السفر ، أفسح لى الحارس الطريق، وعندما فقدت الصندوق الذى يحتوى على أزرار القمصان الذهبية فى الجمرك، دون أن أتبين ذلك، كان أحد المو ظفين قد عثر عليه، وسلمه إلى. وصعدنا إلى القطار، الذى تحرك فى الحال وأصبح فى مقدورى أخيرا أن أجفف العرق من على وجهى وصدرى، أرجوك أن تكونى دائما بجوارى!

ف

***

(٥) أظن

الاثنين

بالطبع سوف آوى إلى النوم ، فالساعة الآن الواحدة صباحا، وكان يجب على أن أكتب لك من قبل، فى المساء، لكن ماكس كان هنا. وكنت أترقب أن تسنح لى فرصة لقائه بفارغ الصبر، غير أن ما كان يحول بينى وبين الذهاب لزيارته إلى الآن، كانت هى الفتاة، وقلقى بشأنها.

لقد بقيت إلى جوار الفتاة حتى الثامنة والنصف، ووصل ماكس فى التاسعة، ثم تجولنا معا حتى الساعة الثانية عشرة والنصف. تصورى أن ماظننته، كنت قد أوضحته وضوحا بالغا فى رسائلى، هو أنك، أنت، أنت، أنت - مرة أخرى تضطرب كتابتى بعض الشىء - التى كنت أتحدث عنها. إلا أنه لم يدرك ما كنت أرمى إليه، لقد عرف اسمك الآن فقط (بالطبع لم أكتبه في رسائلى إليه، فربما كانت زوجته تقرأها).

فيما يتعلق بالفتاة، تبدو الحال اليوم أحسن، لكننى لم أسمح لها بالكتابة إليك إلا بعد عناء بالغ. وإننى آسف لذلك غاية الأسف، إن ما يدل على خوفى عليك هو البرقية التى أرسلتها اليوم إليك على مكتب البريد (إن الفتاة تكتب إليك فردى عليها برقة و - هنا قصدت بالفعل أن أضيف بغاية الحزم، ولا تتخلى عنى). كانت الأمور جميعا أكثر هدوءا اليوم، ولقد قسرت نفسى على أن أتحدث فى سلام عن ميران، ذلك أن الجو كان أقل تهديدا، غير أن الموضوع الرئيسى عندما أثير مرة أخرى - ارتعد جسد الفتاة كله بجانبى لبضعة دقائق فى ميدان كارل - كان فى استطاعتى فقط القول بأن كل شىء آخر بمقارنته بك، مهما بقى دون أن يطرأ عليه أدنى تبديل، يختفى ويتحول إلى لاشىء. ووجهت هى سؤالها الأخير، الذى أجدنى أمامه دائما بلا حيلة - وهو، «لايمكننى أن أتركك، لكن لو أنك أبعدتنى عنك ، فسوف أبتعد ، فهل تبعدني عنك؟» (ثمة أمر بالغ الفظاعة، بصرف النظر عن الغرور، فيما يتعلق بحقيقة ما يدفعنى إلى أن أحكى لك هذا الذى أحكيه لك الآن، لكننى أحكيه لك بدافع مما أحسه من قلقى عليك، وما هو الشيء الذى لا أفعله لقلقى عليك؟ فتصورى إذن، أى خوف غريب

جديد، خوفى هذا!)، أجبتها: «نعم»، على حين أجابتنى هى بقولها: «غير أننى لايمكننى أن أتركك على أية حال!» وعندئذ، راحت تلك المخلوقة العزيزة الطيبة تقول، فى ثرثرة تتجاوز حدود طاقتها، إنها لايمكنها أن تفهم الأمر كله، وهو أنك تحبين زوجك، على حين تتحدثين سرا إلى، وما إلى ذلك. ولكى ألتزم الحقيقة، أقول إنه كانت هنالك ثمة كلمات سيئة أيضا تناولتك من بين ما قالته، ولقد أوشكت بالفعل أن أضربها عندما تفوهت بها أمامى، لكن ألم يكن على أن أفسح أمامها الفرصة لكى تصب شكواها على الأقل فى تلك المناسبة الوحيدة؟ ولقد صرحت بأنها أرادت أن تكتب إليك سرا، وسمحت لها أنا بذلك، لالتزامى أمامها، ولثقتى التى لا حد لها بك، سمحت لها به على الرغم من أننى أدركت أن ذلك سوف يكلفنى عديدا من الليالى. إلا أن ما أزعجنى، هو أن ما هدأ من ثائرتها كان هو مجرد سماحى لها بذلك. فكونى رقيقة، وقاسية ، بل كونى معها أشد قسوة مما تبدينه لها من الرقة، لكن ما هذا الذى أقوله؟ ألست أعرف أنك ستكتبين فقط ما سوف تقدرين على كتابته فى هذه الحال. وأليس خوفى، من أنها، فى غمرة يأسها، قد تكتب شيئا يتصف بالغدر، فتقلبك بهذا على، ألا يعد مثل خوفى هذا إساءة لك، لكن ما الذى يمكننى أن أفعله لو ظل ذلك الخوف ينبض فى جسدى بدلا من القلب؟ لم يكن لى فى الحقيقة أن أسمح لها بذلك. حسنا، غدا أراها مرة أخرى، غدا الجمعة عيد (هوس)[1] وقد طلبت فى إلحاح أن نخرج معا فى نزهة قصيرة، بعد الظهر، وأنه لن يكون على طوال بقية الأسبوع أن أذهب لزيارتها بعد ذلك، لعلنى أستطيع أن أقنعها

١) يوم (يان هوس) وهو عيد قومى فى عهد جمهورية تشيكوسلوفاكيا.

بالعدول عن كتابة رسالتها إليك، إن لم تكن قد كتبتها بالفعل. لكننى، قلت لنفسى عندئذ: لعلها تريد حقا تفسيرا فقط، وربما كان لكلمتك الرقيقة رغم قسوتها أن تهدئها، ربما - هذه هى الطريقة التى تدور بها أفكارى فى هذه الأيام - خرت على ركبتيها أمام رسالتك.

فرانتس

غير أن هنالك سببا آخر لسماحى لها بالكتابة إليك، فقد أرادت أن تطلع على رسائلك إلى، إلا أننى لم أستطع أن أتيح لها أن تطلع عليها.(*)

***

(٦)

الثلاثاء - في الصباح الباكر

لطمة صغيرة تلقيتها: هى برقية من باريس تفيد بأن واحدا من أعمامى المسنين، وهو شخص أهيم به إعجابا فى الحقيقة، يعيش فى مدريد، ولم تتح له فرصة زيارتنا هنا منذ سنوات عديدة، سوف يصل مساء الغد، لطمة لأن هذه الزيارة سوف تستنفد جزءا من وقتى، ولأننى فى حاجة إلى وقتى كله، وإلى الآلاف من الأوقات التى تماثله، علاوة على كل ما يمكن أن يتوفر من الزمن، لك، للتفكير فيك، واستنشاق نفحاتك. أما الشقة هنا، فسوف ينتابها الاضطراب بدورها أيضا، وسوف تفسد الأمسيات، فكم أتمنى أن أكون فى أى مكان آخر، أشياء عديدة أود لو أنها تتغير عما هى عليه، أما عملى الرسمى فكم أود لو أنه لم يوجد على الإطلاق. ثم أرى مرة أخرى

(*) (فى الهامش الأيمن): ورغم كل ذلك، فإننى أعتقد أحيانا : أنه لو أمكن أن يهلك شخص ما بفعل السعادة، فإن ذلك ما سوف يقع لى. ولو قدر لامرىء أن يموت، وأمكن للسعادة أن تعيده إلى الحياة، فسوف أبقى على قيد الحياة.

أننى أستحق اللطمات على وجهى، عندما أتفوه برغباتى التى تتجاوز هذه اللحظة، هذه اللحظة التى تخصك.

لايمكننى بصورة ما أن أكتب المزيد عن أى شىء آخر سوى ما يتعلق بنا، ما يتعلق بنا وسط اضطراب العالم، نحن فحسب. كل شىء آخر، هو شىء بعيد. خطأ! خطأ! غير أن الشفاه تغمغم، ووجهى يستلقى فى أحضانك.

ثمة شيء من المرارة تبقت من ڤيينا، هل لى أن أذكرها؟ هناك فى الغابة، في يومنا الثاني، أظن، أنك قد قلت شيئا بهذا المعنى: «إن المعركة التى تدور حول الحجرة السابقة لايمكن أن تستمر طويلا جدا». والآن تكتبين فى رسالتك الوحيدة الأخيرة من ميران[1]، عن مرضك. فكيف يتسنى لى أن أجد لنفسى مخرجا بين هاتين الحقيقتين؟ لست أقول هذا بدافع الغيرة، لست أعانى من الغيرة، يا ميلينا. كما أن العالم ليس ضئيلا لهذا الحد، ولا نحن بهذه الضخامة، وإن كنا نملأه تماما على أية حال. ممن ترانى أغار؟

***

مساء الثلاثاء

ها أنا الآن يا ميلينا، أرسل لك الرسالة بنفسي، ولست أدرى حتى ماذا بها. وهذا هو ما حدث. لقد وعدتها بأن أكون أمام منزلها اليوم بعد الظهر فى الساعة الثالثة والنصف. وكنا قد اتفقنا على أننا سنخرج للنزهة بالباخرة، غير أننى فى الليلة الماضية، كنت قد آويت إلى فراشى فى وقت متأخر جدا، ولم أكد أنعم بشىء من النوم،

١) يبدو أنها رسالة سبقت.

ولهذا فقد كتبت لها برقية، قلت لها فيها إنني سوف أنام في فترة الظهيرة، وسأحضر في الساعة السادسة، وفي قلقي الذي لم تكن لتهدئه الرسائل أو البرقيات جميعا، أضفت: «لاترسلي الرسالة إلى ڤيينا، حتى نتناقش بشأنها»، لكنها كانت قد كتبت الرسالة بالفعل في الصباح الباكر، معتمدة على أفكارها الخاصة في نصف ما جاء بها - إنها لم تقل حتى ما الذي كتبته في رسالتها تلك - ، و أرسلتها في الحال. وعندما تلقت برقيتي، امتلأ قلب الفتاة المسكينة بالرعب، وانطلقت تجري إلى مكتب البريد الرئيسي، واستطاعت بصورة ما، أن تحصل على الرسالة، وقد أسعدها ذلك حتى أنها منحت الموظف كل ما كان معها من النقود (وقد ارتاعت فيما بعد لضخامة المبلغ)، وأحضرت لي الرسالة في المساء، فما الذي ينبغي لي أن أفعله الآن؟، إن أملي في الاهتداء إلى حل عاجل، وبالغ التوفيق، يعتمد في نهاية الأمر على هذه الرسالة، وعلى تأثير ما تردين به عليها. لقد سمحت بذلك، حقا، وإنه لأمل مجنون، غير أنه أملي الوحيد، فلو أنني فضضت الرسالة الآن وقرأتها، فسوف أؤذيها بذلك، كما أنني من المؤكد ثانيا أنني لن أكون قادرا على إرسالها. ولهذا فإنني أضعها مغلقة كما هي بين يديك، وأسلم نفسي أيضا بين يديك في آن معا.

إن الجو موحش في براغ على نحو ما، فلم تصلني رسالة منك بعد، والقلب مثقل بعض الشيء، من المستحيل بالفعل أن تصلني أية رسالة الآن، لكن حاولي أن تشرحي هذا القلب.

ف.

***

٨) الثلاثاء - في ساعة متأخره من الليل

لم أكد أرسل الرسالة، حتى تبادر إلى ذهني ما يلي : كيف أمكنني أن أسألك شيئا من هذا القبيل؟ فبصرف النظر عن حقيقة أنه من شأني بصفة خاصة، في نهاية الأمر، أن أفعل ما يبدو لي صحيحا وضروريا في تلك الحالة، ربما كان يستحيل عليك أن تكتبي ردا من هذا القبيل، وتأتمني عليه شخصا غريبا. حسنا، أرجوك يا ميلينا أن تغفري لتلك الرسائل والبرقيات، وأن تنحي باللائمة على عقلي الضعيف، عقلي الذي أضعفه بعدي عنك : لن يحدث شيء إذا لم تردي على رسالتها، فثمة حل آخر يمكن أن يوجد، أرجوك ألا تنزعجي لهذه الرسالة. إنني متعب بالفعل غاية التعب من تلك النزهات (نزهة اليوم على منحدر فيشيرادر)، هذا هو حالي. وغدا أيضا سيضل عمي، وسوف تتضاءل فرصتي للانفراد بنفسي.

ولنتحدث عن شيء أفضل: هل تدركين متى كنت قد بلغت غاية الأناقة في ڤيينا، وكنت جميلة حقا جمالا لايكاد يصدق؟ ليس هناك أدنى جدل في هذا الخصوص، فقد كان ذلك : يوم الأحد.

***

(٩)

مساء الإربعاء

فقط بضع كلمات متعجلة للغاية لتدفئة شقتي الجديدة، كلمات متعجلة جدا، ذلك أن والدي قد وصلا في الساعة العاشرة من فرانتسنباد، وفي الساعة الثانية عشرة وصل عمي من باريس، وكان علي أن أستقبل الجميع: أما الشقة الجديدة، فلأنني قد انتقلت إلى شقة أختي الخالية، حيث توجد أختي الآن في مارينباد، لكي أفسح

مكانا لنزول العم. إنها شقة خالية فسيحة ، وهو أمر سار حقا، إلا أن الشارع أكثر ضجة – لهذا كم بدت لى مبادلة بالغة السوء. ولابد لى من الكتابة إليك، يا ميلينا، لأنك يمكنك أن تستخلصى من رسائلي الأخيرة التى تمتلىء بالنواح (لقد مزقت أسوأ هذه الرسائل صباح اليوم بدافع الخجل، تصورى أنه لم يصلنى منك شىء حتى الآن، غير أن الشكوى من الخدمة البريدية ستكون أمرا سخيفا، فما هو شأنى بالخدمة البريدية؟) إن ثقتى قد تزعزعت فيما يتعلق بك، وإننى خائف من أن أفقدك. لا، إن الشك فيك لايتسرب إلى، فهل يمكن أن تكونى بالنسبة لى فى الموضع الذى تتربعين فوقه الآن لو لم أكن واثقا فيك ؟ إن الشىء الذى سبب لي هذا الشعور هو قربك الجسدى القصير، والفراق الجسدى المفاجىء. (لماذا كان ذلك يوم الأحد بالذات؟ ولماذا فى الساعة السابعة بالذات؟ ولماذا كان ذلك بالمرة؟) إن هذا قد يسبب اضطرابا للحواس إلى حد ما. اغفرى لى! وفى هذا المساء، لك منى، كتحية للمساء، فيض وجودى كله، وكل ما لدى، وكل ما هو سعيد مبارك، ليستقر فى أعماقك.

(١٠)

صباح الخميس الباكر

الشارع غارق فى الضجيج، وثمة بناء يجرى بناؤه، على ناحية، فى مواجهتى، ولا أرى أمامى الكنيسة الروسية، بل توجد بدلا منها شقق تمتلىء بالناس، وأن أكون وحيدا فى حجرة، ربما كان هو على أية حال ، شرط الحياة، وأن أكون وحيدا فى شقة – مؤقتا، حتى أكون دقيقا – هو شرط من شروط السعادة (شرط واحد فقط، ذلك أننى لا أرى خيرا فى وجود الشقة، إذا لم أكن أنا حيا، إذا لم يكن

لى بيت يمكننى أن أستريح فيه، مثلا عينان زرقاوان متألقتان تمتلئان بالحياة، تمتلئان بالحياة خارقة الجمال) لكن الشقة لما كانت تنتمى إلى سعادتى بطبيعة الحال، فإن كل شىء هادىء، الحمام، والمطبخ، والبهو، والحجرات الثلاث الأخرى، على خلاف الحال فى تلك الشقق المشتركة، حيث الضجة، والفسق، وهتك الداعر لمحارمه، وحيث الأجساد، والأفكار، والرغبات، المنفلتة من إسارها ،حيث توجد الأمور المحرمة الخارجة عن الاحتشام فى كل ركن، وبين كل قطع الأثاث، وتقع الأحداث المباغتة، ويولد أطفال غير شرعيين، وحيث لا تسير الحياة كما تسير فى ضاحيتك الهادئة الخالية يوم الأحد، بل تسير كما تسير فى الضواحى، البدائية، المزدحمة، المختنقة فى ليلة سبت لايكدر صفوها شىء.

لقد قطعت شقيقتى كل ذلك الطريق الطويل، لكى تجيئنى بإفطارى (الذى لم يكن ضروريا، ذلك أننى كان يجب أن أذهب إلى المنزل) وقد ظلت بضع دقائق تطرق الباب قبل أن تتمكن من أن توقظنى من استغراقى فى هذه الرسالة ومن شرودى.

ف

إن الشقة لا تخصنى بالطبع، فلسوف يعيش فيها بين الحين والآخر زوج أختى أيضا.

***

(١١)

صباح الخميس

رسالتك أخيرا. مجرد كلمات قليلة متعجلة حول الموضوع الرئيسى، حتى ولو نتج عن هذه العجلة قليل من الأخطاء التى

سأسف عليها فيما بعد: هذه هى حالة لا أعرف لها مثيلا، فى علاقتنا الخاصة التى نشترك فيها ثلاثتنا فى وقت معا، وعلى هذا فلا يجب أن تضطرب بتفاصيل تجارب الحالات الأخرى.(«الجثث، العذاب الثلاثي، عناوينا الثنائي، الاختفاء على نحو ما). إننى لست صديقا له[1]، إننى لم أخن صديقا. لست مجرد واحد من معارفه، كما أننى لا أرتبط به بعلاقة وثيقة، وإننى من كثير من النواحى قد أكون له أكثر من صديق. وأنت من ناحية أخرى لم تخنيه، لأنك تحبينه، مهما قلت، ولو كان لنا أن نتحد (أشكرك، أيتها الأكتاف!)، فسوف يتم ذلك على مستوى آخر ، لاينتمى إلى مجال نفوذه. والنتيجة هى أن هذا الموضوع، لعله ألا يكون موضوعنا كلية، حتى يبقى سرا، ولعله ليس عذابا، مطلقا، وخوفا، وألما، وحسرة – (لقد أخافتنى رسالتك بسبب الهدوء النسبي الذى لايزال باقيا من اجتماعنا معا والذى ربما تحول الآن مرة أخرى إلى دوامة ميران، على الرغم من وجود أسباب قوية تقف فى وجه العودة إلى أحوال ميران) – غير أنها الصراحة – ، التى يتبدى بها ارتباطنا الواضح ثلاثتنا، حتى لو فضلت أن تلتزمي الصمت بعضا من الوقت، إننى، أيضا، أعارض التفكير الذى تدفع إليه الاحتمالات – إننى أعارضه لأننى أحس بأنك لى، فلو أننى كنت وحدى لما أمكننى أن أتوقف عن التفكير فى الأمر – لو زج المرء بنفسه الآن فى خضم المستقبل بالفعل، فكيف سيتسنى للأرض الخراب أن تحمل بيت المستقبل؟

لست أعرف المزيد فيما يتعلق بذلك الآن، هذا هو يومى الثالث فى مقر عملى، ولم أكتب بعد سطرا واحدا. ولعل الأمر أن يتحسن الآن.

١) عن الزوج.

فى الحقيقة، لقد زارنى ماكس ، بينما كنت أكتب هذه الرسالة، كان صمته أمرا يمكن للمرء أن يعول عليه، يعرف الجميع ما عدا شقيقتى، ووالدى، والفتاة، وهو إننى قد حضرت إلى هنا عن طريق لنتس.

ف

هل يمكننى أن أرسل إليك بعض النقود؟ ربما عن طريق ل. الذى سأقول له إننى كنت قد اقترضت بعض النقود منك فى ڤيينا، والذى سيرسل لك هذه النقود مع مكافأتك عن الكتابات التى ينشرها لك.

(فى الهامش الأيسر) : إننى خائف بعض الشيء أنا أيضا مما أعلنت أنك تكتبينه إلى عن الخوف.

(١٢) الجمعة

تبدو لى الكتابة عبثاً كلها – وإنها لكذلك بالفعل، إن ما يمكننى أن أقوم به ربما كان الحضور إلى ڤيينا لكى آخذك بعيدا، وربما فعلت ذلك، أيضا، على الرغم من معارضتك الشديدة له. يوجد فى الحقيقة احتمالان فقط كل منهما أجمل من الآخر، فإما أن تحضرى إلى براغ أو إلى ليبتزج. إن الريبة فى تراث اليهود القديم، قد بعثتها بالأمس فى نفس ل. فقد لحقت به مباشرة قبل رحيله إلى ليبتزج، وكانت معه رسالتك إلى شتاشا، إنه شخص ممتاز، مرح، صريح، ذكى، يأخذ بذراع المرء، ويتحدث فى رقة، وهو على استعداد لكل شىء، ويفهم كل شىء ، وربما فهم أكثر قليلا، مما يلزم. كان ينوى

١) الكاتب والناشر الكاثوليكى المعروف، وابن زوجة ليون بلوين، و كانت شتاشا تعمل لديه فى ذلك الوقت.

الرحيل برفقة زوجته إلى فلوريان[1] الذى يعيش على مقربة من برنو، ومن هناك إليك فى ڤيينا. فى هذه الظهيرة يعود هو ثانية إلى براغ. وهو بسبيله لأن يحصل على رد شتاشا، وسوف ألتقى به فى الثالثة بعد الظهر، وسأبرق لك بعدها. اغفرى لى اللغو الذى جاء فى رسائلى الإحدى عشرة، إلق بها جانبا. والآن تأتى الحقيقة التى هى أكبر وأفضل. إن الشيء الوحيد الذى يخشاه المرء الآن هو، فيما أظن، حبك لزوجك، وبقدر ما يتعلق الأمر بالعبء الجديد الذى كتبت لى عنه، فإنه بلاشك أمر صعب، لكن لا تبخسى قدر الطاقات التى أعطانيها قربك. ومع أننى لم أكن نائما منذ وقت قريب، إلا أننى أكثر هدوءا مع ذلك، مما كنت أظنه فى إمكانى، فى الليلة الماضية بعد أن تسلمت رسالتيك (كان ماكس موجودا بالصدفة، الأمر الذى لم يكن طيبا بالضرورة، ذلك لأن الأمر كان فى النهاية، أمرا يخصنى وحدى، آه، هنا بالفعل تبدأ غيرة الرجل الذى لايغار، يا ميلينا المسكينة!)، كذلك أمدتنى برقيتك التى أرسلتها اليوم بشىء من تجدد الثقة. لا أشعر بخصوص زوجك فى هذه اللحظة، فى هذه اللحظة على الأقل، بالكثير. لا أحس انزعاجا بالغا. لقد أخذ على عاتقه عبئا هائلا، وقد أنجزه جزئيا، وربما كان قد أنجزه كلية، بأمانة. وأشك فى أنه يمكنه أن يطيق احتمال ذلك العبء أكثر من ذلك، ليس لأنه لايملك القوة (فما هى قوتى بمقارنتها بقوته؟)، بل لأنه يحمل أعباء ثقالا للغاية، ولأنه بالغ الأسى، ولأنه يفتقر تماما إلى التركيز المطلوب لذلك، بسبب كل ما ظل يحدث حتى الآن، ربما أمكن، بصرف النظر عن كل شىء آخر، أن يكون فى هذا عزاء له ؟ فلماذا لا أكتب إليه؟

ف

***

(١٣) الجمعة

بضع كلمات قلائل عن رسالة شتاشا - ذلك أن العم، مع أنه بالغ السحر حقا، إلا أنه مزعج الآن إلى حد ما، مازالت تتبقى أمامي. حسنا، إن رسالة شتاشا هي رسالة ودية، ولطيفة، غير أن بها بعض الخطأ، مع ذلك، - بعض الأخطاء البسيطة - ، ربما الشكلية (لا أعنى أن الرسائل التى لاتتضمن أخطاء من هذا القبيل تكون أكثر ودا، بل العكس هو الصحيح). وعلى أية حال فثمة شيء ينقص تلك الرسالة، أو لعل شيئا ما يزيد عن الحاجة فيها. ربما كان ذلك الشيء هو قوة الانعكاس، الذى يبدو بالمناسبة أنه قد انعكس عن زوجها، ذلك أنه كان قد تحدث إلي بالأمس على هذه الصورة، لكن كيف يتحدث حقا على هذا النحو هؤلاء الناس الطيبون؟ الغيرة، إنها فى الحقيقة هى الغيرة، لكننى أعدك يا ميليتا ، بأننى لن أعذبك بعد ذلك بغيرتى هذه، سأعذب نفسى فقط، سأعذب نفسى فقط. يبدو ثمة سوء فهم، مع ذلك، فى الرسالة - فأنت ، فى نهاية الأمر، لست فى حاجة إلى نصيحة شتاشا، ولست فى حاجة إلى أن تذهب لتتحدث إلى زوجك. إن ما تريدينه منها حقا فى هذه اللحظة -، هو شئ لايمكن استبداله بأى شيء آخر سواه: هو حضورها. أو على الأقل هذا ما بدا لى.

ما زلت آمل فى الحصول على شيء ما منك اليوم. إن المرء هو بالصدفة رأسمالى لايدرك كل الأشياء التى يمتلكها. فى هذه الظهيرة عندما كنت أسأل عبثا عن أخبار فى المكتب، تسلمت رسالة منك كانت قد وصلت فى الحال بعد رحيلى عن ميران. وكانت قراءتها تبدو لى غريبة.

لك

***

(١٤) السبت

هذا سيء، أمس الأول وصلتني رسالتاك التعيستان، وأمس فحسب وصلتني البرقية (على الرغم من أنها كانت تعيد تأكيد ذلك، فإنها كانت مرممة مع ذلك إلى بعضها قليلا، كما هى طبيعة التلغرافات عادة)، ولم يصلني منك اليوم شئ بالمرة. ولم تكن هذه الرسائل، فى نهاية الأمر، مريحة بالنسبة لى. على أى وجه من الوجوه، وأوضحت هذه الرسائل أنك ستكتبين ثانية فى الحال، لكنك لم تكتبى. ومنذ ليلتين أرسلت لك برقية عاجلة نفقات ردها خالصة، وكان على الرد أن يصلني منذ وقت طويل. وأعيد نصها: لم يكن أمام المرء ما يفعله سوى هذا، فكونى هادئة. فأنت هنا فى منزلك، ج. وزوجته قد يصلان إلى ڤيينا فى خلال أسبوع، كيف يمكنني أن أرسل النقود ؟ إلا أن الرد على هذا لم يصلني . قلت لنفسى: «اذهب إلى ڤيينا»، لكن ميلينا لا ترغب فى ذلك، إنها لا ترغب فى ذلك بصورة مؤكدة. عليك أن تتخذ قرارا، إنها لا تريدك، إنها تقلق، وتنتابها الوساوس، وهذا هو ما يجعلها تريد شتاشا. وعلى الرغم من هذا فقد رغبت فى السفر، غير أنني لست على ما يرام. على الرغم من أنني هادىء، هادىء نسبيا، هدوءاً لم يحدث خلال تلك السنوات الأخيرة أن ساورني الأمل فى أن أجربه ثانية، وإنني أسعل مع ذلك سعالا سيئا فى أثناء النهار، وفى الليل أحيانا لمدة ربع ساعة فى المرة الواحدة. وربما كان الأمر هو فحسب تكرار هذه الأيام الأولى، التعود من جديد على مناخ براغ، وعواقب الأوقات العصيبة فى ميران قبل أن أعرفك، وقبل أن أتطلع إلى عينيك. كم أصبحت ڤيينا مظلمة، وكانت قد تألقت ذلك التألق لمدة أربعة أيام. ما الذى كان

يدبر لى هناك وأنا جالس هنا، وبينما أقطع كتابتى لكى أضع وجهى بين راحتى؟

ف.

* [فى الهامش الأيسر] : لا، أنت لا تفهمينني، أيضا، يا ميلينا، فلقد كانت (المسألة اليهودية) على أية حال، مجرد نكتة سخيفة.

ثم تطلعت إلى أعلى بينما كنت جالساً فى مقعدى عبر النافذة المفتوحة خلال المطر. وبدا لى عدد من الاحتمالات - أن تكونى مريضة، أو متعبة، أو مستلقية في فراشك، وأن السيدة شتاشا كان يمكنها أن تتوسط، ثم عندئذ، وعلى نحو بالغ الغرابة، كان أكثر تلك الاحتمالات اقترابا من الواقع، وكان أكثرها وضوحا هو أن - يفتح الباب وأن تكونى أنت واقفة فى فتحته.

***

(١٥) الاثنين

مر يومان بالغا الإزعاج، هذا أقل ما يمكن قوله فى وصفهما، لكننى أرى الآن أنك كنت بريئة، غاية البراءة، ذلك أن شيطانا خبيثا كان يمسك كل رسائلك، منذ يوم الخميس حتى الآن. تسلمت يوم الجمعة برقيتك فقط، ولم أتسلم شيئا يوم السبت، لم أتسلم شيئا أيضا يوم الأحد، وتسلمت اليوم أربع رسائل، هى رسائل الخميس والجمعة والسبت. وإننى لفى غاية التعب، حتى إننى لا يمكننى أن أكتب كما ينبغى. فى غاية التعب حتى أستخلص من الرسائل الأربع، من جبل اليأس هذا، جبل العناء والحب، ما يتبقى لى منه، إن المرء يكون بالغ الأنانية عندما يكون متعبا، وقد استهلك نفسه لمدة يومين

وليلتين مستغرقا فى أشد الأفكار إرعابا. لكن على الرغم من ذلك - ويعود هذا مرة أخرى إلى قدرتك على منح الحياة، أيتها الأم ميلينا - على الرغم من ذلك ، فإننى أساسا لست متضعضعا تماما كما لعلنى كنت خلال تلك السنوات السبع الأخيرة، فيما عدا تلك السنة التى قضيتها فى القرية.

لماذا لم توجد أية إجابة على برقيتى العاجلة، فى مساء الخميس، هذا ما لست أفهمه حتى الآن. ثم أرسلت برقية إلى السيدة ك. ولم أتلق ردا أيضا. ليس لك أن تخافى من أن أكتب إلى زوجك، فليست لدى بالفعل رغبة شديدة في أن أفعل ذلك. إن الرغبة الوحيدة التى تتملكنى، هى رغبتى في أن أحضر إلى ڤيينا، إلا أننى لن أفعل هذا أيضا، حتى ولو لم تكن هناك تلك العقبات، من قبيل اعتراضك على تلك الرحلة، ومصاعب جواز السفر، وعملى الرسمى، والسعال، والإرهاق، وعقد قران شقيقتى (الخميس). على أية حال سيكون من الأفضل أن أرحل، بدلا من أن أمر بمثل فترات الظهيرة تلك التى من قبيل ظهيرتى السبت والأحد. ففى ظهيرة السبت: تجولت قليلا مع عمى، وتجولت قليلا مع ماكس، وكنت أمضى إلى مقر عملى كل نحو ساعتين لأسأل عن البريد، وفي المساء كانت الأحوال أفضل، فقد مضيت لزيارة ل. ، فلم أجد لديه أخبارا سيئة منك، وذكر رسالتك التى جعلتنى سعيدا، واتصل تليفونيا بـ ك. الذى يعمل فى (الصحافة الجديدة الحرة)، فلم يكن يعلم هو أيضا أى شىء، لكنه لم يشأ أن يستفسر عنك من زوجك، وكان من المفروض أن يتصل الليلة تليفونيا مرة أخرى، وعلى هذا فقد جلست مع ل.، وسمعت اسمك يذكر عدة مرات، وكنت مدينا له لهذا بالكثير.

إنه ليس أمرا سارا، من ناحية أخرى، ولاسهلا، أن أتحدث معه، فهو كالطفل، كطفل غير بالغ التألق، فهو يتباهى، ويكذب، ويبدو أبله كالطفل، ويشعر المرء، شعورا بالغا، بالخبث، وبعدم الإخلاص، بصورة مقززة، عندما يجلس المرء هناك هادئا يستمع إليه. وخصوصا وأنه ليس طفلا فقط، ولكنه في كل ما يتعلق بالخير، والحب، والميل للمساعدة، هو شخص كريم، وشخص مسئول بصورة جادة للغاية. ليس ثمة سبيل إلى التوفيق بين هذه الأحاسيس المتناقضة، ولولا أن المرء كان يقول لنفسه طوال الوقت: «مرة أخرى، مرة أخرى فقط، أرغب في أن أسمع اسمك!» لكنت قد رحلت منذ وقت طويل. ولقد تحدث أيضا عن عقد قرانه (الثلاثاء) بنفس الطريقة.

أما يوم الأحد فقد كان أشد الأيام سوءا. كنت في البداية أنوى الذهاب إلى الجبانة، وكان هذا هو الشيء الحق الذى يصح فعله، لكنني قضيت فترة الصباح كلها في فراشي، وكان على في الظهيرة أن أذهب إلى حموى شقيقتي، حيث لم أذهب إليهما من قبل، وكانت الساعة قد بلغت السادسة، عندما عدت مرة أخرى إلى مقر عملي لأسأل إن كان ثمة برقية تنتظرني. فلم أجد شيئاً. في العمل عندئذ؟ قلت لنفسي، اذهب وألق نظرة على برنامج المسرح، ذلك أن ج. في عجلته، كان قد ذكر على نحو عارض تماما أن شتاشا ستذهب لمشاهدة أوبرا لفاجنر يوم الاثنين، وها أنا أقرأ الآن أن البرنامج يبدأ في الساعة السادسة، وفي السادسة كان موعدنا. سيىء، وما هو العمل الآن؟ أذهب وأتطلع إلى ذلك المنزل في ممر الفاكهة. إنه ساكن، لا أحد يدخله، ولا يخرج منه، وينتظر المرء برهة إلى جانب المنزل، ثم في الجانب الآخر، ولاشيء، مثل هذه البيوت، تبدو أكثر

حكمة من الناس الذين يتطلعون إليها!

والآن، في داخل مبنى لوسيرنا حيث جرت العادة على أن يقام معرض (دوبرى ديلو)[1]. فلم أجد ثمة معرض هناك. وعلى هذا فإلى شتاشا، وهي مغامرة يمكن القيام بها حيث أنها ليست في منزلها الآن بكل تأكيد. منزل هادىء جميل، وحديقة صغيرة خلفه، وفوق باب الشقة قفل، وعلى هذا ففي وسع المرء أن يرن الجرس دون خوف من العقاب، وفي أسفل الدرج جرت مناقشة قصيرة مع حارسة الباب لمجرد أن أنطق الكلمات «ليبتزج». و «ج» ذلك أنه « يا ميلينا» لم يكن هناك للأسف أدنى فرصة ، والآن ؟ الآن يقع أشد الأمور غباء على الإطلاق. لقد ذهبت إلى مقهى (أركو)[2]، حيث لم أذهب منذ سنوات طويلة، لعلني أجد أحدا يعرفك، ولحسن الحظ لم يكن هناك أحد، وكان في مقدوري أن أغادر المكان في الحال، لا تكثرى من مثل أيام الآحاد هذه، يا ميلينا!

ف

(في الهامش الأيمن) : لم أستطع بالأمس أن أكتب، كل ما في ڤيينا كان شديد التجهم أمامي.

***

(١٧) الثلاثاء، بعد ذلك بوقت قليل

كم يبدو عليك التعب البالغ من رسالتك التي وصلتني مساء السبت. كان لدى الكثير مما يمكنني أن أقوله لتلك الرسالة، لكنني لن أقول شيئا منه اليوم لتلك الفتاة المتعبة فأنا أيضا متعب، وقد أحسست بالفعل منذ مجيئي من ڤيينا للمرة الأولى برأسي المرهقة إرهاقا شديدا، رأسي المعذبة. لن أخبرك بشيء ، بل سأجلسك في

١) أتيليه الفن التطبيقي.
٢) مقهى في (هيبيرنسكا أو ليتشي)، يؤمه الكتاب والفنانون.

المقعد ذى المساند (أنت تقولين إننى لم أكن رفيقا معك إلى حد كاف، لكن هل يمكن أن يكون هناك المزيد مما أحظى به من الحب والشرف، أكثر مما تحظين به أنت منهما بجلوسك هناك، وسماحك لى بالجلوس أمامك، وبأن أكون فى صحبتك). وهكذا فأنا أجلسك الآن فى مقعدك ذى المساند، ولست أدرى كيف يمكننى أن أنال تلك السعادة بالكلمات، والعيون، والأيدى ، والقلب البائس، والسعادة بأنك هنا ، وأنك تنتمين إلى. ولعلك لست أنت من أحبها حقا، بل هو الوجود الذى وهبتنيه يداك.

عن ل. لن أذكر شيئا اليوم، ولن أذكر شيئا عن الفتاة، سوف يأخذ هذا كله مجراه على نحو ما - كم يبدو هذا كله بعيدا.

ف

كل ما تقولينه عن «عازف الكمان البائس» صحيح. وعندما قلت أنها لا تعنى شيئا بالنسبة لى، قلته فقط بدافع الحذر، ذلك أننى لم أكن متأكدا كيف سيمكنك أن تمضى بها إلى نهايتها، وأيضا لأننى كنت خجلا من القصة، وكأننى قد كتبتها بنفسى، لقد بدأت بالفعل بداية خاطئة، إن بها عددا من الملاحظات الغريبة، الهابطة- الخاطئة وبها فقرات متكلفة تجعل المرء يحمر خجلا(يلاحظ المرء ذلك خاصة عندما يقرأها بصوت عال، يمكننى أن أشير لك إلى تلك الفقرات)، وهذا النوع من التمرين الموسيقى، هو حقا اختراع غريب بائس، يكفى لكى يستفز الفتاة حتى تلقى - فى غضب زائد، سوف يشاركها فيه العالم كله، وأنا قبل الجميع - نحو تلك القصة، بكل شيء تصل إليه يداها فى حانوتها، حتى تتلاشى تلك القصة التى لاتستحق شيئا أكثر من ذلك، وتتحلل إلى عناصرها الأولى. ويجب الاعتراف كذلك، بأنه ليس هناك مصير لقصة أجمل من أن تختفى

هذه القصة، وأن تختفي على هذا النحو. إن القاص أيضا، هذا المحلل النفسي، غريب الأطوار، سوف يوافق في أعماقه على ذلك، فلعله أن يكون هو ذلك العازف الحقيقي البائس، الذي عزف هذه القصة، بغاية ما أمكنه من النشاز، فنال على ذلك ثناء مبالغا فيه، بالدموع التي ندت عنها عيناك.

***

الأربعاء

لقد كتبت تقولين : – نعم ، أنت على حق، إنني أحبه، لكنني أحبك أيضا يا فرانتس، إنني أقرأ هذه الجملة بغاية العناية، كل كلمة- خاصة تلك الـ «أيضا»، وأتوقف قليلا. كل شيء على ما يرام، إنك لن تكوني ميلينا حقا، إن لم يكن كل شيء على ما يرام، وأي وجود سيكون وجودي، لو لم توجدي، كما أنه من الأفضل أيضا أنك قد كتبت هذه الرسالة من فيينا ، ولم تكتبيها من براغ. كل هذا أفهمه حق الفهم، وربما كنت أفهمه أكثر مما تفهمينه أنت، وإن كنت لشيء من الضعف، لم أستطع أن أحس بشيء من الألفة مع هذه الجملة، إن قراءتهالا تكاد تنتهي، و إنني أكتبها لك مرة أخرى أيضا، حتى يتاح لك أن تتطلعي عليها، ونتمكن من قراءتها معا، بينما يتلامس خدانا (شعرك يلامس خدي)

كنت قد كتبت هذا عندما وصلتني كل من رسالتيك المكتوبتين بالقلم الرصاص ، هل تتخيلين أنني لم أكن أعرف أنهما ستصلان؟ كنت في أعماقي أعرف هذا حقا ، غير أن المرء لايعيش دائما هناك، ويفضل بدلا من ذلك أن يعيش فوق الأرض، كأشد المخلوقات بؤسا. لست أدري لماذا تخشين من أن أفعل شيئا بمفردي، ألم أكتب لك بوضوح كاف في هذا الشأن؟ و أنني بعد كل شيء قد أبرقت فقط

للسيدة ك، و لأننى كنت على الأغلب طوال أيام ثلاثة تعسة، بلا أخبار، ولارد على برقيتي، وكنت مدفوعا على الأغلب إلى أن أعتقد بأنك كنت مريضة.

ذهبت بالأمس لزيارة طبيبي، فوجدني على نفس حالتي التى كنت عليها قبل ذهابى إلى ميران، إن الشهور الثلاثة قد مرت بالرئة دون أن تترك أثرا، على الأغلب. يوجد المرض فى أعلى الرئة اليسرى نشطا كما كان من قبل . وقد اعتبر الطبيب هذه النتيجة، فشلا، ورأى أننى فى حالة حسنة، ذلك أننى كان من الممكن أن أكون فى حال أسوأ، لو أننى كنت قد قضيت المدة نفسها فى براغ! وهو يظن أن وزنى لم يزدد مطلقا، وأيا كان الأمر، فقد ازددت، وفقا لحساباتي، نحو ثلاثة كيلو جرامات. وسوف يقوم الطبيب فى الخريف بتجربة بعض الحقن، وإن كنت لا أظن أننى سأحتمل ذلك. عندما أقارن هذه النتيجة بالصورة التى بدت بها صحتك أنت أيضا – ذلك أننى لا أكاد أجدنى بحاجة إلى أن أضيف ذلك، لأسباب ضرورية جدا، بالطبع – يبدو لى أحيانا، عندئذ، أننا سنتمكن بدلا من الحياة معا، أن نستلقى فحسب في رضا، أحدنا بجانب الآخر لكى نستقبل الموت. لكن مهما يحدث من أمر، فسيكون ذلك إلى جوارك.

أعرف – فى الحقيقة، خلافا لما يراه الطبيب أننى لكى أشفى إلى حد ما، فإننى أحتاج فقط إلى الهدوء، وإن يكن نوعا خاصا من الهدوء،أو، لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، لبدا لى أن ما أحتاجه هو نوع خاص من القلق.

إن اليوم ، هو يوم عيد فرنسى قومى، وفى الشارع تحتى، قوات

راجعة من الاستعراض[1]، إن لها– وأحس بهذا وأنا أتنسم نفحات رسائلك – شيء ما يوحي بالعظمة، ليس هو الأبهة، ولا الموسيقى ولا الخطوات العسكرية، ولا المظهر التقليدي الذي يتخذه الرجل الفرنسي، وأنه قد خرج لتوه من قالب (شمع ألماني)، في سراويله الحمراء، ومعطفه الأزرق، وهو يتقدم فرقته، لكن ثمة مظهراً للقوة، ينادي من الأعماق: «ومع ذلك، أيتها المخلوقات الخرساء ، المتحركة السائرة التي توحي بالثقة إلى درجة العبودية مع ذلك لن نتخلى عنك مهما اشتدت حماقتك، بل إننا لن نتخلى عنك بسبب حماقتك قبل أي شيء آخر» ويحدق المرء بعينين مغلقتين في تلك الأعماق، على حين يكون غارقا فيك.

لقد أحضروا لي أخيرا كومة الملفات التي ظلت تتراكم في انتظاري. تصوري، لقد كتبت منذ عودتي إلى مكتبي ست رسائل عمل بالضبط، ولقد صبروا على ذلك. ومما يرضيني رضا بالغا، أنني لم أتمكن من أن أبدأ كل ذلك العمل الذي ينتظرني حتى اليوم بسبب الكسل الذي انتشر في المؤسسة حتى تراكم كل ذلك العبء في انتظاري . لكن ها هو العمل أمامي الآن. لاشيء من هذه المسائل، رغم انشغالي بها، قد حرمني من أن أنال قسطا كافيا من النوم. اليوم ، مع ذلك، ما يزال الأمر سيئا إلى حد ما.

ف

***

الخميس

سأكتب سطرا آخر قبل الذهاب إلى عملي، فلم أكن أقصد إلى نكره. ذلك أنه كان يمسك بخناقي طوال ثلاثة أيام، لم أقصد أن

١) كان يحتفل بيوم ١٤ يوليو أيضاً في براغ.

أذكره لك الآن على الأقل، بينما تخوضين أنت هذه المعركة الرهيبة هناك. لقد تعمدت أن أبقى صامتا، غير أن هذا بدا مستحيلا، إنه جزء منها، وهى على أية حال معركتى، ولعلك قد لاحظت أننى لم أتذوق طعما للنوم لليالى عديدة. إنه «الخوف» ببساطة، إن ذلك حقيقة أمر يجردنى من إرادتى ، ويطوح بى هنا وهناك كما يحلو له. لم أعد أستطيع التمييز بين الأعلى والأسفل ولا بين اليسار واليمين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن رسائلك الأخيرة تتضمن ملاحظتين أو ثلاثاً أسعدتنى، وإن كنت سعيدا فقط بصورة يائسة، ذلك أن ما ذكرته أنت فى هذا الصدد قد أقنع العقل فى الحال، والقلب، والجسد، وإن كان هناك ثمة مكان أبلغ عمقا، لست أدرى مكانه، لايمكنه فيما يبدو أن يقتنع بأى شىء . كما أن ما يساعد، أخيرا، على إضعافى هو ذلك الأثر المهدىء، ذلك التأثير المقلق العجيب الذى يبعثه فى قربك الجسدى الذى يتلاشى بمرور الأيام. فلو أنك فقط كنت هنا إلى جانبى بالفعل! لكن لما لم يكن شىء من هذا، فإننى وحدى هنا الآن، لا أحد معى سوى الخوف، وحيدين نتخبط معا خلال الليالى، ثمة ما هو هام للغاية، فى الحقيقة، فى أمر هذا الخوف (الذى يبدو وكأنه قد اعتاد دائما أن ينزع نحو المستقبل فحسب. لا، ليس هذا صحيحا)، شىء يمكن تفسيره، بمعنى ما، بتلك الحقيقة التى يشير لى إليها باستمرار، وهى ضرورة التسليم التام: إن ميلينا، هى أيضا، مجرد كائن بشرى. إن ما تقولينه فى هذا المجال، هو فى الحقيقة قول بالغ الجمال، وصادق حتى أن المرء يود لو لم يسمع شيئا آخر سواه مطلقا، بعد أن استمع إليه، غير أن تصريحك بأن ما يحدث هنا ليست له أهمية بالغة، هو تصريح ما يزال موضع

خلاف شديد. ليس هذا الخوف، مع ذلك، هو خوفي كله – إنه مجرد جانب منه فقط، ومما يؤسف له أنه حقا كذلك – وإن يكن أيضا هو الخوف الذي يلازم كل أشكال الإيمان منذ بدء الخليقة.

إن استمراري في الكتابة لك عن هذا، يبعث البرودة في رأسي بالفعل.

***

الخميس، بعد قليل

وصلتني رسالة الليل و– «الديك الأبيض»[1]، ورسالة الاثنين، والرسالة الأولى هي رسالتك الأخيرة فيما يبدو، وإن لم يتأكد لي ذلك تماما. لقد قرأتهما فقط قراءة أولى مسرعة. ويجب علي أن أبعث إليك بالرد في الحال، وأن أسألك ألا تسيئي الظن بي. ليست هي الغيرة، إن الأمر لايخرج عن أن أفكاري تتواثب حولك، لأنني أردت أن أمسك بك من كل الجوانب، ومنها جانب الغيرة أيضا، وإن كان ذلك أمرا سخيفا، لن يحدث مرة أخرى، فمرجع ذلك فقط إلى الأحلام المرضية التي تسببها الوحدة. وتساورك أيضا الأفكار الخاطئة عن ماكس، بالأمس أبلغته أيضا على الرغم مني تحياتك إليه (انظري إلى ما سبق!) ذلك أنه كان يتلقى تحياتك باستمرار. ولما كانت لديه التفسيرات لكل شيء، فقد قال إنك ربما كنت ترسلين إليه بتحياتك المتصلة، فقط لأنني لم أبلغك من قبل بتحياته الحارة لك. وكان علي لهذا أن أبلغك أخيرا بتحياته، على حين، أؤكد لك هذا مرة أخرى، قد أعود إلى إهمال هذا الواجب، على أنني سأحاول أداء هذا الواجب ما أمكنني.

١) «الديك الأبيض» هو مطعم في فيينا، كانت ميلينا تتناول فيه وجباتها من حين لآخر.

أما في غير ما يتعلق بهذا، فلا تقلقي على بحال من الأحوال، فسوف يكون قلقك علي هو القشة الأخيرة. فلو لم يكن ذلك «الخوف» الذى ظل يمسك بخناقى لعدة أيام، والذى شكوت لك منه هذا الصباح، لكنت على الأغلب، على غاية ما يرام. بالمناسبة، ماذا كان السبب، في قولك، عندما كنا معا فى الغابة، إنك أيضا، لم تكونى قد تصورت الأمر على نحو يخالف ذلك؟ كان ذلك هناك فى الغابة، فى اليوم التالى. إننى أرتب الأيام فى وضوح - كان اليوم الأول هو الشك، وكان الثانى هو الثقة البالغة، والثالث كان الشعور بوخز الضمير، وكان اليوم الرابع هو أجمل تلك الأيام الأربعة.

على الآن أن أذهب لحضور حفل عقد قران شقيقتى . - لماذا، بالمناسبة، أكون كائنا بشريا فى الوقت الذى أتحمل فيه كل عذابات هذا الوضع بالغ الاضطراب، الذى يرزح تحت هذه المسئولية المرهقة؟ لماذا لا أكون ، مثلا، ذلك الدولاب السعيد في حجرتك، ذلك الدولاب الذى يتطلع إليك مباشرة عندما تجلسين فى المقعد ذى المساند، أو عندما تجلسين إلى مكتبك، أو عندما تستلقين، أو تأوين إلى النوم (نوما هنيئا)، لماذا لا أكون أنا ذلك الدولاب؟ ذلك لأننى سأنهار تحت وطأة الأسى، لو أننى اطلعت على آلامك، فى خلال تلك الأيام الأخيرة الماضية، وربما حدث لى ما هو أكثر من ذلك - هل تغادرين فيينا .

ف

إن شعورى بأنك ستحصلين قريبا على جواز سفر، يعزينى كثيرا .

***

الخميس

وضعت بعد الظهر، زهرة ريحان، في عروة سترتي، وكنت في حالة عادية تقريبا على الرغم من رأسي المرهق (الفراق، الفراق!) أحسست بالألفة، خلال وليمة العرس، وسط شقيقات زوج أختي الطيبات. ولقد تحطمت، مع ذلك ، الآن.

أية حياة سهلة تلك الحياة التي سنمضيها معا - تصوري الكتابة عن حياتنا هذه معا، إنني لست سوى شخص أحمق! - سؤال وجواب، وأحدنا في مواجهة الآخر. والآن علي أن أنتظر على الأقل حتي يوم الاثنين حتي يصلني ردك على رسالتي التي كتبتها لك صباح اليوم.

حاولي أن تفهميني، واحتفظي بي في قلبك.

ف

الاثنين

لقد أسأت فهم عدة أمور ، يا ميلينا:

أولا: أنا لست مريضا إلى هذا الحد ، وعندما استطعت أن أنام قليلا، أحسست بتحسن لم أحسه في ميران. إن أمراض الرئة هي عادة، أحب الأمراض جميعا. وخاصة في صيف دافيء. كيف سيتسنى لي أن أقاوم الخريف القادم، هذا سؤال آخر أيضا. لدي في هذه اللحظة بضع شكاوى قليلة بسيطة منها، مثلا، أنني لا أستطيع القيام بأي عمل رسمي في المكتب. وعندما لا أكون جالسا للكتابة إليك، فإنني أستلقي في مقعدي ذي المساند، وأحدق من خلال النافذة. وتتاح لي الرؤية الواضحة،لأن المنزل الذي يواجهني يتكون من طابق واحد فحسب . لايمكنني أن أزعم بأنني أحس انقباضا

خاصا عندما أتطلع من خلال النافذة على هذا النحو - لا، لست أشعر بشيء من هذا مطلقا، إن ما أشعر به هو أنني لا أستطيع أن أخلص نفسي من مواصلة التطلع عبر النافذة على هذا النحو.

ثانيا : إنني لست في حاجة مطلقا إلى النقود، إن لدى منها ما يزيد عن حاجتي، بعض هذه النقود- النقود المخصصة لإجازتك مثلا - تضايقني فعلا، بوجودها معي.

ثالثا: إنك تسهمين مرة أخرى مساهمة فعالة في شفائي، وأنت تواصلين الإسهام بذلك كل لحظة، في رعايتك لي بأفكارك.

* (في الهامش الأيسر): عليك بعد هذا، أن ترتاحي مطمئنة، كاطمئناني. سأبقى منتظرا في آخر يوم، كما انتظرت في اليوم الأول.

رابعا : إن كل ما قلته أنت في شيء من الشك عن رحلة براغ، كان حقا بالفعل. كان «حقا» كذلك ما أبرقت لك به، على الرغم من أن ذلك كان يدور حول حديثك إلى زوجك، وأن ذلك كان بالفعل هو الشيء الوحيد الذي كان «يحق» لي أن أفعله. اليوم ، في الصباح الباكر، مثلا، انتابني «الخوف» فجأة، «الخوف» بدافع الحب. انتابني «الخوف» البالغ من أن تحضري فجأة إلى براغ، يدفعك إلى ذلك وهم طارىء . لكن هل يمكن حقا لوهم أن يدفعك أنت يا من تعيشين حياتك بهذا العنف، إلى أن تحسمي أمرا، أنت يا من يدفعك العنف الذي تعيشين به حياتك إلى أعمق أعماق هذه الحياة؟ إن وهما لم يكن ليضلك حتى في أيام فيينا. فهل لم يكن لنا حتى عندما كنا هناك، أن نعزو أموراً كثيرة إلى أملك اللاشعوري في رؤيته[1] ثانية في المساء؟ ليس لدى المزيد مما يمكنني أن أقوله في هذا الشأن. أو

١) عن الزوج.

أن لدى هذا فحسب : حقيقتان جديدتان علمت بهما أخيرا من رسالتك: أولهما خطة هيدلبرج، و الأخرى، خطة باريس، وفكرة البنك[١]. يتبين لى من الأولى أننى أنتمى في نهاية الأمر إلى صفوف «المنقذين» و «المغتصبين» وإن كنت من ناحية أخرى لا أنتمى إلى صفوف هؤلاء. ويتبين لى من الأخرى أن هناك أيضا، على الرغم من كل شىء، حياة مدخرة للمستقبل - خططا، واحتمالات، وآمالا، وآمالك أيضا.

خامسا : جانب من تعذيبك البالغ لنفسك- وهو العذاب الوحيد الذى انعكس على - لمسته من كتابتك إلى كل يوم. قللى من كتاباتك إلى، وسوف أواصل كتابة بضعة سطور كل يوم لك، لو شئت. وسوف يتحقق لك أيضا مزيد من الهدوء اللازم للعمل الذى يوفر لك المتعة.

أشكرك على رواية (دوناديو)[٢] (هل يمكنني أن أرسل إليك بعض الكتب؟) لعلنى لن أتمكن من قراءتها الآن، وهذه أيضا شكوى صغيرة أخرى: لا أستطيع القراءة، وإن كان هذا من ناحية، لايضايقنى بصفة خاصة، إن القراءة مستحيلة بالنسبة لى وحسب. ثمة مخطوط ضخم كتبه ماكس بعنوان (اليهودية، والمسيحية، والوثنية - كتاب رائع) على أن أقرأه، وهو يلح على بالفعل لكى أقرأه، إلا أننى لم أكد أشرع فى قراءته، حتى جاءنى اليوم شاعر شاب بخمس وسبعين قصيدة، بعضها يستغرق صفحات عديدة، ولن أشك فى أننى سأجعل منه عدوا لى مرة أخرى ، كما اتفق لى أن أثرت عداوته لى مرة من قبل.

١) خطة الزوج ، فقد كان موظفا فى أحد البنوك، لكنه لم يكن راضيا عن عمله فيه.
٢) (مارى دوناديو) رواية لتشارلس - لويس فيليب.

إنني أضمن رسالتي هذه رد الفتاة ، الذي يمكنك على ضوئه أن تعيدي بناء رسالتي من جديد، وعلى هذا يمكنك أن تتبيني إلى أي حد قد خُذلت – وليس معنى هذا أنه لم تكن لدي البصيرة بذلك. إنني لا أقدم بعد مزيدا من الردود.

لم يكن ظهر الأمس أفضل كثيرا عن ظهر يوم الأحد الماضي، لقد بدأ الأمر بالفعل بداية طيبة للغاية وعندما غادرت المنزل لكي أذهب إلى الجبانة، كانت درجة الحرارة قد بلغت ٣٦° في الظل، وكان عمال الترام قد قاموا بإضراب، وإن كنت قد ارتحت لهذا بصفة خاصة لأنني كنت أنوي السير على الأغلب، كما سبق أن قطعت الطريق سيرا على قدمي يوم السبت ذاك إلى الحديقة الصغيرة التي بجوار البورصة. لكنني عندما بلغت الجبانة لم أتمكن من العثور على المقبرة، وكان مكتب الاستعلامات قد أغلق أبوابه، فلم أجد موظفا واحدا، ولا عثرت على امرأة تعرف أي شيء. فلجأت إلى كتاب، غير أنه لم يكن الكتاب المطلوب، وعلى هذا أنفقت بضع ساعات متجولا في أرجاء الجبانة وأخذتني الحيرة من طول قراءتي للنقوش التي فوق شواهد القبور، ثم غادرت الجبانة، والحيرة ما تزال تسيطر علي.

ف

***

الثلاثاء

أمامي الآن البرقيتان اللتان بعثت بهما إلي. إلا أن ما هو أهم من ذلك هو أنني أخيرا، بعد ليلة قضيت أغلبها ساهرا، أجلس أمام تلك الرسالة التي أرى لها أهمية بالغة بالنسبة لي. لم يكن لي أن أكتب لك رسالة واحدة من تلك الرسائل التي كتبتها لك من براغ، أو أنه لم يكن لي على الأقل أن أكتب رسائلي تلك التي كتبتها لك أخيرا

بصفة خاصة. هذه الرسالة هي فقط الرسالة الوحيدة التي كانت يجب علي أن أكتبها لك، أو أنه كان ينبغي لي أن أكتب إليك، ما كتبته من رسائل، فلن يغير هذا من الأمر شيئا. غير أن هذه الرسالة ستظل على رأس تلك الرسائل جميعا ولن أتمكن لسوء الحظ من أن أقول لك أقل جانب مما قلته لك بالأمس، أو ما قلته لك في أثناء الليل أو في هذا الصباح، ومع ذلك، فإن الأمر الرئيسي هو: أيا كان ما قد يقوله عنك الآخرون الذين يلتفون حولك في حلقة واسعة في وحشية مهما اتسم قولهم بالحكمة الرفيعة، (وإن كانت الوحوش لاتتخذ هذا المظهر)، وفي إلحاح، وفي تعاطف شيطاني، ومحبة مدمرة – فإنني أعرف، يا ميلينا، أعرف، حتى آخر قطرة من دمي، أنك مهما تفعلين،فإن ما تفعلينه لن يكون سوى الصواب، سواء بقيت في ڤيينا أو قدمت إلى هنا، أو ظللت تحلقين بين براغ و ڤيينا، أو تفعلين الآن ذلك، وذاك بعد حين. ماذا يمكنني، في النهاية، أن أفعل معك إذا لم أعرف ذلك؟ إن الحال معك، كما هو الحال مع البحر العميق، فلا توجد أقل بقعة في أعماقه لايقع عليها دائما نفس الضغط الرهيب و هذا هو حالك، غير أن أية حياة أخرى هي عار، ينتابني السقم عندما تمر بخاطري؛ حتى ظننت أخيرا أنني لن أستطيع أن أحتمل الحياة، أو أطيق الناس، وكنت أشعر بالخجل البالغ من ذلك، لكنك تؤكدين لي الآن أنها لم تكن الحياة، تلك التي بدت لي غير محتملة

لك

(في الهامش الأيسر) : إنني في غاية الامتنان لخطة شيكاغو، على شرط أن يكون ثمة مكان هناك أيضا للصبية الذين يعهد إليهم بأداء الخدمات التي لايستطيعون القيام بها.

***

بعد الظهر

لقد نجحت في الانصراف عن هذه الرسالة في أثناء الوقت الذي قضيته في مقر عملي، إلا أن العناء الذي تكبدته في محاولة انصرافي عنها لم يكن يسيرا. ففي هذه المحاولة كنت قد استهلكت تقريبا طاقتي كلها، فلم يتبق لدي منها شيء أبذله في العمل.

عن رسالتك إلى شتاشا: جاء ج. صباح الأمس لزيارتي، وقال إن رسالة منك قد وصلت، وأنه قد رآها موضوعة فوق المائدة عندما غادر منزله في وقت مبكر من الصباح، إلا أنه لم يعرف بعد ما الذي تتضمنه، وأن شتاشا ستخبرني بذلك في المساء. لقد أحسست بشيء من عدم الراحة أمام صداقته، على حين كنت أفكر في كل الأشياء، التي كنت السبب فيها على نحوما، والتي قد تكون واردة في رسالتك، وقد اتضح في المساء، مع ذلك أنها كانت رسالة ودودة، وأنها قد بعثت فيهما الرضا، على الأقل إلى الحد الذي كانت توحي به لهجتها الودودة (إنني لم أطلع على الرسالة)، وفوق هذا كان ثمة كلمة شكر للزوج، لعلها قد ذكرت أمامي فقط من باب العلم، ولقد أسعدت هذه الكلمة شتاشا حقا، وتألقت لها عيناها إلى حد أكثر قليلا من المعتاد. وعلى أية حال، ينبغي لي أن أقول إنهما شخصان رقيقان، وأن شتاشا بدت غاية في الجمال للحظة، عندما راحت تتأمل صورتك الفتوغرافية، لِلَحْظَة بدت فيها طويلة بصورة غير معقولة وكان يسيطر عليها الانتباه كذلك، والصمت، والجدية. ربما ذكرت لك المزيد عن هذه الأمسية في وقت آخر، لقد كنت متعبا، خاويا ضجرا، مستسلما للهزيمة، فاتر الهمة، وكنت منذ البداية لا أرغب في شيء قدر رغبتي في الذهاب إلى الفراش (لقد طلبا مني أن أرسل إليك القصاصة

المرفقة، وهو رسم رسمته شتاشا، بصحبة تفسير كتبه ج - كنا نتحدث عن وضع الحجرات في شقتك).

نصحتك بالأمس بعدم الكتابة إلي يوميا، وما يزال هذا هو ما أراه اليوم وسوف يكون هذا خيرا لكلينا، ومرة أخرى أعود إلى هذا الاقتراح اليوم، وفوق ذلك فإنني أطلبه بمزيد من الإلحاح - فقط، أرجوك يا ميلينا ألاّ تلتزمي بهذا الاقتراح، بل اكتبي إلي يوميا، على الرغم من ذلك، قد تكتبين في اختصار شديد، رسائل أقصر من الرسائل التي ترسلينها إلي الآن، سطرين فقط، أو سطر واحد، المهم هو أن حرماني من هذا السطر الواحد، سيكون معناه عذابي الرهيب.

ف

***

الأربعاء

يستطيع المرء أن يحصل على نتائج خاصة، في نهاية الأمر، لو أن المرء توفرت له فقط الشجاعة اللازمة لذلك :

أولا : لعل جروس[١] ليس مخطئا إلى هذا الحد، بقدر ما أفهمه، فقد بلغه على الأقل إنني ما زلت على قيد الحياة، على الرغم من أنني، تبعا للتوزيع الخاص الذي توزعت عليه قواي الداخلية. كان ينبغي لي أن أكون قد مت بالفعل منذ وقت طويل .

ثانيا : كيف ستتطور الأمور فيما بعد ، ليست هي المشكلة، كل ما يمكنني أن أقول إنني متأكد منه هو أنني بعيدا عنك لا يمكنني أن أحيا إلا بالاستسلام للخوف، والاستسلام له أكثر مما يلزم، وهذا

١) أوتوجروس : محلل نفسي، وفيلسوف، كان يعيش في فيينا في ذلك الحين.

ما أفعله عن طيب خاطر، بكل الفرح أصب نفسي في الخوف.

إنك على حق في لومك لي باسم الخوف، على سلوكي في ڤيينا، غير أن الخوف في هذا المقام هو أمر غامض حقا، لا أعرف قوانينه الخاصة، كل ما أعرفه هو قبضته وهي تضغط على حنجرتي وهذه هي حقا أشد الأمور التي مرت بي أو يمكن أن تمر بي إزعاجا.

ربما نتج ذلك عن أننا متزوجان كلانا، أنت في ڤيينا، وأنا متزوج هنا في براغ من خوفي، وأنك لست وحدك فقط الموثوقة بزواجك في غير طائل، بل إنني موثوق إليه أنا أيضا في غير طائل. ذلك أنك لست أنك يا ميلينا، لو أنك كنت مقتنعه بي تماما في ڤيينا (وحتى لو أنك كنت توافقينني على تلك الخطوة التي ترتابين في حكمتها)، فإنك حينئذ لن تكوني موجودة بعد في ڤيينا على الرغم من كل شيء، أو أنه لن يكون هناك بالأحرى معنى لكلمة «على الرغم من كل شيء». ذلك أنك ببساطة ستكونين في براغ، وسيكون كل ما تعزين به نفسك في رسالتك الأخيرة، هو في نهاية الأمر مجرد عزاء، ألا تظنين هذا ؟

فلو حدث أن حضرت إلى براغ في الحال، أو لو قررت على الأقل أن تحضري إليها في الحال، فلن يكون هذا بالفعل برهانا لك، فلست في حاجة إلى براهين لك، فأنت أبعد وضوحا ويقينا بالنسبة لي، بل سيكون ذلك برهانا كبيرا لي من كل شيء آخر، وهذا ما أفتقده الآن. على مثل هذا الخاطر يتغذى الخوف أيضا، من وقت لآخر. وربما كان الأمر، في الواقع. أسوأ من هذا، كأن أكون أنا (المنقذ)، أكبلك في ڤيينا على نحو لم يفعله سواي من قبل.

(إذن فقد كانت تلك هي العاصفة التي كانت تهددنا طوال الوقت، عندما كنا في الغابة في ذلك اليوم، غير أننا كنا سعيدين مع ذلك،

فلنواصل حياتنا إذن تحت تهديدها، طالما أنه لا يوجد أمامنا مفر آخر.

لست أدرى ما الذي تأخذينه على رسالة الفتاة. إن هدفها، ولأحاولَ أن أدفعك قليلا إلى الغيرة، قد تحقق فى نهاية الأمر. فماذا إذن ؟

فى المستقبل، سوف أخترع من وقت لآخر، رسائل مثل تلك الرسالة، وأكتبها لك بنفسى، وقد أخترع لك رسائل أفضل من تلك الرسالة، لكنها لاتتضمن رفضا قاطعا.

أرجوك أن تكتبى لى بضع كلمات عن عملك ! كستا؟ ليبا؟ كمن؟ بوليتيكا[1]؟ ثمة شيء آخر أردت أن أقوله، لكن شاعرا ناشئا كان هنا مدة أخرى ،لست أدرى لماذا إن يحضر إلى شخص ما حتى أتذكر مستنداتى، ولا أستطيع طوال الزيارة أن أفكر فى أي شيء آخر – إننى مرهق، ولا أستطيع أن أفكر فى أى شيء، وأريد فقط أن أدفن وجهى فى صدرك، وأحس بيدك، وهى تمسح على رأسى، وأن أظل هكذا إلى نهاية الأبدية.

لك

نعم، هذا هو ما أردت أن أقوله: ثمة حقيقة هائلة (بين غيرها من الحقائق) فى رسالتك : «أنك أساسا شخص ليست لديك أدنى فكرة عن تلك الأشياء التى هى من قبيل...»إن هذا حق بكل ما فيه. فلم يكن كل شيء سوى قذارة، وبغضاء وضيعة، وهبوط إلى الجحيم، وإننى لهذا أقف بالفعل أمامك وكأننى طفل قد أتى أمرا بالغ السوء، وهو يقف أخيرا أمام أمه يصيح، ويصيح ويعدها قائلا: لن أفعل هذا مرة أخرى، غير أن الخوف إنما يستمد قوته من كل هذا قائلا:

١) مجلات تشيكية وصحف كانت تصدر فى ذلك الحين.

«بالضبط بالضبط «إنه لا يدرى شيئا» ! إن شيئا لم يحدث بعد! وعلى هذا فما يزال من الممكن إنقاذه!»

أفزعني رنين التليفون! إنها مكالمة من المدير ! هذه هي المرة الأولى التي أدعى فيها منذ رجوعي إلى براغ إلى عمل رسمي. لقد انتهى الغش الآن أخيرا! إنني لم أفعل شيئا طوال ثماني عشرة يوما سوى كتابة الرسائل، وقراءة الرسائل، ثم أتطلع بعد هذا عبر النافذة وأرفع الرسائل في يدى، ثم أضعها، ثم ألتقطها مرة أخرى، وأستقبل أيضا بعض الزوار، ولا شيء غير ذلك. غير أنني عندما هبطت الدرج في طريقي إليه، وجدته ودودا، كان يبتسم، وذكر لي شيئا يتعلق بالعمل وإن كنت لم أفهمه، ثم ودعني لذهابه في إجازة - رجل رقيق على نحو لايصدق (همهمت أنا في الحقيقة قائلا في غير وضوح إنني قد فرغت تقريبا من إنجاز كل شيء وسوف أشرع في الغد، في إملائه)، وها أنا الآن أخط سريعا تقريرا بهذا كله إلى ملاكي الحارس.

***

السبت

إنك تسيئين فهمي يا ميلينا إلى حد ما: إنني أوافقك على الأغلب موافقة تامة، ولن أوضح لك هذا بالتفصيل.

لايمكنني أن أقول بعد إن كنت سأحضر إلى فيينا، أو أنني بالأحرى أظن أنني لن أحضر، فبينما كانت لدى ذات مرة أسباب عديدة تمنعني من الحضور، فإن لدى اليوم سببا واحدا فقط هو الذي سيمنعني - هو أن ذهابي قد يكون فوق طاقتي الروحية على الاحتمال، وعلى هذا يكون من الأفضل لنا جميعا، وربما كان هذا

سببا آخر يترتب على ما سبقه، أن نبقى على ما نحن عليه، لكن يجب على أن أضيف قائلا بأن بقاءنا على هذه الحال سيكون بقدر الإمكان

– لا، إن الأمر سيكون فوق طاقة احتمالى لو أنك حضرت إلى ڤيينا الآن على الرغم من الظروف التى أوضحتها بنفسك، « حتى يكون هناك من ينتظرك» .

لست أشعر بحاجة ماسة إلى أن أعرف ما أردت أن تخبرني به عن الشهور الستة. إننى مقتنع بأنه أمر مزعج ، وإننى مقتنع أيضا بأنك قد جربت أو حتى أتيت أموراً مزعجة، ومقتنع بأننى كشريك لك في هذا لم أكن لأحتمل ذلك (على الرغم من أنه كان يمكننى أن أحتمل كل شيء تقريبا، حتى منذ سبع سنوات)، وإننى مقتنع أيضا بأننى لن يمكننى أن أحتمل ذلك حتى في المستقبل باعتبارى شريكا

– حسنا، لكن ما هي أهمية هذا كله؟ فهل ما يهمنى هو أعمالك وتجاربك أو أن ما يهمنى بالأحرى ليس هو شخصك أنت؟ لكننى أعرفك معرفة تفوق كثيرا معرفتي لنفسى بصرف النظر حتى عن التقرير، الذى لا أقصد من خلاله أن أقول إننى لست معتاداً على الحال التي تبدو عليها يداى. إن رسالتك لاتعارض اقتراحي، بل هي على العكس من ذلك، لأنك تقولين: «إن أفضل ما يروق لي هو أن أجد طريقا ثالثا لخلاصى، طريقا لايؤدى إليك، ولا يلزمنى بالسير إلى جانبه، طريقا ينتهى بى على نحو ما إلى الوحدة». إنه اقتراحى أنا ولعلك قد كتبته فى نفس اليوم الذى كتبته فيه إليك.

لاشك فى أنه لن يمكنك، لو كان المرض قد بلغ هذه المرحلة أن تتركى زوجك ولو مؤقتا وإن كان ذلك في نهاية الأمر، كما قلت أنت ليس مرضا بلا نهاية، لقد تحدثت عن بضعة شهور، انقضى منها

الآن بالفعل ما يزيد عن الشهر، لكنه قد يصبح في غنى عنك بعد شهر آخر لبعض الوقت، حينئذ سنكون في شهر أغسطس، أو سبتمبر على الأكثر.

أعترف بالمناسبة أن رسالتك هي من تلك الرسائل التي لا أستطيع أن أقرأها في الحال ولو أنني كنت على الرغم من ذلك قد التهمت سطورها أربع مرات المرة بعد الآخرى لما أمكنني على الأقل أن أنتهي الآن إلى رأي فيما جاء بها ومهما يكن من أمر، فإنني أعتقد أن ما كتبته الآن له نصيب من الصحة.

لك

***

الاحد

بالاشارة إلى ما كتبته إليك بالامس:

أحاول فيما يتعلق برسالتك أن أرى الموقف كله من زاوية أخرى كنت قد تجنبتها حتى الآن؛ من هذه الزاوية يبدو كل شيء غريبا:

لم يكن الأمر، أننا كنا نتقابل أنا وزوجك من أجلك، إن هذا القتال قد قام فقط في نفسك فلا كان القرار يتوقف على قتال بيني وبين زوجك ، لكان كل شيء قد تقرر منذ زمن بعيد. انني لا أبالغ في قدر زوجك على الإطلاق، بل لعلني أن أكون أقلل من قدره إلا إنني أعرف شيئا واحدا : فلو أنه أحبني فإن حبه لي سيكون شيئا من قبيل حب الثري للفقر (وهو شيء لا تخلو منه أيضا علاقتك بي). فلست حقا بالنسبة للحياة التي تعيشينها معه، سوى «الفأر» في «الدار العامرة» لا يتاح له سوى مرة واحدة فقط في العام، أن ينطلق فوق السجادة على هواه.

هذا هو النحو الذى يبدو عليه الأمر، وإنه لأمر غريب، وإن كان لا يدهشني، إن ما يدهشني وربما بدا لي أمرا لايمكن فهمه مطلقا هو حقيقة أنك أنا يا من تعيشين في هذه «الدارالكبيرة» وتنتمين إليها بكل حواسك، وتستمدين منها أقوى ما في حياتك، وتمارسين إحساسك بأنك ملكة عظيمة في إطارها - قد تجدين، مع ذلك، (وأدرك هذا على وجه اليقين)، القدرة ليس فقط على أن تحبيني، بل أكثر من هذا، على أن تكوني لي، وأن تنطلقي مسرعة فوق سجادتك أنت.

غير أن هذا مع ذلك ليس هو غاية ما يدهشني. فما يدهشني ينحصر في حقيقة أنك لو كنت قد رغبت في المجيء إلي، وأنك على هذا لوكنت قد رغبت - بعد تدبر متزنٍ للأمر - في أن تنبذي العالم بأكمله في سبيل أن تهبطي إلي، إلى تلك الأعماق التى لن يتراءى لك فيها، عندما تتطلعين إليها من مكانك الممتاز، ليس فقط القليل، بل إنها سوف تتكشف لك بالفعل عن لاشيء، وأنك لهذا الغرض - ويا للغرابة، ياللغرابة الشديدة - لن يكون عليك أن تصعدي إلى تلك الأعماق السفلى، بل سيكون عليك أن تتجاوزي ذاتك ، على نحو يفوق طاقة الإنسان العادي ، ستجاوزين نفسك بغاية القوة، حتى إنك وأنت تفعلين هذا، قد تتمزقين إلى أشلاء، وتتعثرين، وتتلاشين (وسوف يحدث لي هذا ، معك أيضا بلاشك) . كل هذا، لكي تبلغي مكانا لايتمتع بأية جاذبية، هو المكان الذى أستقر أنا فيه، في غير سعادة أو تعاسة، بلا فضل ، ولاجريرة، وإنما أستقر فيه فحسب، لأنني وجدتني قد وضعت فيه. لست أحسب نفسي في وضع يخالف في قليل أو كثير، وضع بقال، قبل الحرب، في إحدى الضواحي التي

تحيط بك، بالنظر إلى مراتب البشر (لست عارفا أيضا، حتى هذا لا أحسبنى منه فى شىء). فلو أننى كنت قد حصلت على مكانى هذا بالقتال - ولم يحدث لى أن قاتلت لبلوغه - فلن يعد هذا فضلا يحسب لى.

إن ما كتبته إلى عن الجذور، شىء بالغ الوضوح، إنه يبدو لى كذلك حقا. ذلك أن الواجب الرئيسى فى (تورناو) لم يكن سوى البحث أولا عن الأفرع، وانتزاعها. فإذا ما تم العثور فى لحظة ما على الجذر الأساسى، عندئذ يكون العمل الحقيقى قد تم إنجازه حقا، ذلك أن كل ما على المرء أن يفعله لم يكن حتى الآن سوى أن يواصل ضرب هذا الجذر بجاروف ، وأن يفرغ من تحطيمه تماما. ومايزال فى وسعى حتى الآن أن أسمع صرير تحطمه يتردد فى أسماعى. فى ذلك الوقت كان انتزاعه سهلا بالطبع ، ذلك أنها كانت شجرة يعرف المرء أنها سوف تواصل نموها مترعرعة فى تربة أخرى، على أنها لم تكن على أية حال شجرة بعد، بل كانت طفلا.

تحدثت بالأمس مرة أخرى إلى ل. وأظن أننا قد اتفقنا فى الرأى، بقدر ما سمحت له به درجة ارتباطه بالأمر. ثمة أشياء عديدة تحسب له، منها مثلا أنه كان يلم شتات نفسه على نحو ما عندما كان حديثنا يتناولك، نعم ، إن له على أية حال، قلباً طيبا. ما الذى قاله لى؟ حسنا، لقد التقيت به مرتين، وقد ذكر لى أساسا فى كلتا المرتين نفس القصة، بكثير من التفاصيل الثانوية. وموضوع قصته هى فتاة، مخطوبة لشخص ما، جاءته بقصد الزيارة، وعلى الرغم من ضيقه

البالغ بها، بقيت معه فترة تتراوح بين ثماني وعشر ساعات (فتاة فى شقته الخاصة فى الصباح، والأخرى فى مكتبه الصحفى ليلا، هذه هى طريقته فى توزيع الأضواء). أوضحت له أنها لابد أن تناله ، وأنه إن رفض ذلك فسوف تلقى بنفسها من النافذة. وقد رفض هو طلبها فى الحقيقة، وأفسح لها الطريق إلى النافذة. وبالرغم من أن أياً من الفتاتين لم تقفز من النافذة. فإن شيئا مخيفا بدلا من ذلك قد حدث، انتابت إحدى الفتاتين نوبة من الصراخ الهيستيرى، على حين أن الفتاة الأخرى – لقد نسيت الآن فى الحقيقة ماذا جرى لها ... ولست أنكر فى نهاية الأمر أن يكون هذا كله، أو حتى ما هو أسوأ منه، قد حدث بالفعل، غير أن الشيء الوحيد الذى لا يمكنني أن أفهمه هو لماذا بدا لى ذلك أمرا يبعث على الضيق.

ثمة فقرة جيدة. بالمناسبة، قد وردت فى تلك الحكايات التى تدور حول فتاته المخطوبة تلك. فوالدها يعانى منذ سنتين من داء السوداء، وتقوم هى على تمريضه. وكان لابد أن تبقى نافذة حجرة المريض مفتوحة دائما، لكن ما إن تمر بها إحدى العربات حتى يتحتم إغلاقها بسرعة للحظة، ذلك أن الأب لا يحتمل الضوضاء، وكانت الابنة هى التى تقوم بإغلاق تلك النافذة. أضاف ل . عندما نكر لى هذا قائلا: «تصور! أخصائية تاريخ الفن هذه!» (إنها بالفعل متخصصة فى تاريخ الفن)

وقد أطلعنى كذلك على صورتها الفوتوغرافية، فرأيت فيها وجها يهوديا، قد يكون جميلا، وإن بدا لى سوداويا، ذا أنف مفرطحة، وعينين متثاقلتين، ويدين طويلتين ورقيقتين، وكانت ملابسها غالية.

تسألينني عن الفتاة، ولست أعرف شيئا جديدا عنها، منذ أن

سلمتنى رسالتها إليك لم أرها حتى الآن. ولقد كنت بالفعل على موعد معها، لكن كان ذلك عندما بدأت تصلنى رسائلك الأولى التى تتناول مناقشاتك مع زوجك. لم أجد ما يدفعنى إلى الحديث إليها. ولهذا أرجأت لقائي بها، موضحا لها الأسباب الحقيقة التي دفعتنى إلى ذلك، وإن كنت قد أوضحت لها تلك الأسباب بصورة ودية كما بدا لى. ثم كتبت إليها فيما بعد رسالة أخرى، لكن اتضح لى أنها قد أساءت فهمها. فلقد تلقيت منها ردا عبارة عن رسالة تهذيبية كرسائل الأمهات (طلبت منى فيها، بين أشياء أخرى أن أخبرها بعنوان زوجك) ولقد أرسلت إليها فى الحال ردى الذى يقتضيه ذلك بالبرق حدث هذا بالفعل منذ أكثر من أسبوع، ولم يصلنى منها شىء آخر بعدئذ، وعلى هذا فلست أعرف حتى ما الذى رددت به أنت عليها، ولا ماذا كان وقعه عليها.

تقولين فى رسالتك أنك قد تحضرين إلى براغ فى الشهر القادم. وأحس على الأغلب برغبتى فى أن أقول لك : لا تحضرى.، امنحينى الفرصة كى أعيش على أمل أنك ، لو قدر لى ذات مرة أن أطلب منك أن تحضرى، عندما تمس حاجتى إليك، سوف تحضرين فى الحال، لكن من الأفضل ألا تجيئى الآن، فمجيئك الآن معناه فقط أنك سوف ترحلين ثانية.

* (فى الهامش الأيسر) أعرف ردك لكننى أرغب فى أن أراه كتابة.

فيما يتعلق بأمر المتسولة، لم يكن بلاشك ثمة ما هو حسن أو ما هو سىء ، فقد كنت ببساطة إما شاردا غاية الشرود، أو كان

يستغرقنى الانشغال بأمر ما، حتى أسلك على نحو آخر، سوى سلوكى الذى يتصل بذكريات غامضة. بين ما أذكره فى هذا الشأن، على سبيل المثال، ما يقول : «لاتعط المتسولات الكثير، فسوف تندم على ذلك فيما بعد» حصلت ذات مرة، عندما كنت صبيا صغيرا جدا، على قطعة عملة من فئة الـ (زشسرل)[1]، وأحسست برغبة شديدة فى أن أعطيها لمتسولة عجوز كانت تجلس بين الساحتين الكبيرة، والصغيرة .لكن المبلغ بدا لى ضخما، مبلغ لعل متسولة لم تتلق مثله من قبل مطلقا – لهذا أحسست بالخجل وأنا أقف أمام المتسولة لإقدامى على الإتيان بأمر كهذا لم يسمع بمثله من قبل. لكننى كنت أحس بأنه لابد لى من أن أمنحها إياه. لهذا استبدلت تلك القطعة بعشرة كرويتسرات، ومنحت المتسولة واحدا منها، ثم أسرعت، فدرت حول مبنى مجلس المدينة الهائل دورة كاملة، واخترقت البواكى القريبة من الساحة الصغيرة، وعدت من الناحية اليسرى، وكأننى محسن جديد آخر، ومنحت المتسولة قطعة أخرى من العملات الصغيرة، وانطلقت أجرى مرة أخرى، وقمت بهذه الجولة بالفعل عشر مرات (ولعلنى لم أتم دوراتى عشرا بالضبط، ذلك أن المتسولة فيما أعتقد نفد صبرها بعد ذلك واختفت). كنت ، على أية حال، قد أرهقت قواى إرهاقا شديدا، عندما كنت أوشك على إتمام مهمتى، ورغبتي في الإحسان كانت قد خبت هى أيضا، حتى وجدتنى أتجه مباشرة إلى منزلى ، ورحت أصرخ حتى أعطتنى أمى قطعة أخرى من نفس الفئة عوضا عن تلك التى فقدتها.

ترين من هذا أننى سىء الحظ مع المتسولات، لكننى مع ذلك أصرح لك بأننى على أتم الاستعداد لأن أمنح كل ثروتى الحاضرة

١) قطعة عملة تساوى ١٠ كرويتسر، فى عهد الحكم النمسوى الهنغارى.

والمقبلة. بعد إبدالها بأصغر العملات الورقية المتداولة فى ڤيينا. لمتسولة تقف على باب الأوبرا، على شرط أن تكونى أنت موجودة عندئذ. وأن أحس بقربك.

فرانتس

الثلاثاء

بين الإملاءات التى انتهيت منها أخيرا اليوم:

تسلمت رسائلك القصيرة، المرحة أو التلقائية على الأقل، كرسالتيك اللتين تسلمتهما اليوم. فى هاتين تفوح بالفعل فى الغالب (فى الغالب، فى الغالب، فى الغالب، فى الغالب) رائحة الغابة ، وريحها فى أكمامك، فيهما كذلك لمحة من ڤيينا. ما أجمل أن أكون برفقتك يا ميلينا!

أرسلت الفتاة لى اليوم رسالتك دون أدنى تعقيب، فقط خطت تحت بضعة أسطر قلائل منها بالقلم الرصاص. من الواضح أنها غير مقتنعة بها – حسنا؛ مثل كل الرسائل المغطاة بالعلامات المكتوبة بالقلم الرصاص، كان بهذه الرسالة بعض الأخطاء، وعند التطلع إليها بدا لى كم كان مستحيلا ذلك الذى طلبته منك الفتاة بتلك الرسالة، وأسألك المرة بعد المرة أن تغفرى لى، سوف أسألها أن تغفر لى فى الحقيقة، هى أيضا، ذلك أنه أيا كان النحو الذى كتبت عليه تلك الرسالة فإنه كان مقدراً له أن يؤلمها. وعندما كتبت أنت مثلا، بغاية الحرص: «لأنه لم يحدث له مطلقا لا أن كتب لى عنك، ولا تحدث عنك إلى» فلابد أن ذلك قد سبب لها أذى؛ كما يمكن أن يسبب لها عكس ذلك؛ الأذى هو أيضا. *اغفرى لى*، مرة أخرى.

لقد ساعدتنى بالمناسبة مساعدة بالغة برسالة أخرى، هى رسالتك إلى شتاشا،

***

الخميس

إنها ملاحظة بالغة السحر، تلك الملاحظة التى أبدتها شتاشا، وإن يكن فى غير استطاعة المرء أن يستنتج من تلك الملاحظة أنها كانت تختلف فى تلك الأيام عما هى عليه الآن. فلا أثر لوجودها الشخصى فى هذه الملاحظة إنها تتحدث نيابة عنك، وثمة رباط لايكاد يصدقه المرء بينها وبينك. رباط يكاد يكون مقدسا، مثلها كمثل شخص، لأنه هو نفسه لا يكاد ينعكس عليه أدنى أثر (ذلك أنه لا يجرؤ على أن يكون أكثر من مجرد وسيط) ينقل ما قد سمعه، وما ينقله بالطبع - إن هذا الشعور هام، وإليه يرجع كبرياء وروعة الأمر كله - ليس سوى ما كان مسموحا له بأن يسمعه وأن يدركه. غير أننى لا أظن أنها قد تغيرت منذ تلك الأيام؛ ويمكنها فى ظروف مماثلة أن تكتب ملاحظة كهذه الملاحظة التى كتبتها اليوم.

غريب أمر ما يتعلق بتلك القصص. ليس كونها قصصا يهودية هو ما يحزننى، ولا أنا حزين لأن الطبق إن وضع ذات مرة فوق المائدة، تعين على كل يهودى أن يتناول نصيبه من الطعام المخيف السام، ذلك الطعام المشترك القديم أيضا، والأبدى أساسا - ليس هذا هو السبب فى أن تلك القصص تحزننى. ألا تمدين لى يدك على الرغم من هذا كله، وأن تتركيها فى يدى وقتا طويلاً، طويلا؟

عثرت بالأمس على المقبرة. لو أنك بحثت عنها بخوف فإنه ليستحيل عليك على الأغلب أن تعثرى لها على أثر. إننى لم أتحقق من أنها مقبرة أقارب والدتك، كما أنه ليس فى مقدور المرء أن يقرأ النقوش على شاهدها - لقد كاد الذهب أن يتقشر تماما على الأغلب - ما لم ينحن المرء إلى أسفل فى اهتمام. ولقد أنفقت وقتا طويلا

هناك، إنها مقبرة جميلة لا تبدو أحجارها قابلة للبلى؛ وهى تفتقر من ناحية أخرى إلى الزهور افتقاراً تاماً؛ على أنه ما نفع كل تلك الزهور على المقابر - إننى لم أتمكن مطلقا من أن أفهم تلك النقوش التى على شاهدها فهماً تاماً.

لقد وضعت بعضا من القرنفل متعدد الألوان على حافة المقبرة مباشرة. ولقد أحسست بالراحة فى الجبانة على نحو لا أحسه فى المدينة؛ ودام هذا الإحساس أيضا؛ ولوقت طويل واصلت سيرى عبر المدينة كما لو كنت أسير عبر جبانة.

بينتشيك، هل كان هذا هو شقيقك الصغير؟

وهل أنت حقا على ما يرام؟ فى تلك الصورة الفوتوغرافية التى من (نويه ڤالديج) تبدين حقا مريضة؛ ربما كان ذلك مبالغا فيه؛ لكنه يبقى مع ذلك أمرا مبالغا فيه فحسب. مازلت أفتقر إلى صورة فوتوغرافية جيدة لك، ففى إحدى الصور، تبدين فتاة صغيرة متميزة، رقيقة، حسنة الملبس؛ يبدو عليها أنها سرعان ما ستغادر الدير فى خلال عام أو عامين (إن زوايا الفم فى الحقيقة؛ تبدو مرفوعة إلى حد ما، غير أن هذه هى مجرد علامة على السمو والطاعة الدينية)؛ أما الصورة الثانية فهى صورة دعائية مبالغ فيها: «هذا هو الحال الذى نعيش عليه فى ڤيينا»، بالمصادفة فى هذه الصورة الثانية تبدين مرة أخرى شديدة الشبه بصديقى الأول الغامض، سأحدثك يوما ما بشأنه.

لا، لن أحضر إلى ڤيينا؛ ظاهرياً؛ من الممكن أن يتم هذا بكذبة، بإبلاغ العمل بأننى مريض، أو أنه يمكن أن يتم خلال إجازة لمدة يومين متتابعين؛ غير أن هذه هى فقط عقباتك الظاهرية يابنى

(مناجاة ذاتية)[عبر الصفحة بميل]: لقد كتبت لك يوميا ولعلك تتسلمين الرسائل ماتزالين.

البرقية؛ شكرا؛ شكرا؛ شكرا؛ إنني أسحب كل ما أوجهه من ملام؛ ذلك أنه لم يكن ملاماً؛ وإنما هو مجرد ربت بظهر اليد، وقد كانت لتثير الحسد* لوقت طويل. كان الشاعر والفنان الحفار (في الحقيقة هو موسيقي أساساً) معي الآن للتو؛إن الفنان الحفار يتردد على دائما، واليوم أحضر لي قطعتين من الحفر على الخشب (تروتسكي والقطعة الأخرى اسمها بشارة «بشري»؛ ترين من هذا أن عالمه ليس محدوداً)؛ وحاولت لأجل خاطره؛ أن أبدو مهتما بعمله اهتماماً أكبر؛ بأن أسرعت فأقمت صلة لك بالأمر؛ وأخبرته بأنني سوف أرسلها إلى صديقة لي في ڤيينا، فكان من نتيجة ذلك غير المقصودة أن حصلت على نسختين بدلا من نسخة واحدة (سأحتفظ لك بنسختك هنا، أم هل تودين أن أرسلها في الحال؟). ثم وصلتني عندئذ برقيتك، وبينما كنت أقرأها، وأعيد قراءتها، ولا أستطيع لفرحتي وامتناني لك أن أفرغ منها، شرع هو يتحدث بلا انقطاع (على أنه في الوقت نفسه لم يكن يقصد إزعاجي بحديثه ذاك، لا؛ مطلقا، فعندما أقول إنني مشغول؛ عندما أقولها بصوت مرتفع حتى يتاح له أن يفيق إلى نفسه فإنه يصمت في الحال في منتصف جملة، ويسرع بالابتعاد، دون أن يغضب بالمرة).

أخبارك كلها بلا شك غاية في الأهمية؛ لكن التفاصيل ستظل أكثر أهمية. لكن فوق هذا كله: كيف يتسنى لك أن تتخلي عن نفسك؟ إن ذلك لمن المستحيل بالتأكيد؛ بالنسبة لي على الأقل لا يمكن لطبيب أن يقول شيئاً أكثر من هذا افتقاراً إلى المعنى. آه، إنه لأمر سيئ

بلاشك، لكن على أية حال، شكرا، شكرا.

***

السبت

لمدة حوالي نصف الساعة الآن بالفعل كنت مستغرقا في قراءة الرسالتين والبطاقة البريدية، (بصرف النظر عن المظروف - إنني ليدهشني أن مصلحة البريد بكامل هيئتها لم تحضر لكي تعتذر لك)، وتحققت الآن فقط من أنني كنت مستغرقا في الضحك طول الوقت، فهل وجد هنالك ثمة في تاريخ العالم بأكمله امبراطوراً كان أسعد حالاً مني؛ فهو يدخل حجرته، ليجد هنالك الرسائل الثلاث؛ وكل ما ينبغي عليه أن يفعله هو فحسب مجرد أن يفضها - يا للأصابع المتكاسلة! - وأن يضطجع إلى الخلف - وليس ذلك لكي يكون في وسعه أن يتأكد من أن ذلك الحظ السعيد؛ إنما يتحقق له هو. لا؛ إنني لم أضحك طوال الوقت ؛ لن أقول شيئاً عن «حمل الأمتعة» لأنني لا أصدق ذلك؛ ولو أمكنني تصديقه؛ فلا يمكنني أن أتصور ذلك، ولو أمكنني أن أتصور ذلك؛ فإنك ستكونين بالغة الجمال عندئذ - لا، لم يكن ذلك مجرد جمال فحسب؛ لقد كان ذلك تحولاً من السماء على غير توقع - كما في يوم (الأحد)؛ وإنني لأفهم (السيد) (فلعله كان قد دفع عشرين كرونينا، وانتظر أن يرد إليه ثلاثة كرونينات)[1]. على أنني مازلت لا أصدق ذلك، وحتى لو كان ذلك قد حدث؛ فإنني أقر بأنه لابد كان مزعجا بقدر ما كان رائعا. لكن بخصوص أنك لم تتناولي طعاما بالمرة، وأنك جائعة (بينما أنا أطعم هنا إلى درجة التخمة بدون أي شهية)، وأن لديك تحت عينيك دوائر

١) (في أثناء التضخم) كانت النساء تعمل (حاملات للأمتعة) في محطات فيينا.

(وأنه لا يمكن لهذه الدوائر رغم كل شئ أن تظهر بواسطة المصور الفوتوغرافى)، ذلك أنها تذهب بنصف السعادة التي تنطق بها الصورة، على الرغم من أنه مايزال يتبقى ما يكفي، وما أحب بسببه أن أقبل يدك طالما أنك لن تكوني قادرة - في حياتك مطلقا على أن تستخدميها مرة أخرى لا في الترجمة ولا في حمل الأمتعة من المحطة - هذا لا يسعنى أن أغفره - لن أغفر لك، ولا بعد مائة عام حتى؛ منذ الآن؛ وسوف أوجه لك نفس اللوم؛ بينما نكون جالسين أمام كوخنا، لا إننى لست أمزح، ثم ما هو هذا التناقض؟. إنك تصرحين بحبك لى، وتكونين (لى) بناء على هذا؛ بينما أنت تتضورين أمامى، على حين توجد النقود التى لا جدوى منها هنا؛ وهناك يوجد (الديك الأبيض) = (حيث تتناول ميلينا طعامها).

ما تقولينه عن رسالة الفتاة سوف أغفره لك فى الحال؛ ذلك لأنك تناديني (أخيرا) بالسكرتير (إننى أدعى سكرتيرا لأن كل ما أفعله هنا منذ ثلاثة أسابيع هو أمر غاية فى السرية)؛ وإلا فإنك أيضا على حق. لكن هل يكفى أن تكونى على حق؟ وفوق ذلك كله: فلست أنا محقا، أفلا تريدين على هذا أنت أيضا أن تتحملى جانبا صغيرا من خطئى - من الممكن ذلك، أعرف ذلك؛ إنها فحسب مسألة قوة إرادة - وذلك بأن ترسلى إلى تلك الرسالة اللامبالية التى أرسلتها الفتاة؛ وبأن تستخلصى منها خطئى ذلك المسطور هنالك فى كلمات هائلة وقوية؟ وبصرف النظر عن هذا فإننى أنا أيضا راغب فحسب فى ألا أستمع إلى المزيد عن هذه المراسلات التى تسببت فيها دون روية. لقد أعدت إليها رسالتك مع بضعة سطور ودية. وطالما أنه لم يصلنى أى

شئ؛ لم أستطع أن أحمل نفسي على أن أقترح لقاء ما؛ وآمل أن ينقشع كل شيء في صمت؛ وبصورة ودية.

أنت تدافعين عن رسالة شتاشا، وقد كنت أنا من يتوجب عليه أن يشكرك من أجلها. هل كنت في (تويه فالديج)؟ وأنا أيضا كنت هناك مراراً؛ من الغريب أننا لم نتقابل على أنك كنت تتسلقين، وتنطلقين في الجرى بغاية السرعة، حتى أنك ربما حدث وانزلقت أمام ناظرى كما حدث في ڤيينا؛ يا لهذه الأيام الأربعة من أيام لابد أنها كانت غريبة! معشوقة خارجة من السينما، وحمّالة أمتعة بسيطة تقف على الرصيف – وكان مقدراً لها أن تكون أياماً أربعة!

سيحصل ماكس على رسالتك اليوم. لم أقرأ منها ما يزيد عما يمكن اختلاسه منها اختلاساً.

نعم إن حظك سئ، مع (لاندراو)[١]، ومايزال حظك حسن في الألمانية؟ ما الذى جنيته منها أيتها الطفلة البائسة (ولا أقول أيتها الطفلة الصغيرة لا سمح الله!) تعذبت واضطربت بك الحال كما فعلت بك الرسائل؟ ألست على حق في ظني بأن رسائلي تسبب لك اضطراباً؟ لكن أي نفع يمكن أن يوجد فيها حتى تكون كما ينبغي أن تكون عليه الرسائل؟ إنني أكون بخير ما حصلت على رسائل، وينطبق هذا أيضاً على كل شئ آخر، أما إذا لم تصلني رسائل فإنني لن أكون بخير، كما أنني لن أكون معدوداً بين الأحياء، ولن أكون أي شئ بالمرة.

نعم؛ الحضور إلى ڤيينا!

١) (الكاتب المعروف، وأحد المشتركين في جمهورية ميونيخ الاستشارية، قتل عام ١٩١٩).

أرجوك أن ترسلي لي الترجمة، فلا يمكنني أن أجد بين يدى الكثير من نفحاتك.

***

الجمعة

أنت دائما تريدين أن تعرفي يا ميلينا؛ ما إذا كنت (أنا) أحبك، غير أن هذا السؤال هو من أصعب الأسئلة في نهاية الأمر، لا يمكن الإجابة عليه في رسالة (ولا حتى في رسالة الأحد الماضي) سأخبرك بالرد على هذا السؤال عندما نلتقي في المرة القادمة بلا شك، بشرط ألا يخونني صوتي. لكن لا يجب عليك أن تكتبي عن رحلتي إلى ڤيينا، فإنني لن أحضر، وإن كانت أية إشارة إلى هذه الرحلة أحسها وكأنها شعلة صغيرة من النيران تقربينها من جلدي العاري، إنها (مَحْرَقَة) بالفعل، لا تحترق لكنها تظل تدخِّن ما وسعها ذلك؛ بنفس قواها؛ بل بقوى زائدة في الحقيقة؛ وهذا ما لا ترغبين في حدوثه.

إنني في غاية الأسف بخصوص الزهور التي وصلتك. إن الأسف ليمنعني حتى عن توضيح أي نوع من أنواع الزهور كانت. والآن فإن تلك الزهور توجد في حجرتك. فلو أنني حقا كنت أنا الدولاب؛ لكنت جرجرت نفسي خارجاً من الحجرة إلى ضوء النهار الساطع؛ على الأقل كنت أبقى في حجرة الانتظار المقابلة حتى تذبل تلك الزهور.
لا، ليس هذا حسناً. إن هذا كله لبعيد بعداً بالغاً، وإن كان مقبض بابك قريباً أمام ناظري في مثل قرب محبرتي.
حسنا، ليكن لقد تسلمت برقيتك التي أرسلتها بالأمس، التي أرسلتها أمس الأول، لكن حتى وقتئذ لم تكن الزهور قد ذبلت بعد،

ولماذا أنت مسرورة بها إلى هذا الحد؟ فلو كانت هذه الزهور هي زهورك (المفضلة)، لكان ينبغي أن تسرك كل مثيلاتها من الزهور التي توجد على وجه الأرض، لماذا إذن تسرك فقط هذه الزهور وحدها؟

على أنه ربما كان هذا أيضا سؤالا صعبا غاية الصعوبة؛ وأنه يمكن الإجابة عليه فقط شفوياً. لكن أين أنت؟ في ڤيينا؟، وأين ذلك؟ لا، لا يمكنني أن أتخلص من الزهور - شارع كيرتنر - حسنا، إنها لقصة خرافية أو أنها حلم في يوم كأنه الليل، غير أن الزهور هي زهور حقيقية، وإنها لتملأ الفازات؛ «لاجدوى» تقولين هذا، وتضمينها إلى صدرك - والمرء ليس له حتى؛ أن يلقي بها؛ لأنها بعد كل شيء هي زهورك (المفضلة). فانتظري إذن أيتها الزهور، فسوف أحملك خارجا في اللحظة التي تغادر فيها ميلينا الحجرة، وألقي بك أيتها الزهور في الحوش.

لماذا أنت مكتئبة إلى هذا الحد؟ هل حدث شيء؟، ولم تحدثيني عنه؟ لا، ليس هذا ممكنا.

في الهامش الأيسر: ولماذا أنت حزينة؟

إنك تسألينني عن ماكس، لكنه قد رد عليك منذ وقت طويل، وإن كنت لا أعرف بماذا، غير أنه أرسل الرسالة يوم الأحد في وجودي. هل وصلتك بالمناسبة رسالتي التي أرسلتها يوم الأحد؟.

كان الأمس يوما قلقا للغاية، لم يكن قلقه معذّبا، لكنه قلق وحسب، ولعلني أن أخبرك بذلك قريباً. فوق كل شيء، لدي برقيتك في جيبي، وأن أتجول وهي في جيبي أمر يمنحني إحساساً غريباً. ثمة

رقة إنسانية خاصة لا يعلم عنها الناس شيئاً. يتمشى المرء مثلا تجاه قنطرة تشيك، وينتزع البرقية، ويقرأها (إنها جديدة دائما، وبعد أن يتشربها المرء تصبح الورقة بيضاء، ولكن ما إن يضعها المرء ثانية في جيبه حتى تصبح مكتوبة مرة أخرى. وهي في مكانها هنالك بأسرع ما يمكن)، ثم يتطلع المرء حوله ويتوقع أن يرى وجوها غاضبة، ليست حاسدة تماماً، ولكنها على الرغم من ذلك تسدد إلى نظرات تقول: «ماذا؟» أنت دون الناس جميعا قد تسلمت هذه البرقية؟ سوف نرسل تقريراً عن هذا في الحال إلى هناك!، فثمة زهور على الأقل (ملء حضن منها) سوف ترسل فوراً إلى فيينا. ونحن على أية حال مصممون على ألا نتساهل في أمر البرقية.

وبعيدا عن تلك النظرات فإن كل شئ هادئ بقدر ما تمتد أمامك الرؤية، فالصيادون بالسنانير يواصلون صيدهم، ويواصل المتطلعون تطلعهم، والأطفال يلعبون كرة القدم، ويجمع الرجل الجالس عند القنطرة الكرويتسات. وبالمراقبة عن كثب أكثر يكتشف المرء توتراً ما، ذلك أن الناس إنما يرغمون أنفسهم على أن يركزوا على ما يقومون به من أعمال حتى لا يتسنى لهم أن يشوا بشئ من أفكارهم. على أن مجرد تلك الحقيقة، حقيقة أنهم يرغمون أنفسهم على هذا النحو على الانصراف إلى ما يقومون به من أعمال؛ لهي جديرة بالحب إلى غير حد. إن ذلك الصوت الذي يتحدث بلسان حالهم كله إنما يقول: «من الصحيح أن البرقية تخصك، إننا نوافقك على هذا، إننا لا نجادل في حقك في أن تحصل عليها، إننا سنغلق أعيننا عنها؛ ويمكنك أن تحتفظ بها»، ثم قد يظن أحدهم، متى انتزعتها ثانية من جيبي بعد فترة قصيرة أن ما يسخطهم على أنني على الأقل قد بقيت هادئاً، وأنني لم أختبئ.

لا؛ إنهم ليسوا ساخطين؛ وإنما هم يبقون على حالتهم التى كانوا عليها.

(في الهامش الأيسر). ولماذا أنت حزينة؟

في المساء تحدثت ثانية إلى يهودى فلسطيني. أظن أنه من الممكن في رسالة أن أجعلك تدركين أهميته بالنسبة لى - رجل ضئيل، نحيف على الأغلب، هزيل، ملتح، أعور، غير أن تذكرى له قد كلفني نصف الليلة. سأحدثك بالمزيد عن هذا الأمر في الحال.

إذن فليس لديك جواز سفر، ولن تحصلي على واحد؟

***

الخميس

ميلينا، أيتها المجتهدة، إن حجرتك تتغير في ذاكرتي، المكتب، ويبدو على كل شئ أنه غير معتاد على أن يحب العمل كثيراً، لكن يوجد ثمة الكثير من العمل الآن. ويمكنني أن أشعر بذلك، وإنه ليرضيني، ولابد أن كل شئ في حجرتك يبدو دافئا على نحو رائع؛ ومنعشا ومرحاً. فقط يبقى الدولاب أخرق كما هو دائماً، وأحياناً لا يعمل القفل، ولا يسمح بالحصول على شئ من داخل الدولاب، وإنما يبقى بمجهود هائل مغلقاً، ويرفض أن يسمح بخروج الثوب الذى كنت ترتدينه يوم (الأحد). إن هذا ليس دولاباً على الإطلاق، فلو راودتك مرة أخرى فكرة أن تشرعي في تأثيث منزل؛ فإن علينا أن نلقي به خارجاً.

إنني آسف لعدة أمور قد كتبتها لك أخيراً، فلا تتخذيها ضدى. وأرجوك ألا تعذبى نفسك طوال الوقت بفكرة أن تلك الغلطة هي غلطتك كلية؛ أو أنها حتى غلطتك بالمرة؛ إنك لا يمكنك أن تحررى

نفسك منها. إنها غلطتى أنا أكثر مما هى غلطتك، وسأحدثك عن هذه الغلطة يوماً ما.

***

الخميس بعد ذلك

لهذا، ولكى لا يكون ثمة شك يا ميلينا:

ربما لم تكن حالتى هذه حتى؛ هى أفضل الحالات الممكنة ، وربما كنت أحتمل ما أزال المزيد من السعادة، والمزيد من الأمان، والمزيد من الوفرة – وعلى الرغم من أن هذا ليس مؤكدا على الإطلاق، على الأقل فى براغ – وعلى أية حال فبالنظر إلى المعدل الذى يسير عليه الحال؛ أقول إننى أشعر بالتحسن والمرح، والحرية؛ التحسن الذى لا أستحقه بالمرة، التحسن المخيف، كما لو كانت الأحوال الحاضرة لتبقى لفترة قصيرة بدون اضطرابات هائلة للغاية، وتلقيت كلمة منك كل يوم دون أن أراك معذبة من خلالها إلى هذا الحد، وهذا وحده لعله أن يكون كافياً عندئذ لكى يؤدى بى إلى منتصف طريق العودة إلى الصحة.

والآن يا ميلينا أرجوك، لا تعذبى نفسك بعد ذلك، أما فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية فإننى لم أفهمها البتة بحال من الأحوال (أكثر ما فهمته منها هو ما يدور حول العمود النارى، تلك هى الفيزياء، أفليست كذلك فى نهاية الأمر؟) و(مقاييس العالم النسبية) هى ما لم أفهمها أيضا، ولا شك أن تلك المقاييس قد فهمتنى هى أيضا بدورها بقدر ما فهمتها (ما الذى يمكن أن تفعله مثل تلك النسب الهائلة بوجودى الذى لا يتجاوز ٥٥ كيلو جرام عارياً، إن تلك النسب قد لا

تلحظه، فهو وجود أقل مما يلزم لكى تحركه هذه النسب) وإننى لأتواجد هنا تماما كما كنت فى ڤيينا ويداك فى يدى بقدر ما تتركينهما فى يدى.

(فرانتس) خطأ، (ف) خطأ، (ك) خطأ، ولا شئ آخر، الصمت، أعماق الغابة، تبدو قصيدة (ڤيرفل) كصورة تحدق فى كل من يتطلع إليها، إنها تحدق فى أنا أيضا، وفوق كل شئ تحدق حتى فى ذلك (الشرير) الذى كتبها هو نفسه.

لم أستطع أن أفهم تماما ملاحظاتك عن العطلة، إلى أين ستذهبين.

***

الجمعة

لا، إنها لم تكن حقا بهذا السوء، وعلى أية حال كيف يتسنى للروح أن تخلص نفسها على نحو آخر، من عبء ما، إن لم يكن ذلك بواسطة خدعة صغيرة ؟، وعلاوة على ذلك؛ فإننى أعتبر كل شئ كتبته صحيحا. لقد أخطأك فهم بضعة أشياء، منها على سبيل المثال ما يتناول «العناء الوحيد» ذلك أن (عناءك الشخصى) لهو هذا «العناء الوحيد»، وليست رسائلك التى تعطينى كل صباح القوة لأن أحتمل مواجهة اليوم، ولكى أحتمل مواجهته على أحسن وجه، حتى أننى لا يسعني أن أنبذ رسالة واحدة من رسائلك تلك، (ولا رسالة واحدة من تلك الرسائل، وهذا واضح) فى يوم من الأيام.

ولست غيورا على الإطلاق، صدقيني، لكن يصعب على أن أدرك أنه (لا جدوى) من أن أكون غيوراً. إننى أنجح دائما فى ألا أكون غيوراً، لكن فقط فى أحيان أنجح فى فهم (عقم) الغيرة.

والآن في النهاية لدى شئ أقوله لماكس. هو نقدك الحقيقى القصير لكتابه العظيم، إنه بالمناسبة يسأل عنك طوال الوقت، كيف حالك، وما الذى يحدث لك - كل شئ يتعلق بك يهتم به من قلبه. غير أنه لا يكاد يوجد لدى شئ أخبره به، ولحسن الحظ أن اللغة وحدها تجعل ذلك مستحيلا. لا يسعني مجرد أن أتحدث عن أية ميلينا في ڤيينا، ثم أواصل حديثى قائلا (إنها) تعنى، وتقول، وتفعل هذا وذاك. ذلك أنك في نهاية الأمر لست (ميلينا)، كما أنك لست (هى)، إن هاتين الكلمتين هما محض هراء، وكنتيجة لذلك لا يمكننى أن أقول أى شئ.

إن هذا طبيعي للغاية حتى أننى لا آسف له. نعم، أن أتحدث عنك إلى الغرباء، لاشك أن هذا ما لا يمكننى أن أفعله، وإن يكن ذلك في الوقت نفسه يعد أحياناً متعة رائعة. فلو سمحت لنفسى أن أجعل من حديثى ذاك عنك قطعة كوميدية صغيرة، وإنها لمغرية غاية الإغراء، فإن المتعة لتكون أعظم عندئذ. لقد قابلت منذ فترة ليست بالطويلة (رودلف فوخس)[1]. إننى أحبه، غير أنه من الطبيعي ألا تكون متعة لقائه هى تلك المتعة البالغة، ولا أنا استطعت أن أضغط على يده بمثل تلك الحرارة. وعرفت في الوقت نفسه أن النتيجة لن تكون هائلة الغاية - قلت لنفسى، حسنا حتى لو كانت النتيجة بسيطة! وتطرق الحديث في الحال إلى ڤيينا، والمجتمع الذى زاره هناك، ولقد كنت مهتماً بسماعه يذكر الأسماء، ولقد بدأ يعددها؛ إننى لم أقصد أن أسمعه يعددها لا إننى لم أقصد أن أسمعه يعددهاعلى هذا النحو، لقد رغبت في سماع ما يتعلق بأسماء النساء، نعم، يوجد هناك -

١) (شاعر من براغ، ومترجم بارع للشعر التشيكى وخاصة أشعار برتمسينا وبتمسروك).

على سبيل المثال – ميلينا –، التى أظن أنك تعرفها، (نعم، ميلينا)، كررت ذلك وأطرقت إلى أسفل، إلى شارع فرديناند، لكى أنظر ما الذى يمكن أن تقوله (هى) لذلك الشارع، ثم تعاقبت أسماء أخرى، وانتابتنى نوبة السعال العتيدة ثانية، وأخفق الحديث، «فكيف السبيل إلى إحيائه؟»؛ (هل يمكنك أن تخبرنى فى أى سنة من سنوات الحرب كنت أنا فى ڤيينا؟»، «١٩١٧»، «ألم يكن (إ.ب)» [1] فى ڤيينا؛ فى ذلك الحين؟»، «لا»، وهكذا جرى الحديث بيننا. وبعدها كان بوسعى أن أجعله يخبرنى بالقليل عنك، غير أننى لم أجد لدى القوة اللازمة لذلك.

ما الذى تفعلينه بخصوص (أقراص الدواء) هذه الأيام؟ إنك تكتبين للمرة الأولى عن نوبات الصداع من جديد.

هل يمكنك أن تقولى بضع كلمات قلائل عن خطتك بخصوص باريس؟، وإلى أين ستذهبين الآن؟ (وهل هو مكان جيد الاتصال البريدى؟) ومتى؟ و لكم من الوقت؟ ستة شهور؟.

أرجوك أن تخبرينى دائما فى الحال عن المجلات التى تظهر بها بعض كتاباتك.

كيف خططك بالفعل لتنفيذ رحلتك التى تستغرق يومين إلى براغ؟ (إننى أتساءل فقط بدافع الفضول)

شكرا لتعبير (مع ذلك) كلمة سحرية، تتجه مباشرة إلى مجرى دمائى.

١) زوج ميلينا.

بعد ظهر الجمعة

وجدت هذه الرسالة في المنزل، لقد عرفت الفتاة لوقت طويل، ولعلنا أن نكون أقرباء من بعيد أو أن يكون لنا نسب مشترك، ابن العم ذاك الذي ذكرته، ذلك الذي كان مريضاً للغاية في براغ حيث كانت تمرضه لمدة شهور هي وأختها، إنها غير مقبولة لي من الناحية الجسدية، فإن لها وجها مستديرا ضخما للغاية، ذا خدين محمرين وجسدا صغيرا مستديرا وحديثاً هامساً يثير السخط، لكنني قد سمعت عنها أشياء طيبة خلافا لذلك، أعني أن الأقارب قد قدحوا فيها من خلف ظهرها.

منذ شهرين كان ردي على مثل تلك الرسالة سيكون ببساطة هو: لا، لا، لا!، بينما لا أجد لدي الحق في هذه الأيام لأن أقول ذلك. ليس بالطبع؛ لأنني أظن أنني أستطيع أن أساعدها بحال من الأحوال. كان بسمارك قد تعامل بالفعل مع مثل هذه الرسائل ذات مرة، وأشار إلى ذلك بقوله بأن الحياة هي مأدبة أسيئ إعدادها؛ خلالها ينتظر المرء فاتحات الشهية بفارغ الصبر، بينما يمر به الشواء الأساسي الضخم في صمت، وأن على المرء أن يهيئ نفسه تبعا لذلك. آه، كم تبدو هذه المهارة غبية، كم هي بالغة الغباء! إنني، لأجلي شخصياً أكثر مما هو لأجلها، أجدني بسبيلي لأن أكتب إليها، وأخبرها بأنني على استعداد للقائها. ثمة شئ ما قد وضعته أنت في يدي، يا ميلينا، وأحس بأنني لا أجرؤ على أن أبقي مطبقا عليه؛ في يدي تلك!

غدا يرحل العم، وسأجدني مرة أخرى في الهواء الطلق، سأجدني في الماء سأجدني في خارج المدينة؛ إنني لفي أشد الحاجة إلى ذلك.

لقد كتبت هي تقول عساى أن أقرأ الرسالة فحسب؛ وقد استجبت لهذا الطلب عندما أرسلت الرسالة لك، أرجوك أن تمزقيها. ثمة فقرة جيدة بها، بالمناسبة «إن النساء لا يحتجن إلى الكثير».

***

السبت. فيما بعد

مهما قلب المرء رسالة اليوم، هذه الرسالة الحلوة الصادقة المرحة، الموفقة فإنها مع ذلك رسالة (منقذة)، ميلينا ضمن (المخلصين)! (فلو كنت أنا أيضا ضمنهم، ولو أتاح لها هذا إذن أن تكون معي؟ لا، لا شك أنها لن تكون معي عندئذ) ميلينا ضمن المخلصين، تلك التي تمارس التجارب طوال الوقت على نفسها، التجارب على أن المرء يمكنه أن ينقذ الآخر فقط بمجرد تواجده ولا شئ آخر سوى ذلك. ولقد أنقذتني بالفعل بوجودها وتحاول الآن بالإضافة إلى ذلك أن تفعل نفس الشئ بأدوية أخرى صغيرة لا حصر لها. لو أن شخصا أنقذ من الغرق شخصا آخر فإنه سيكون عملا عظيما بلا شك، لكن لو أنه بعد ذلك أعطى لذلك الشخص الذى تم إنقاذه على يديه اشتراكا في دروس السباحة، فما هو الخير الذى سيتمخض عنه ذلك؟ لماذا يحاول المنقذ للآخرين أن يجعل الأمر بهذه البساطة بالنسبة لنفسه؟ لماذا لا يرغب في أن يواصل إلى الأبد إنقاذ الآخر بوجوده، بوجوده المستعد أبداً؟ لماذا يحاول أن يحوّل العبء إلى مدرب السباحة، أو إلى صاحب الفندق في (دافوس)؟ ثم إن ما هو أكثر من ذلك، هو أنني أزن ٥٥ كيلو جراماً! فكيف يمكنني أن أطير مبتعدا عندما نكون متماسكين أحدنا بالآخر باليدين؟ ولو أننا طرنا معا إلى البعيد، فما الذى سيحدث عندئذ؟ وعلى أية حال، فإن هذه

لهى الفكرة الحقيقية التى تختفى تحت الفكرة السابقة - لن أتحرك ثانية مطلقا إلى هذا الحد بعيدا عنك. وفوق هذا كله، فلقد وصلت الآن لتوى من مناجم رصاص ميران.

السبت، مساء

بعد أن تمت كتابة ما جاء أعلاه، فقد قصدت اليوم أيضا أن أكتب لك عن أشياء أخرى، لكن ليس لدى ثمة ما أقوله، لقد عدت إلى المنزل، ورأيت فى الظلام على المكتب؛ الرسالة غير المتوقعة، وألقيت نظرة متعجلة عليها، ودعيت فى الحال إلى العشاء، وأكلت شيئا ما كان لسوء الحظ لا يمكن له أن يختفى من الطبق إلا بالتهامه، ثم قرأت الرسالة بأكملها، متباطئا، متعجلا، مهتاجاً، سعيداً، مندهشا، لا يمكن للمرء أن يصدق ذلك، غير أنها تقف هنالك على حين لا يصدق المرء ذلك بعد، إلا أن المرء ليقع مغشيا عليه فوقها، وإن يكن هذا أيضا اعتقاد ما وأخيرا، يائسا، يائسا، يائسا تتسارع نبضات قلبه «لا يمكننى أن أحضر»؛ لقد عرفت هذا عند قراءة السطر الأول، وعرفته فى النهاية، لكن فيما بين هذا وذاك كنت قد وجدتنى فى فيينا مرات عديدة، كما يحلم المرء فى ليلة مؤرقة ساهرة عشرة أحلام فى حوالى نصف دقيقة. ثم مضيت إلى مكتب البريد، وأرسلت لك برقية، وهدأت قليلا، والآن ها أنذا جالس هنا، أنا أجلس هنا مثقلا بعبء يرثى له، هو عبء أن أثبت لك أننى لا يمكننى أن أحضر. حسنا، أنت تقولين إننى لست ضعيفا، وإننى قد أنجح، قد أنجح بعد كل شئ فى اجتياز الأسابيع القادمة التى تحدق فى بتكشيرة، فى كل ساعة من ساعاتها، وإنها لتفعل ذلك الآن أيضا، متسائلة: «وعلى هذا فأنت لن

تذهب إلى ڤيينا؟» أنت لن تذهب إلى ڤيينا؟، لقد تسلمت هذه الرسالة، ولم تذهب إلى ڤيينا؟؟» إننى لا أفهم الموسيقى، غير أننى أفهم هذه الموسيقى لسوء الحظ، أفهمها أفضل مما يفهمها كل الموسيقيين مجتمعين.

لا يمكننى أن أحضر، لأننى لا يمكننى أن أكذب عليهم فى مكان عملى، يمكننى أن أكذب على من فى العمل لسببين فقط: إما بدافع الخوف (وإنها ميزة بالفعل من ميزات العمل، إنها ميزة تنتمى إلى من يعملون فى هذا المكان، فأنا هناك أكذب أكاذيب غير مجهزة سلفا، أكاذيب من القلب، أكاذيب ملهمة)، أو... بدافع الضرورة الشديدة، مثلا، لنفرض أن (إلزا كانت مريضة) إلزا، إلزا[1]، لست أنت ياميلينا، إنك لا تسقطين مريضة، ذلك أن هذه ستكون ضرورة بالغة القسوة، ولن أتحدث عن هذا حتى مجرد الحديث) وعلى هذا فبدافع الضرورة يمكننى أن أكذب فى الحال، ثم إننى لن أكون فى حاجة إلى إرسال تلغراف، إن الضرورة من الممكن أن يصادفها المرء فى مقر العمل. وفى هذه الحالة فإننى أرحل سواء أكان ذلك بتصريح أو بدون تصريح. لكن فى كل الأحوال، سيكون من بين الأسباب التى ستتوفر لدى للكذب: سبب أيضا هو السعادة، إن ضرورة السعادة لهى السبب الأساسى، حيث لا يسعنى هنا أن أكذب، لا يمكننى أن أفعل ذلك إلا بقدر ما يمكننى أن أرفع ثقلا حديديا يزن ٢٠ كيلو جراما. فلو أننى ذهبت إلى المدير بتلغراف «إلزا»، فإنه سوف يسقط بلا شك من يدى، ولو أنه سقط فلا شك أننى سأتجاوزها، سأتجاوز الكذبة، وبعد أن أفعل ذلك، فلا شك فى أننى سأنطلق جرياً راجعاً،

[1] يحتمل أن يكون هذا اتفاقا تلغرافياً · «إلزا مريضة» وقد تعنى «احضر»!

تاركا المدير دون أن أسأله عن أى شئ. يجب عليك أن تتحققى يا ميلينا. إن مقر عملى ذاك ليس سوى مجرد مؤسسة غبية عتيقة (على الرغم من أنها كذلك؛ أيضا، وأن هذه الصفة تتوفر لها على نحو بالغ، غير أن هذا ليس هو الموضوع، فهى فى حقيقتها مؤسسة خيالية للغاية أكثر منها مؤسسة غبية)، لكنها كانت هى حياتى حتى الآن، ولا يمكننى أن أنتزع نفسى بعيدا عنها، ومع أن الأمر قد لايبدو بالغ السوء على الرغم من ذلك، لكنها حتى الآن إنما هى حياتى، ولا يمكننى أن أعاملها بوضاعة، وأن أعمل أقل مما يعمل غيرى (وهو ما يحدث)، وأن ألفق العمل (وهذا ما يحدث)، وأن أنجح على الرغم من ذلك فى أن أبدو مهماً (وهذا ما يحدث)، وأن أتقبل فى تعاملى أعلى اعتبارات التقدير التى يمكن تصورها فى مقر عملى ذاك، أن أتقبلها فى هدوء على أنها حق لى، – لكن الكذب، ومن أجل أن أسافر فجأة كرجل حر طليق، وأنا لست فى نهاية الأمر سوى مجرد موظف رسمى فحسب، أرحل إلى مكان ما، إلى حيث لا يوجد أى شئ آخر سوى (نبضات قلبى) الطبيعية التى تقودنى – حسنا، على هذا النحو؛ لا يسعنى أن أكذب. لكن ثمة شيئاً أردت أن أقوله لك حتى من قبل أن أتسلم رسالتك – هو أننى بالفعل سأحاول هذا الأسبوع تجديد جواز سفرى أو أن أحصل بدلا من ذلك على تأشيرة على جواز سفرى الحالى تفيد صلاحيته، وذلك حتى يمكننى أن أحضر فى الحال، لو كان على أن أفعل ذلك.

إننى أتفحص هذا الذى كتبته، ولم أقصد فى الحقيقة أن أكتبه على هذه الصورة، ومن الواضح أننى لست «قوياً» طالما أننى لم أكن قادراً على أن أعبر عن ذلك كما ينبغى (ثمة شئ بالإضافة إلى ذلك:

ربما كان من الأصعب بالنسبة لى أن أكذب فى مقر عملى على نحو أشد صعوبة مما يجده شخص ما (ومعظم الموظفين على هذه الحال) يؤمن بأنه يتعامل على نحو مجحف، ذلك أنه يعمل فوق طاقته - فلو كان لدى مثل هذا الاعتقاد، فإنه على الأغلب لن يعنى عندئذ سوى قطار سريع إلى ڤيينا - إن أى شخص يعتبر مكتب العمل مجرد آلة غبية دائرة -آلة عليه أن يديرها على نحو أفضل - آلة يعمل بها، نظرا لغباء الإدارة فى مكان غير مكانه الصحيح فهو تبعا لقدراته ينبغى أن يكون عجلة عليا - عليا وهكذا لكنه هنا عليه أن يدير طاحونة مياه سفلى وهكذا لكن بالنسبة لى وهذا ما كانت عليه المدرسة الابتدائية، والمدرسة الثانوية، والجامعة، والأسرة وكل شىء - بالنسة لى فإن (مكان العمل) هو شخص حى يتطلع إلىّ حيث أكون بعيونه البريئة، شخص أرتبط به على نحو ما لست أعرفه، على الرغم من كونه غريبا بالنسبة لى أكثر من أولئك الناس الذين أسمعهم فى هذه اللحظة يعبرون الميدان فى سياراتهم إنه غريب بالنسية لى إلى درجة اللامعقول، إلا أن هذه الغربة نفسها تتطلب اعتبارات ما، إننى لا أكاد أبذل أدنى مجهود لكى أخفى حقيقة كونى غريبا - لكن متى تتحقق مثل تلك البراعة من هذا- وباختصار: (لا يمكننى أن أكذب) لا لست قويا، ولا أستطيع أن أكتب، لا يمكننى أن أفعل شيئا، والآن يا ميلينا، حتى أنت تستديرين مبتعدة عنى لن تبتعدى طويلا أعرف هذا لكن تذكرى أن إنساناً لا يمكنه أن يعيش طويلا بدون نبضات قلبه، فهل يمكنه أن ينبض طالما أنت بعيدة عنى؟

فلو اتصلت بى برقياً بعد هذه الرسالة؟ إن هذا لهو تعجب أتعجب له فحسب، ذلك أنه ليس طلباً أطلبه - فلو أنك استطعت أن تفعلى

ذلك بمحض رغبتك. عندئذ فحسب قد تلاحظين أننى حتى لا أضع خطاً تحت هذه الكلمات.

لقد نسيت مناسبة ثالثة يكون الكذب فيها ممكنا لى: وذلك فى حالة مالو كنت أنت بجوارى، ذلك أنها ستكون أكثر صور الكذب براعة فى العالم، وذلك لأنه لن يكون هنالك شخص آخر سواك فى مكتب المدير.

***

الأحد

ما الذى ستقولينه رداً على رسالة مساء السبت، لست أعرف، ولن أعرف لوقت طويل، والآن على أية حال، فإننى جالس فى المكتب فى عملى ليوم الأحد (هى مؤسسة غريبة حيث يجلس المرء هنا أيضا وآخرون كثيرون فى عملهم يوم الأحد، وهو عمل أقل من المعتاد، أما بالنسبة لى فالعمل كما هو بالنسبة لى دائما). إن الجو كئيب، وأحيانا تحاول السماء أن تمطر، وأحياناً ما يضايقنى ضوء السحب فى أثناء الكتابة، حسنا، إن الجو تماماً كما هو، حزين، وثقيل، وعلى الرغم من أنك قد كتبت تقولين إن لدى (تنوقا للحياة) فإننى اليوم لا أكاد أجد لها طعماً، ما الذى يحتفظون به لى - اليوم ليلة، واليوم يوم؟ أساسا لقد حصلت عليه، وإن كان القليل منها (الحياة) يبدو مع ذلك (دائما تعود مرة أخرى تلك الكلمة العزيزة) على السطح. وعلاوة على ذلك فإننى أحب نفسى إلى هذا الحد القليل. هنا أجلس أمام باب المدير، إن المدير ليس موجوداً، لكننى لن أدهش لو أنه خرج فجأة وقال لى: «إننى لست أحبك أنا أيضا، وهذا ما أحب أن ألفت نظرك إليه»، وسأقول له «شكرا» إننى أريد أن أسمع هذا منك بفارغ

الصبر فهو يلزمني لرحلة إلى ڤيينا وسوف يقول: «هكذا، الآن أنا أحبك من جديد، وأسحب ملاحظتى» وسأقول: «آه، الآن لا يمكننى أن أقوم بالرحلة»، وسوف يقول هو: «أوه - نعم، ذلك أننى مرة أخرى لا أحبك، وإلى هذا إنما ألفت نظرك» وهكذا ستظل القصة بلا نهاية...

فى الليلة الماضية فكرت المرة الأولى منذ أن أصبحت فى براغ، حلمت بك، حلماً استمر حتى الصباح، قصيراً، وعميقاً - سوف أنال قسطا من النوم بعد ليلة سيئة. وأتذكر القليل من ذلك الحلم، لقد كنت أنت فى براغ، وكنا نسير معا فى شارع فرديناند فى مواجهة (فيليميك) أو نحو ذلك، فى اتجاه الميناء، وقابلنا على الجانب الآخر من الشارع بعض معارفك يسيرون فى عكس اتجاهنا، واستدرنا بعد ذلك، وتحدثت أنت عنهم، وربما كان ثمة حديث أيضا قد تناول (كراسا)[1]: (إنه ليس فى براغ هذا ما أعلمه، وسوف أسأل عن عنوانه)، ولقد تحدثت أنت على نحو عادى، لكن كان ثمة عنصر رفض خفى لا يدرك فى حديثك، إننى لم أنكر ذلك، لكننى لعنت نفسى، وبذلك إنما أعلنت فحسب اللعنة التى حلت بى، ثم كنا فى مقهى، لعله مقهى الاتحاد (لقد كان فى طريقنا)، وإلى مائدتنا جلس رجل وفتاة لا أتذكرها على الإطلاق، ثم رجل يشبه دستويفسكى تمام الشبه، لكنه أصغر سناً، ذو لحية وشعر أسود فاحم، كل شئ حتى الحواجب على سبيل المثال، وكان بناء عظم الوجه فوق العينين ناتئا للغاية، ثم كنت أنت وأنا هناك، مرة أخرى لم يكن هناك ثمة ما يشى بهيئتك الرافضة، غير أن الرفض كان موجوداً. كان وجهك - لم يكن يسعنى

١) (هانز كراسا، الموسيقى الذى مات فى أحد معسكرات التجميع).

أن أشيح بعينى عن الغرابة المعذبة – مدهونا بالبودرة، ولقد كانت البودرة مبالغا فيها للغاية على نحو أخرق، وسيئ، وربما كانت أيضا ساخنة، وهكذا كانت كل الأشكال التى صنعتها البودرة على وجنتيك. إننى مازلت أرى ذلك أمامى الآن. وانحنيت المرة بعد المرة إلى الأمام لكى أسألك لماذا وضعت هذه البودرة، وعندما لاحظت أنت أننى على وشك أن أسألك عن ذلك، تساءلت أنت رغما عنك – لم يكن يمكن ملاحظة الرفض كما قد قلت – «ما الذى تريده؟» لكننى لم أستطع أن أتساءل، لم أجرؤ، وفى نفس الوقت، خمنت أنا على نحو ما أن وضع البودرة ذاك كان امتحانا لى، امتحانا حاسماً لى – ذلك أننى كان على أن أتساءل، أن أتساءل، ولقد قصدت أن أفعل، لكننى لم أجرؤ. وعلى هذا فقد تجاوزنى الحلم الحزين وفى الوقت نفسه كان الرجل الشبيه بدستويفسكى قد عذبنى هو أيضا. فلقد كان فى سلوكه نحوى شبيها بك، لكنه كان مختلفا فى سلوكه ذاك إلى حد ما. وعندما سألته عن شئ ما، كان غاية فى الرقة، والمشاركة، وانحنى إلى الأمام، كان صريحا، لكننى عندما لم أستطع أن أفكر فى شئ آخر أتساءل عنه أو أقوله – وهذا ما كان يحدث لى فى كل لحظة – انسحب باهتزازة ما، واستغرق فى قراءة كتاب، ولم يعد يدرى بأى شئ آخر عن العالم، وليس عنى فقط، اختفى فى شعر ذقنه وشعر رأسه.. ولست أدرى لماذا لم أكن أحتمل ذلك، فالمرة بعد المرة لم أستطع أن أحتمل ذلك، وكان على أن أجذب انتباهه إلىّ بسؤال، غير أننى فقدته المرة بعد الأخرى بسبب غلطتى.

وكان لدى عزاء صغير وحيد، لا يجب أن تنكريه على اليوم: ذلك أن (تريبونا[1]) – كانت ملقاة أمامى، ولم يكن على حتى أن أشتريها

١) (مجلة تشيكية أسبوعية شهيرة، كانت ميلينا تكتب فيها ضمن آخرين).

بنفسي خلافا للتعليمات، فقد استعرتها من زوج أختي، لا - لقد أعارني إياها زوج أختي. أرجوك اسمح لي بهذه المتعة. في تلك اللحظة لم أكن مهتماً حتى بما كانت تحتويه، لكنني كنت أسمع الصوت، صوتي من خلال جحر العالم، اسمح لي بهذه المتعة، والمقالة كلها أيضاً، مقالة بالغة الجمال، لا أدري كيف حدث ذلك ، قرأتها فحسب بعيني، فكيف عرف دمي ذلك في الحال، وحمله على الفور، وهو يحترق في داخله؟ ولقد كان مرحاً كذلك أيضاً. إنني أنتمي إلى المجموعة الثانية بالطبع: هذا الثقل فوق القدمين هو ما أملكه غالبا، وإنني لست مسروراً على الإطلاق لأن شئوني الخاصة قد نشرت، لقد قال شخص ما ذات مرة، إنني أسبح كالبجعة، غير أنها لم تكن مدحاً قولته تلك. وإن يكن لها تأثير أيضاً، إنني أشعر وكأنني مارد يمنع عنك الجمهور بعيدا بذراعيه المقروبتين - ولقد مر به وقت عصيب، فلقد أراد أن يحجب الجمهور بعيدا عنك، ولم يرد في الوقت نفسه أن يفقد كلمة واحدة، أو لحظة واحدة من وجودك - ربما كان هذا جنونا، وغباء مطبقا، أما ما هو أكثر من ذلك، فإنها جماهير النساء اللاتي يصحن بلا شك: «أين هي الموضة»؟ ألن تظهر «الموضة»؟ إن ما قد رأيناه إلى أبعد مدى للرؤية لم يكن سوى «ميلينا» فحسب! فقط، وعلى هذه (الفقط) إنما أعيش أنا، أما بقية الدنيا فإنني آخذها كما أخذ مونشهاوزن مدافع جبل طارق، وألقى بها في خضم البحر الهائل. ماذا؟ كل ما يتبقى؟ واقتراف الكذب؟ أنت لا يمكنك أن تكذب في مقر العمل؟ حسنا، ها أنذا أجلس هنا، إن الجو لكئيب كما كان من قبل، وغدا لن تكون ثمة رسالة، وسيكون الحلم هو آخر ما يصلني عنك من أنباء.

***

مساء السبت

حسنا، أسرعى، ذلك هو ما فى الإمكان، إننا نحصل على هذه الإمكانية كل أسبوع، فتصورى أن ذلك لم يعن لى من قبل! بالطبع، يجب علىّ قبل كل شئ أن أحصل على جواز السفر، وليس هذا بالسهولة التى تتصورينها، وبدون (أوتلا)[1] سيكون ذلك مستحيلا على الأغلب: سأرحل من هنا بعد ظهر السبت بالقطار السريع، وأصل فى حوالى (غداً سأستفسر عن الوقت المحدد للوصول) الثانية صباحا إلى ڤيينا. وفى تلك الأثناء ستكونين أنت قد اشتريت تذاكر قطار الأحد السريع إلى براغ يوم الجمعة، وتتصلين بى برقيا لتخبرينى بأنك قد حصلت على هذه التذاكر، وبدون هذه البرقية لن يمكننى أن أغادر براغ، وسوف تلتقين بى على المحطة، وسيكون أمامنا أكثر من أربع ساعات نقضيها معاً، وفى الساعة السابعة من صباح الأحد أرحل ثانية.

وعلى هذا فهذا هو ما فى إمكاننا، قليل من الحزن، لكى نحصل فقط ساعات أربع ليلية مرهقة معا (وأين؟ فى فندق بالقرب من محطة فرانتس - يوزيف؟)، لكنها مع ذلك إمكانية قد يمكن تحسينها تحسينا كبيراً - لكن هل هذه الإمكانية موجودة بالفعل؟ - بحضورك إلى لنلتقى فى جموند، ونقضى فيها الليل. إن جموند مدينة نمساوية - أليست كذلك؟ وعلى هذا فأنت لست فى حاجة إلى جواز سفر. سوف أصل إلى هناك فى حوالى العاشرة مساء، وربما أصل إليها قبل ذلك. وأغادرها يوم الأحد بالقطار السريع (أظن أنه من الممكن أن يجد المرء مكانا يوم الأحد بالقطار) فى الساعة الحادية عشرة

١) (شقيقة كافكا التى لعبت دوراً هاما فى حياته).

صباحاً. وربما لو كان ثمة قطار ركاب مريح فيما بعد، فأغادر جموند إذن فيما بعد. وإنني لأتساءل من ناحية أخرى كيف ستصلين أنت إلى هناك، وكيف ستعودين، أخشى أنني لا أعرف كيف سيتم لك ذلك.

حسنا، ماذا تظنين في ذلك؟ من الغريب أن أسألك الآن، بينما أنا أتحدث إليك طوال اليوم.

عنوان (كراسا) هو – مارينباد، فندق شتيرن.

***

الاثنين

حسناً، لم تكن البرقية هي الرد، لقد كان الرد هو رسالة مساء الثلاثاء، وعلى هذا فقد كان ثمة جزاء لما عانيته من أرق، وثمة عزاء للحزن المحض الذى عانيته هذا الصباح، هل زوجك على علم بأمر (انبثاق الدم)؟، لا يجب على المرء أن يهول المسألة، فلعل الأمر ألا يكون أمراً ذا بال، ذلك أن الدم ينبثق لأسباب متعددة، إلا أنه دم على أية حال، ولا يمكن للمرء أن ينسى ذلك، وأنت بالطبع تعيشين حياتك البطولية المرحة باندفاع فى اتجاه انبثاق الدم ذاك، إنك تعيشين كما لو كنت تغرين الدم بالانبثاق، كأنك تقولين له، حسنا، انبثق إذن: لتنبثق فى نهاية الأمر!، وعندئذ بالطبع ينبثق الدم. أما ما يمكننى أن أفعله هنا فيبدو وكأنه لا يعنيك بالمرة، وأنت لست (طفلة) بالطبع، وتعرفين ماذا تفعلين، لكنك تريدينني أن أقف فى مكانى هنا على شاطئ براغ، بينما أنت تغرقين عامدة أمام عينى فى بحر ڤيينا. وإذا لم يكن لديك ما تأكلينه، أفليست هذه حاجة (فى حد ذاتها)؟ أم تظنين أن هذه حاجتى أنا أكثر مما هى حاجتك؟، حسنا، إنك على

حق إذن. وأنا لن أكون قادراً لسوء الحظ على أن أرسل لك نقوداً بعد ذلك، ذلك أنني سأذهب في الظهيرة إلى المنزل لكي أضع النقود عديمة النفع في موقد المطبخ.

وعلى هذا فيبدو أننا قد انفصلنا تماما يا ميلينا كل في ناحية، ويبدو أن الشئ الوحيد الذي نتقاسمه هو الرغبة الشديدة في أنك يجب أن تكوني هنا، وأن وجهك ينبغي أن يكون في مكان ما أقرب ما يكون إلى وجهي. لكن الرغبة في الموت، نحن بالطبع نتقاسمها معا هي أيضا، تلك الرغبة في موت مريح، على أن هذه الرغبة لهي بالفعل تلك الرغبة التي يرغب فيها الأطفال الصغار؛ مثلي في طفولتي، على سبيل المثال، عندما كنت قد رأيت المدرس في أثناء حصة الرياضيات، في مكانه هناك يقلب صفحات كراسة مذكراته ربما، بحثا عن اسمي، وقارنت أنا افتقاري إلى المعرفة ذلك الافتقار الذي لا يتصوره عقل، بذلك المشهد الذي يمثل القوة والرعب، والحقيقة. فلقد رغبت لخوفي في شبه حلم؛ في أن يكون في استطاعتي أن أنهض من مكاني كشبح، وأن أندفع كما يندفع الشبح وسط المقاعد، ثم أنطلق طائراً مبتعداً عن المدرس بخفة كتلك الخفة التي تتميز بها معلوماتي في الرياضيات، وأنسحب على نحو ما خارجاً من الباب، وفي الخارج ألم شتات نفسي لأصبح حراً في الهواء الحبيب، هواء العالم كله ذلك الذي لا أجهله، ذلك الهواء الذي لا يعرف أشكال التوتر تلك التي تحتويها حجرة الدراسة، نعم كم كان ذلك ليبدو «مريحا». غير أن الأمر لم يجر على هذا النحو. فقد نودي عليّ، وكلفت بأداء واجب ما، كان حله يحتاج مني إلى كتاب اللوغاريتمات، وكنت قد نسيت كتاب اللوغاريتمات، لكنني كذبت قائلا إنه موجود

بداخل درجى (لأننى ظننت أن المدرس سيعيرنى كتابه)، لكنه أرسلنى إلى مكانى لكى أحضره، ولاحظت بنذير حقيقى (لم يسبق لى أن أحسست فى المدرسة مطلقا بنذير زائف) أنه لم يكن موجوداً! ونادانى المدرس قائلاً (كنت قد قابلته أمس الأول): «أنت أيها التمساح» وأردفها فى الحال بكلمة: «البائس»، وكانت تلك الكلمة بالفعل قد أراحتنى، ذلك أننى كنت قد استقبلتها فحسب كتقرير شكلى، ومناف للعدل؛ علاوة على ذلك (فمع أننى كنت قد كذبت، إلا أن أحداً، لم يكن فى وسعه أن يثبت ذلك، فهل يعد هذا مجانبا للعدل؟) لكن بالإضافة إلى ذلك كله لم يكن لى أن أكشف عن جهلى المخجل، وعلى هذا فقد كان هذا أيضا بالإضافة إلى الموقف بأكمله (مريحاً) تماماً، وقد أوضح أن المرء يمكنه فى الظروف الملائمة أن «يختفى» فى داخل الحجرة نفسها، وأوضح أن الإمكانيات اللازمة لذلك هى إمكانيات لا محدودة، وأن للمرء أن «يموت» حتى، وهو مايزال على قيد الحياة.

(بالقلم الأزرق عبر هذه الكتابة، وعلى الصفحة السابقة): إننى أثرثر على هذا النحو فقط لأننى، على الرغم من كل شئ، أحس التحسن بقربك.

– إمكانية واحدة فقط لا وجود لها، ويتضح ذلك فوق ثرثرتى كلها – وهى إمكانية أن تدخلى أنت فى هذه اللحظة، وتكونين هنا، ونناقش معا بصورة شاملة مسألة شفائك؛ إن مجرد تحقق هذه الإمكانية ستكون هى أشد الأمور إلحاحاً.

كنت قد قصدت اليوم أن أخبرك بأشياء كثيرة قبل أن أقرأ

الرسائل، لكن ماذا يمكن للمرء أن يقول عندما يواجه (الدم)؟، أرجوك أن تخبريني في الحال، بما قاله الطبيب، وما نوع شخصية ذلك الطبيب.

أنت تصفين الندم الذي يتعلق بمحطة السكة الحديدة وصفاً خاطئاً، فأنا لم أتردد لدقيقة واحدة، بل كان كل شئ طبيعيا للغاية، وحزيناً، وجميلا، وكنا وحدنا تماما، حتى أنه قد بدا مضحكا إلى حد لا يكاد يصدق كيف نهض الناس (الناس الذين لا وجود لهم في نهاية الأمر) فجأة بأسلحتهم مطالبين بأن ترفع الحواجز عن الرصيف.

لكن في مواجهة الفندق، كان الأمر حقا كما تقولين. كم كنت أنت جميلة هناك! ربما لم تكوني أنت على الإطلاق تلك التي كانت هناك؟ ذلك أنه ليبدو غريباً بالفعل لو أنك كنت قد نهضت مبكرة على ذلك النحو. لكن لو لم تكوني أنت، فكيف عرفت عن ذلك الأمر كل هذا.

***

الاثنين فيما بعد

أوه، وعلى هذا فهذه الكمية الكبيرة من المستندات قد وصلت الآن لتوها. ثم من أجل ماذا تراني أعمل، أعمل برأس لم تذق للنوم طعماً فوق هذا كله! لأي هدف؟ أمن أجل موقد المطبخ.

ويجيئ الآن فوق هذا كله دور الشاعر، الشخص الأول، إنه هو أيضا حفّار على الخشب، ورسام حفار، وهو لن يرحل، وهو إلى هذا الحد مفعم بالحياة حتى أنه ليلقي إلى بكل شئ، ويراني أرتعش لنفاد صبري، كم ترتعش يداي فوق هذه الرسالة، إن رأسي ليستلقي

بالفعل على صدرى، وهو لا يرغب فى الرحيل، إن الصبى المفعم بالحياة، السعيد، التعس الذى يعد استثناء، إلا أنه الآن بالذات ليس سوى ضوضاء مريعة بالنسبة لى، و... ينبثق الدم من فمك!

ونحن نكتب كلانا بالفعل نفس الأشياء طوال الوقت، أسألك فى مرة عما إذا كنت مريضة، ثم تكتبين لى عن ذلك، وفى حين آخر أكتب لك عن رغبتى فى الموت، ثم أريد الآن أن أصرخ أمامك كطفل صغير، وأنت أيضا تريدين أن تصرخى أمامى كطفلة صغيرة، ومرة، ومرات عشر، وألف مرة، وطوال الوقت أريد أن أكون معك، وأنت تقولين نفس الشيء، كفى... كفى...

وما أزال لم تصلنى رسالة عما قاله لك الطبيب، أنت أيتها العربة البطيئة، أنت أيتها الكاتبة السيئة للرسائل، أنت أيتها المشاغبة، أنت أيتها العزيزة، أنت - حسنا، ماذا بعد؟ لا شيء، سوى أن أستلقى هادئا على صدرك.

***

بعد ظهر الاثنين

سوف أكون كاذبا إذا لم أكن بسيطا لأن أقول أكثر مما قلته فى رسالة الصباح هذه، خاصة لك، من يمكننى أن أتحدث إليها بحرية لا يمكننى أن أتحدث بها إلى أحد سواك، ذلك أن أحداً سواك لم يضع نفسه فى مكانى بكل ذلك التفهم، وبكل تلك الرغبة كما فعلت أنت، على الرغم من كل شيء. افصلى تلك الـ(على الرغم من كل شيء) الهائلة، لتمييزها عن تلك الـ(مع ذلك) الهائلة.

إن أجمل رسائلك كلها (وذلك يعنى أن الكثير منها رسائل جميلة، ذلك أنها جميلة كلها تقريبا فى مجملها، فى كل سطر من سطورها،

إنها أكثر ما صادفنى من أشياء جميلة فى حياتى كلها) هى تلك الرسائل التى توافقيننى فيها على خوفى، وتحاولين فى الوقت نفسه أن تفسرى لى أننى لست فى حاجة إلى أن أكون خائفاً إلى هذا الحد. ذلك أننى أيضا، حتى ولو كنت أبدو فى بعض الأحيان وكأننى مدافع مرتشٍ عن (خوفى)، ربما أوافقك على ذلك فى أعمق أعماقى، إن خوفى حقا لهو جزء منى، وربما كان هو أفضل الأجزاء. وبما أنه أفضل أجزائى، فربما كان أيضا هو ذلك الجزء الوحيد الذى تحبينه فى؛ وإلا فما هو الذى يستحق الحب غير ذلك ويمكن أن يوجد لدى، لكن ذلك هو ما يستحق الحب.

وعندما سألتنى أنت ذات مرة كيف أمكننى أن أعد يوم السبت ذاك «يوماً طيباً» مع ذلك الخوف الذى فى قلبى، لم يكن من الصعب على أن أفسر لك ذلك. طالما أننى أحبك (وإننى لأحبك بالفعل، أنت أيتها الحمقاء، كما يحب البحر حصاه التى فى أعماقه، تلك هى الكيفية التى بها يغرقك حبى تماماً)، - فهل لى بدورى أن أكون الحصاة بالنسبة لك، لو تسمح السماء)، إننى أحب الدنيا كلها، ويشمل ذلك كتفك الأيسر أيضا، لا، لقد كان هو كتفك الأيمن فى البداية، وأنا أقبله لهذا عندما أحس رغبة فى ذلك (فماذا لو تبلغ بك الطيبة حداً تجعلك تكشفى عنه البلوزة)، ويشمل ذلك أيضا كتفك الأيمن ووجهك فوقى فى الغابة، واستنادى إلى صدرك الذى يكاد يكون عارياً تماماً، وهذا هو السبب فى أنك محقة فى قولك بأننا كنا بالفعل شخصاً واحداً، وأننى لست خائفاً من كوننا شخصاً واحداً، بل إنها لسعادتى الوحيدة، وإنه لزهوى الوحيد، وإننى لا أحد ذلك مطلقا بحدود الغابة وحدها.

غير أنه بالذات بين (يوم الدنيا) ذاك، وتلك (النصف ساعة فى الفراش)، تلك التى قلت عنها ذات مرة باحتقار إنها (أمور الرجال)، بينهما إنما تكمن بالنسبة لى هوّة لا يمكنني أن أجتازها ربما لأنني لا أريد ذلك. ذلك أن ثمة ما يتعلق بالليل فوق هذه الهوة، بالشمول، وبكل المعانى التى تتعلق بالليل: فها هو العالم هنا وإننى لأمتلكه، ومن المقدر لى أن أقفز عبره إلى الليل لكى أمتلكه مرة أخرى فهل يمكن لامرئ أن يتملك أى شئ مرتين؟ أليس معنى هذا أن يفقده؟ ها هو العالم الذى أمتلكه هنا، وقد يتهيأ لى أن أقفز عبره سعياً إلى سحر شيطانى أسود، إلى الشعوذة، إلى حجر الفلاسفة، إلى السيمياء (الكيمياء الخرافية)، إلى خاتم الأمانى، سحقا لها جميعا؛ إننى أخافها أشد الخوف.

وأن يحاول المرء، ويتلبسه السحر الأسود ذات ليلة، بسرعة، وبأنفاس ثقيلة، وبلا حيلة، وفى ذهول: أن يحاول الحصول بواسطة السحر الأسود على ما يقدمه كل نهار للعيون المفتوحة! «ربما» لم يكن للأطفال أن يولدوا بطريقة أخرى، «وربما» كان الأطفال سحر أسود هم أيضاً. دعينا ندع جانبا هذه المسائل الآن. هذا هو السبب فى أننى أشعر بالامتنان إلى هذا الحد (لك ولكل شئ)، وطبيعى لهذا أننى أشعر (إلى جوارك) بالهدوء البالغ، وأشعر بالقلق البالغ، أشعر بغاية الاستقرار، وبكل الحرية، وهذا هو السبب أيضا فى أننى بعد هذا التحقق قد نبذت كل أشكال الحياة الأخرى، فلتتطلعى إذن فى عينى!

إذن فقد كان ينبغى على السيدة ك. أن تخبرنى بأن الكتب قد انتقلت من المنضدة الجانبية إلى المكتب. لا شك فى أنه كان من

الواجب استشارتى أولا عما إذا كنت أوافق على هذا التغيير. ولقد كنت سأقول: لا !.

وليكن لى امتنانك الآن، ذلك أننى قد كبت بنجاح رغبتى فى أن أضيف شيئا أحمق إلى هذه السطور الأخيرة (شيئا غيوراً بحماقة).

لكن يكفى هذا وأخبرينى الآن عن إميلي.

***

مساء الاثنين

إن الوقت يعد متأخراً الآن بالفعل، بعد يوم كان إلي حد ما كئيبا على الرغم من كل شيء، وقد لا تصلنى رسالة منك غداً، ولقد تسلمت رسالة السبت، ورسالة كتبت يوم الأحد يمكن أن تصل فقط بعد الغد، وعلى هذا سيكون اليوم خالياً من التأثير المباشر لرسالة من رسائلك: كم هو غريب أن تذهلنى رسائلك ياميلينا. لقد أحسست لمدة أسبوع أو أكثر أن شيئا قد حدث لك، شيئا مفاجئا، أو على مراحل، شيئاً أساسياً، أو عرضياً، شيئاً واضحاً، أو مجرد نصف واع، المهم أن شيئا ما هنالك، وهذا ما أثق في وجوده. لا يمكننى إلى حد بعيد أن أكتشف ذلك الشئ من التفاصيل التى تملأ الرسائل، على الرغم من أن هناك مثل هذه التفاصيل أيضا، أما عن حقيقة أن رسائلك تمتلئ بالذكريات (وإنها لتمتلئ بكل الذكريات الخاصة)، ومن حقيقة أنه على الرغم من أنك تجيبين على كل شئ كالعادة، لكنك لا تجيبين تماماً على كل شيء، وإنك لحزينة بلا سبب، وتحاولين أن ترسلينى إلى (داقوس)، وأنك فجأة بهذه الصورة تريدين هذه المقابلة (لقد تقبلتِ فى الحال نصيحتى لك بألا تحضرى إلى هنا، ولقد صرحت بأن قيينا لا تصلح للقاء، ولقد كتبت لى بأننا لا ينبغى لنا أن نلتقى قبل رحلتك،

وهذا التسرع الآن في رسالتين أو ثلاث رسائل)، ينبغي لي أن أكون في غاية السعادة لهذا التسرع، لكنني لا أستطيع أن أكون كذلك، ذلك أنه في مكان ما من رسائلك يوجد خوف غامض، لست أدرى ما إذا كان ذلك الخوف خوفا علي أو خوفاً مني.

وهناك خوف أيضا في هذه المفاجأة، وذلك التسرع اللذين بهما تريدين هذا اللقاء، وأنا على أية حال في غاية السرور لأنني قد وجدت إمكانية ما، وأنه من المؤكد أنها إمكانية. ألن يكون في مقدورك أن تقضي ليلة خارج ڤيينا، من الممكن أيضا أن يتم ذلك لو أننا ضحينا معا ببضع ساعات. تأخذين قطار يوم الأحد السريع إلى جموند في حوالي الساعة السابعة صباحا (كما فعلت أنا في ذلك الوقت)، وتصلين إلي هناك في الساعة العاشرة صباحاً، وسوف أقابلك ولما كنت سأرحل فقط في الرابعة والنصف مساء، فيكون أمامنا ماتزال ست ساعات نقضيها معاً. ثم تأخذين بعد ذلك قطار الليل السريع عائدة إلى ڤيينا، فتبلغينها في الحادية عشرة والنصف، رحلة قصيرة ليوم الأحد.

وإليك السبب في أنني لا أشعر بالراحة، أو أنني بالأحرى لا أشعر بانعدام الراحة، فكم هي هائلة طاقتك. وبدلا من كوني أشعر بالمزيد من بانعدام الراحة الذي يتجاوز راحتي القلقة، سببه أنك، في صمت، تلزمين الصمت، فيما يتعلق بأمر ما، أو أن عليك أن تبقى صامتة، أو أنك تبقين صامتة سهواً، وعلى هذا فبدلا من أن أصبح أكثر قلقا لهذا السبب، فإنني أبقى هادئاً، فكم هي هائلة ثقتي فيك على الرغم من حالاتك التي تتبدين عليها. فلو ظللت صامتة بخصوص أمر ما، فإن هذا الصمت أيضاً سيكون صواباً؛ فيما

أعتقد. لكنني بعد، لسبب آخر، سبب حقيقي، وغير عادي، أبقى هادئا تجاه هذا كله. إن لك طوراً غريباً (وأظن أنه يكمن عميقا في طبعك، وإنه «لخطأ الآخرين» إن لم يحدث طورك الغريب هذا فعله في كل مكان) طوراً غريباً لك لم أعثر بعد على مثيل له لدى أي شخص آخر، وإنه لهو حقاً هذا الطور الغريب، الذي رغم أنني قد عثرت عليه هنا، إلا أنني لا يمكنني في الحقيقة أن أتصوره. إنها لغرابة طورك التي تتمثل في كونك غير قادرة على أن تتسببي في أن يعاني أحد، ولا يكمن دافع الشفقة وراء عدم قدرتك على التسبب في دفع الناس إلى المعاناة، لكن السبب هو أنك غير قادرة على أن تفعلي ذلك، لا، إن ذلك شئ خيالي؛ ولقد أنفقت فترة ما بعد الظهيرة كلها وأنا أفكر على الأغلب في ذلك، لكنني الآن لا أجرؤ على أن أدون أفكاري. ولعل الأمر كله لا يزيد في كثير أو قليل عن أن يكون مجرد علة واضحة الإخفاق تتضمن رغبتي في أن أضمك إلى أحضاني.

والآن إلى الفراش : وإنني لأعجب ماذا تراك تفعلين الآن في الساعة الحادية عشرة، مساء ؟

***

الثلاثاء

وهكذا عليك بالقليل من المعرفة البشرية، ياميلينا. لقد قلت هذا دائما، لتكن إلزا مريضة، ربما أمكن هذا، وربما تمكن المرء لهذا السبب من أن يحضر إلى ڤيينا - لكن العمة كلارا مريضة (للغاية)؟ هل تتصورين أنني يسعني بصرف النظر عن كل اعتبار آخر، أن أذهب إلى المدير لأخبره - دون أن ينتابني الضحك، عن العمة كلارا (طبعا، وإنك لتظهرين في هذا شيئا من المعرفة بالطبيعة البشرية،

طبعا فيما يتعلق بأمر اليهود فإن لكل منهم عمة كلارا، لكنى عمتى أنا كلارا قد ماتت، منذ وقت طويل)، وعلى هذا فإن هذه الفكرة مستحيلة تماما. ولا نحتاجها لحسن الحظ بعد الآن، فدعيها تموت، فهي ليست وحدها في نهاية الأمر، ذلك أن أوسكار معها، ومن هو أوسكار، من ناحية أخرى؟، إن العمة كلارا هى العمة كلارا، لكن من هو أوسكار؟ على أية حال، إنه معها، فدعينا نأمل فى ألا يسقط مريضا هو أيضا، ذلك المنقب في أحراش التراث![1]

رسالة بعد هذا كله، ويالها من رسالة! إن ما قلته لك في البداية ليس صحيحا بالنسبة لرسائل المساء، لكن هذا الاضطراب (كما قلت: الهدوء)، ما إن يوجد ذات مرة، فإنه لا يمكن إقصاؤه، ولا حتى بهذه الرسائل.

كم هو طيب أننا سيرى أحدنا الآخر! ولعلنى أن أبرق إليك غدا أو بعد غد، (لقد ذهبت أوتلا لإعداد جواز السفر)، بما إذا كان فى وسعى أن أحضر إلى جموند هذا السبت (الوقت متأخر بالفعل للغاية بالنسبة لفيينا هذا الأسبوع، ذلك أنه كان ينبغى أن يكون قد تم حجز تذكرة السفر بقطار السبت السريع)، ردى على برقياً، إذا كان يسعك أن تحضرى أنت أيضاً) أرجوك أن تذهبى إلى مكتب البريد فى المساء أيضا، حتى يمكنك أن تحصلى على البرقية فى الحال. إنها ستكون كما يلى: «إننى سأرسل برقية أقول فيها «مستحيل» ومعنى هذا أننى لا يمكننى أن أحضر هذا الأسبوع، فى تلك الحالة لن أتوقع منك رداً بالبرق، وسوف نناقش البقية عن طريق الرسائل (بالنسبة للأسابيع الأربعة المقبلة سوف يعتمد اللقاء بالطبع على

١) كانت ميلينا قد اقترحت فيما يبدو أنها ستبرق قائلة: العمة كلارا مريضة للغاية، فاحضر فى الحال يا أوسكار.

المكان الذى ستذهبين إليه فى الريف، فربما رحلت بعيدا عن المكان الذى سأذهب إليه – حسنا، عندئذ لن يتمكن أحدنا من رؤية الآخر لمدة شهر). أو أننى سأرسل برقية بدلاً من ذلك قائلا: «هل يمكن أن يكون السبت فى جموند»، على هذا سأتوقع رداً إما بـ«مستحيل»، أو بـ«سيكون السبت فى جموند» أو «سيكون الأحد فى جموند»، فى الحالتين ستكون المشكلة قد تم حلها، وسوف لا تتطلب أية برقيات علاوة على ذلك، وسوف نرحل كلانا متجهين نحو جموند، ونرى أحدنا الآخر هذا السبت أو الأحد. إن هذا كله يبدو فى غاية البساطة.

لا، بل لكى أؤكد لك أن برقيتك قد وصلتنى، فسوف أنوه بها، ساعتان على الأغلب قد ضاعتا، وكان على أن أضع الرسالة جانبا، لقد كان (أوتو – بيك) هنا،[1] إننى مرهق، متى سيرى أحدنا الآخر؟ لماذا انقضت ساعة ونصف ولم يسمع المرء اسمك يتردد سوى ثلاث مرات فقط؟ أين أنت؟ على الطريق إلى القرية، أين يوجد الكوخ؟ إننى أيضا فى طريقى إلى هناك، إنها لرحلة طويلة. لكن أرجوك ألا ترهقى نفسك بهذا الشأن، ومهما حدث فإننا فى طريقنا، ولا يمكن للمرء أن يفعل سوى أن يبدأ فى الرحيل.

***

الثلاثاء

أين هو الطبيب؟ إننى أفتش فى الرسالة دون أن أقرأها لمجرد أن أعثر على اسم الطبيب فيها، أين هو؟ إننى لست نائما، لست أقصد أن أقول إن هذا هو السبب فى أنني لست نائما، الناس العاديون الذين لا يحسون الموسيقى لا تسلبهم الهموم الحقة نومهم كما

١) شاعر من براغ، ومحرر جريدة براغ، وصديق قديم من أصدقاء كافكا.

تسلبهم إياها أمور أخرى، ومع ذلك فإننى لم أنم، هل الرحلة إلى ڤيينا قد مضى عليها الآن وقت طويل؟ وهل أنا أوفى حظى تقديرا زائدا عن حقه؟ وهل اللبن والزبد والسلطة سيئة وهل أحتاج حقا إلى غذاء هو مجرد وجودك؟ ربما لا يكون السبب شيئا من هذا كله ولكن الأيام ليست مبهجة، وعلاوة على ذلك، فلم يتح لى حسن الطالع لمدة ثلاثة أيام حتى الآن أن أنعم بخلو الشقة، إننى أعيش فى المنزل (إن هذا هو أيضا السبب فى أننى تسلمت البرقية فى الحال). ربما لم يكن خلو الشقة هو الذى يوفر لى هذه الراحة، أو لعله على الأقل ألا يكون هو أول الأسباب، بل لعل امتلاك شقتين إحداهما للنهار، والأخرى أكثر بعدا عنها أخصصها للأمسيات والليل، هل تدركين هذا؟ إننى لا أفهمه أنا نفسى، إلا أنه لكذلك.

نعم الدولاب، ربما سيكون هو الموضوع الوحيد لقتالنا الأول، وقتالنا الأخير، فسوف أقول : «دعينا نلقيه خارجا » وسوف تقولين: «يجب أن يبقى فى مكانه»، وسوف أقول : «عليك أن تختارى أحدنا أنا أو الدولاب» ؛ وستقولين فى الحال : «فرانك وشرانك[1]؛ ذلك أن اللفظتين تحققان إيقاعا ما. إننى أختار الدولاب»، وسأقول: «حسنا»، وفى تثاقل، أهبط الدرج (أى درج؟) وإذا لم أكن قد وجدت قناة الدانوب، فسوف أبقى اليوم على قيد الحياة.

وإننى فى الحقيقة، لأقف كلية فى صف الدولاب، فقط لا ينبغى لك أن ترتدى ذلك الثوب، ذلك أنك سوف ترتدينه حتى يستحيل مزقاً، وما الذى سيبقى لى عندئذ ؟.

غريب، ذلك القبر، لقد بحثت بالفعل عنه فى ذلك المكان، لكننى

١) (لفظة دولاب بالألمانية).

فعلت ذلك فى وجل. وبدلا من ذلك وجدتنى فى ثقة هائلة أقترب أكثر فأكثر، وأخيرا درت دورات واسعة حوله، لأجدنى فى نهاية الأمر قد قصدت مقصورة مختلفة كلية، ظننتها هى القبر المقصود.

إذن فسترحلين، وأنت لم تحصلى بعد على جواز سفرك أيضا، (وبهذا يكون التأكيد لى بأنك ستأتين فى حالة الضرورة فوراً) فهل مازلت تتوقعين منى الآن أن أنام؟

والطبيب؟ أين هو؟ ألم يعد له هنالك وجود بعد؟

لم توجد أية طوابع خاصة (بمجلس النواب)، لقد ظننت أنا أيضا أنها لابد أن توجد، وقد وصلتنى اليوم لخيبة أملى البالغة طوابع (مجلس النواب)، إنها طوابع بريد عادية فوقها علامة (المجلس) البريدية، وهى حتى بحالتها هذه وبسبب هذه العلامة البريدية وحدها، كان من المفروض أن تكون ذات قيمة ما، إلا أن هذا ما قد لا يدركه الصبى. وسوف أضمن كل رسالة طابعا واحداً فى كل مرة، أولاً نظراً لقيمة هذه الطوابع، وثانياً، لكى يصلنى سطر يعرب لى عن الشكر كل يوم.

ترين أنك فى حاجة إلى رأس، لماذا لم نستفد أكثر من وقتنا فى فيينا؟ لماذا، لماذا لم نقض وقتنا كله فى (فندق المحطة)، لقد كان وقتنا رائعاً هناك، وكنا جد قريبين أحدنا من الآخر؟ وآمل ألا تكونى قد قرأت فكاهاتى السخيفة للدولاب بصوت مرتفع؟ فأنا أحب فى نهاية الأمر كل شئ فى غرفتك، أحبه إلى درجة الشرود.

والطبيب ؟

وهكذا فأنت غالبا ما ترين جامع الطوابع البريدية؟ ليس هذا تساؤلا خبيثا، على الرغم من أنه يبدو كذلك فعندما لا ينام المرء نوما طيبا، فإن المرء ليتساءل الأسئلة دون أن يدرى عن ذلك شيئا ويود المرء لو يظل يتساءل إلى الأبد، إن انعدام النوم لا يعنى شيئا سوى التساؤل: فلو أن المرء حصل على إجابة لنام.

وهذا التصريح بانعدام المسئولية الأخلاقية هو حقا غاية فى السوء، آمل أن تكونى قد حصلت على جواز السفر؟

***

الثلاثاء

رسالة أحد أيام الجمعة: إذا لم يكن ثمة شئ قد تمت كتابته فى يوم الخميس، فليكن إذن، طالما أن شيئا لم يفقد.

إن ما كتبته عنى أراه غاية فى المهارة ، ولست أريد أن أضيف شيئا، فليبق ما كتبته، كما هو تماما دون أن يمس، شئ واحد فقط، يتضمنه هو أيضا ما قد كتبته، وهو ما أود أن أقرره بمزيد من الوضوح إلى حد ما: ذلك أن سوء حظى هو أننى أعتبر كل البشر، وفوق الكل بالطبع هؤلاء الذين يبدون لى أكثرهم سمواً – أعتبرهم جميعا طيبين، بعقلى وبقلبى أراهم جميعا طيبين (وقد دخل الآن للتو رجل، كان مذعوراً، ذلك أننى شكلت فى الفراغ وجها يعكس هذا الرأى، جسدى فقط لا يمكنه إلى حد ما أن يقتنع بأنهم حقا يمكنهم عند الضرورة أن يكونوا طيبين. إن جسدى خائف، ولا يمكنه أن ينتظر (بهذا المعنى) نتيجة اختبار انعتاق العالم الحق ويفضل أن يزحف فى بطء على الحائط.

إننى بسببلى مرة أخرى، فى ليلة أخيرة، إلى تمزيق الرسائل. إنك غاية فى التعاسة من أجلى. ولعل ثمة أشياء أخرى تسهم فى ذلك، ذلك أن كل الأشياء تؤثر فى بعضها البعض، فلتقوليها إذن بصراحة المرة بعد المرة، لأن ذلك لا يمكن أن يتم بالطبع دفعة واحدة.

ذهبت بالأمس لزيارة الطبيب، وعلى عكس توقعاتى لم يبين لى، لاهو ولا الموازين التى يستخدمها إن كنت قد تحسنت؛ كما لم يبينوا لى من ناحية أخرى أننى قد ازددت سوءاً أيضا، لكنه يظن أننى يجب أن أرحل، وعند ذكر جنوب سويسرا، التى أدرك فى الحال بعد توضيحى أنها مستحيلة، أوصى للتو، دون أى تأثير من جانبى بمصحتين فى جنوب النمسا باعتبارهما أفضل المصحات، مصحة (جريمنشتاين) (دكتور فرانكفورتر)، ومصحة (ڤاينر ڤالد) (غابة ڤيينا)، مع أنه لم يكن يعرف وقتها العناوين البريدية لا لهذه ولا لتلك، فهل يمكنك إذا وجدت الفرصة أن تستعلمى عنهما من إحدى الصيدليات، أو أحد الأطباء، أو عن طريق دليل تلغرافى؟ لا داعى للعجلة. كما أن هذا لا يعنى أننى سأذهب إلى أى منهما. إن هذه المصحات هى مصحات صدرية بصفة خاصة، مساكن تسعل بكاملها، وترتعد، وتنتفض بالحمى نهاراً وليلاً، حيث يتناول فيها المرء اللحم، وحيث يخلع الجلادون السابقون أذرع المرء إذا عنَّ للمرء أن يقاوم الحقن، وحيث تجدين الأطباء اليهود الذين يربتون على لحاهم، قساة على اليهودى قسوتهم على المسيحى، فتدبرى هذا.

فى أحد رسائلك الأخيرة، كتبت شيئا (لست أجرؤ على أن أخرج

هذه الرسائل، ولعلني بينما أجيل فيها البصر قد أسأت فهم أمر من الأمور، وهذا هو أكثر ما يبدو لي قريباً من الصحة)، كتبت أنت في أحد رسائلك الأخيرة تلك شيئا يفيد بأن موقفك هناك يقترب من نهايته الختامية. كم كان في الكثير منها ما يبدو (أحزاناً تذكارية)، وكم كان فيها من الصدق الذي لا يتزعزع؟

مرة أخرى قرأت خلال رسالتك لأنسحب (منزعجاً)، وعند إعادة التفكير يتضح لي افتقاد بعض الأشياء، وتهويل البعض الآخر، وعلى هذا فهي ماهرة تماماً. إنه لغاية في الصعوبة حقاً للبشر أن يلعبوا لعبة (الاستخفاء) مع الأشباح.

هل رأيت (بلاي)[1]، ما الذي يفعله؟ كان الأمر سخيفا كله، فهذا ما يمكنني أن أصدقه تمام التصديق وأن المرء قد يبقى حائراً بين النقيضين بخصوص ذلك هو ما أعتقده كذلك. وإن لم يكن ثمة شئ في أنه كان هناك ما هو جميل في الأمر، فيما عدا أنها كانت تبعد مسافة خمسين ألف ميل، وأنها ترفض الاقتراب، وأن أجراس سالسبورج لو أنها كلها بدأت تدق فإنها سوف تتراجع متباعدة، بدافع الحذر، بضعة آلاف أخرى من الأميال.

***

هل تعرفين قصة هرب كازانوفا من زمرة (الرواد)؟ نعم، أنت تعرفينها، إن أكثر معاني السجن رعباً تجدينها موصوفة هنالك باختصار، ففي أعماق القبور في الظلام وفي الرطوبة، وعلى نفس مستوى المستنقعات، يخر المرء على ركبتيه على أرضية ضيقة مخنوقة، يحاصرها الماء غالبا، وفي أوقات المد العالي، وأوقات الجزر

١) (الكاتب فرانتس بلاي).

يصلها الماء بالفعل، على أن أسوأ ما في الأمر لهو فئران المياه الوحشية، وصرخاتها في أثناء الليل ، ونتشاتها، وقرصاتها (أعتقد أن على المرء أن يصارعها انتزاعا لطعامه)، وفوق هذا كله انتظارها فارغ الصبر أن يسقط الرجل الواهن القوى من فوق أرضيته الضيقة، هذا كما تعلمين هو ما تشبهه تلك القصص التي تضمنتها هذه الرسالة. الإرعاب، وما لا يمكن إدراكه، وفوق ذلك كله تجدينها أقرب ما تكون وأبعد ما تكون في وقت معا، كما يجد المرء ماضيه!

وهنالك ينحني المرء إلى حد لا يعود بعده ظهر المرء جميلا، وتتقلص قدما المرء في تشنج، ويرتعد المرء، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا، سوى أن يرقب الفئران السوداء الضخمة بينما هي تحدق النظر إليه وسط ظلام الليل، وفي النهاية لا يعود المرء يعرف إن كان مايزال جالساً هنالك أعلاهم على أرضيته، أو أنه وسطهم بالفعل في أسفل ، بينما تقح تلك الفئران بخراطيمها المفغورة، وأسنانها المشرعة، هيا هيا، لاتعودي إلى ذكر أمثال تلك القصص، فما فائدتها؟ سوف أتركك مع مثل تلك الحيوانات الصغيرة لكن فقط على شرط أن تطارديها إلى خارج المنزل.

ولم يعد ثمة ذكر للطبيب على الإطلاق؟ وأنت قد وعدت وعدا حارا بأنك ستذهبين لزيارته على أنك تحفظين وعدك على الدوام فهل لمجرد أنك لم تعدي تلاحظين بعد أثر الدم، كان هذا هو السبب في عدم ذهابك إليه؟ إنني لا أريد أن أتخذ من نفسي نموذجا تحتذينه، إنك أكثر مني صحة بما لا يقاس، وسوف أبقى أنا إلى الأبد السيد الذي يدع حقيبته تحمل عنه. وهو ما لا يشكل على الرغم من ذلك تغييرا في المرتبة، ذلك أنه يجيء قبل كل شيء السيد الذي يدعو الحمال ثم يأتي الحمال، وبعد ذلك فحسب يأتي السيد الذي يسأل الحمال أن

يحمل حقيبته، وإلا فإنه سينهار إن لم يحملها عنه، حتى أنه حدث أخيرا - أخيرا بينما كنت أسير عائدا إلى المنزل من المحطة أن الحمال وهو يحمل حقيبتي قد شرع من تلقاء نفسه دون أن أشير إلى أى شئ يدعوه إلى ذلك شرع يعزينى من تلقاء نفسه قائلا، إنه متأكد من أننى أعرف كيف أقوم بأداء الأعمال التى لا يمكنه هو أن ينجزها، وأن حمل الحقائب كانت مهنته التى لم يكن قد قصد إلى أن يمتهنها إلخ ... وكانت هناك فى حقيقة الأمر ثمة أفكار تمر بخاطرى كان حديثه ذاك جوابا - لا يكفي بالمرة - للرد عليها؛ إلا أننى لم أكن قد عبرت عنها في وضوح - وعلى هذا فإننى لن أقارن نفسي بك فى هذا المقام، إلا أننى لا يسعنى.أن أكف عن التفكير فيما حدث لي، وأن هذه الأفكار مرهقة، وعليك أن تذهبى إلى الطبيب. لقد كان ذلك منذ ثلاث سنوات مضت. ولم أكن قد أصبحت مصابا بالسل بعد. ولم يكن ليرهقنى شئ، وكان يمكننى أن أواصل السير إلى الأبد، ففى تلك الأيام لم يكن السير ينتهى بى إلى حدود طاقتى (وكان التفكير يشغلنى من ناحية أخرى طوال الوقت)، عندما بصقت فجأة فى شهر أغسطس، وكان الجو حاراً، جميلاً، وكل شئ خارج رأسى كان غاية فى النظام، وبينما كنت فى حمام السباحة الأهلى، بصقت شيئا أحمر اللون. كان هذا شيئا غريبا، ومثيراً، ألم يكن كذلك؟، ونظرت إليها لفترة؛ ثم نسيتها بسرعة. ثم حدثت مراراً بعد ذلك، وكان فى استطاعتى كلما أردت أن أبصق؛ أن أبصق شيئا أحمر اللون، وكان ذلك يتوقف على رغبتي. ثم لم يعد ذلك الأمر مثيراً للاهتمام، بل لقد أصبح باعثا على الضيق، ثم نسيته مرة أخرى، فلو أننى كنت فى ذلك الوقت قد ذهبت فى الحال إلى الطبيب، حسنا

ربما كان كل شئ قد أصبح على ما يرام كما قد كان الحال بدون الطبيب فيما لو أن أحداً في ذلك الوقت لم يكن قد علم بأمر الدم؛ ولا حتى أنا نفسي كنت قد علمت بأمره في الحقيقة، ولم ينزعج أحد، لكن ثمة شخصاً ما قد رُوِّعَ الآن، ولهذا أرجوك أن تذهبي إلى الطبيب.

غريب من زوجك أن يقول إنه سيكتب لي هذا وذاك، وماذا عن ضربي، وعن خنقي؟ إنني لست أفهم هذا، حقا. إنني أصدقك بالطبع تمام التصديق، لكنه من المستحيل بالنسبة لي استحالة بالغة أن أتصور ذلك، حتى أنني كنتيجة لذلك لا يمكنني أن أشعر بشئ يتعلق بالأمر، كما لو لم يكن الأمر سوى قصة غريبة للغاية، وبعيدة. كما لو أنك كنت هنا وقلت «والآن، في هذه اللحظة؛ إنما أنا في ڤيينا، وأن هنالك صرخات – وهكذا»، وأننا قد تطلعنا معا من النافذة في اتجاه ڤيينا وبالطبع لم يكن ليوجد هناك أدنى سبب يدعو إلى الهياج.

ثمة هنالك شئ آخر: عندما أتحدث عن المستقبل، ألم يحدث لك أحياناً أن نسيت أنني يهودي؟ «في وضوح، وبغير تعقيد». إن اليهودية لتظل خطرة، حتى وهي تحت قدميك.

***

الأربعاء

إنني سوف أتجاوز ما كتبته عن رحلتي بقولك: «إنك لتنتظر حتى تصبح ضرورية بالنسبة لك»، سوف أتجاوزه أولا: لأنه أمر قد انقضى وقته، وثانيا لأنه أمر مؤلم، على الرغم من أن له في الحقيقة بعض ما يبرره وإلا فلماذا إذن كانت رسائل مساء السبت وصباح الأحد يائستين إلى هذا الحد؟، وثالثاً: لأننا ربما يرى أحدنا الآخر

يوم السبت، (لا يبدو عليك أنك قد تسلمت أولى البرقيات الثلاث في صباح الاثنين، وآمل أن تكوني قد تسلمت البرقية الثالثة في حينها).

إنني أفهم اليأس الذي تعانينه بخصوص رسالة والدك بقدر ما يتاح لأية تأكيدات جديدة أن تحيي في نفسك اليأس بشأن صلة الدم المباشرة هذه، اليأس إلى هذا الحد بالغ الإرهاق والذي استمر بالفعل لهذا المدى الطويل.

أنت لا يسعك حقا أن تقرأي في هذه الرسالة حقائق جديدة، ولست أستطيع أنا نفسي، وأنا لم يحدث لي قط أن قرأت رسالة من والدك، أن أقرأ أي شيء جديد فيها. إنها لتصدر عن القلب، وإنها لمستبدة، وأعتقد أنه لابد لها أن تكون مستبدة، وذلك لكي تفعم القلب ليس للتوقيع حقا سوى قليل أهمية؛ إنه لينوب عن الطاغية فحسب، وفوق التوقيع ، بالإضافة إلى ذلك تقوم لفظة (أسف) ولفظتا (حزين للغاية) وإنها لتمحو كل شيء.

وربما يكون قد أصابك الخوف من ناحية أخرى بسبب التفاوت بين هذه الرسالة وبين رسالتك، حسنا أنا لم أر رسالتك، لكنني أرجوك أن تلاحظي التفاوت بين تأهبه (الطبيعي) وبين عنادك (غير المفهوم).

والآن تساورك الشكوك بخصوص الرد؟ أو أن الشكوك بالأحرى لتنتابك بالفعل، ذلك أنك قد كتبت بأنك تعلمين الآن ما الذي ينبغي عليك أن تجيبي به على تلك الرسالة. إن هذا لغريب. فلو كنت قد أجبت عليها بالفعل، وكان عليك أن تسأليني: «ما الذي تظنني قد كتبته رداً عليها؟»، لكنت أقول بلا تردد إنني أرى ما قد أجبت أنت به.

ليس ثمة شك بالطبع في أنه ليس ثمة أي اختلاف من وجهة نظر

والدك بين زوجك وبيني، ذلك أننا كلانا لنا فيما يرى الأوربيون نفس الوجه الزنجي؛ لكن بصرف النظر عن هذه الحقيقة التي ليس ثمة ما يمكن أن يقال بشأنها الآن على نحو محدد؛ لماذا كان لهذا أن يكون جزءاً من إجابتك (ردك على والدك)، ولماذا يكون من الضروري أن تكذبي؟

أعتقد أنه كان يمكنك أن تجيبي فقط بما يمكن للشخص - الذي يرقب حياتك باهتمام زائد، وبقلب نابض، ويكاد يلغي في سبيل ذلك كل اهتمام له بأي شئ آخر - أن يقوله لوالدك، لو كان له أن يتحدث عنك بنفس المزاج؛ ذلك أن «كل الاقتراحات»، وكل «الشروط المحددة» ليس لها ثمة معنى، لأن ميلينا إنما تحيا حياتها، ولا يمكنها أن تحيا حياة أخرى غير حياتها هذه. فعلى الرغم من أن حياة ميلينا، إنما هي حياة حزينة، إلا أنها مع ذلك «حياة صحية وهادئة كالحياة في مصحة؛ وأن كل ما ترجوه منك ميلينا هو أن تتقبل هذا، وإلا فإنها لا تسألك شيئا - وإنها لا تنتظر منك قط (تدبيراً ما). إن الشئ الوحيد الذي تسألك إياه، هو ألا تنغلق على نفسك عنها عمداً، بل تسألك أن تتبع قلبك، وأن تتحدث إليها حديث إنسان إلى إنسان؛ حديث الند للند. لتفعل هذا مرة، وسوف تخلص ميلينا من الكثير من (الحزن) الذي يشيع في حياتها، ولن يكون عليك بعد أن تكون (آسفا) من أجلها».

ما الذي تعنينه بقولك إن توقيت ردك على والدك يصادف يوم عيد ميلادك؟ إنني بدأت أخاف حقاً من عيد الميلاد، وأرجوك سواء رأينا أحدنا الآخر يوم السبت أم لا؛ أن تتصلي بي بالبرق على أية حال

فى مساء العاشر من أغسطس.

لو أنك أمكنك فقط أن ترتبى الأمر بحيث يمكن لك أن تتواجدى فى جموند يوم السبت أو يوم الأحد على الأقل!
إن ذلك لهو حقاً أمر ضرورى للغاية.

فى هذه الحالة ستكون رسالتى هذه هى بالفعل الرسالة الأخيرة التى تتسلمينها قبل أن يرى أحدنا الآخر وجهاً لوجه، وستراك عيناى اللتان لا يشغلهما شئ لمدة شهر. (حسنا؛ نعم ستشغلهما قراءة الرسائل، والتطلع من خلال النافذة).

إن المقال ليفضل كثيرا أصله فى الألمانية، على الرغم من أنه لاتزال به بعض الفجوات، وإلا فإن المرء ليتقدم فى قراءته كما لو كان يسير فى مستنقع، فكل قدم ترفع تشكل صعوبة بالغة. لقد قال لى أحد قراء (تريبونا) أخيرا إنه يظن أن على أن أقوم بدراسات مطولة فى مستشفى للأمراض العقلية، قلت له: «فى مستشفاى الخاصة للأمراض العقلية»، على حين أكمل هو حديثه قائلا فى محاولة لمدحى: «مستشفاى الخاصة للأمراض العقلية». (ثمة موضعان أو ثلاثة يلتبس فيها المعنى فى الترجمة).

***

مساء الأربعاء

الآن فقط فى حوالى الساعة العاشرة مساء، كنت فى المكتب، وكانت برقيتك هناك. لقد وصلت بغاية السرعة؛ حتى لقد راودنى

الشك في أن تكون هي ردك على برقيتي التي أرسلتها إليك بالأمس. ومع ذلك فهي تقول: «إرسل الأربع ثمان، الساعة الحادية عشرة صباحاً»، ولقد كانت هناك بالفعل في الساعة السابعة صباحاً، وعلى هذا فقد استغرق وصولها ثماني ساعات فقط. إن أحد أوجه العزاء التي تمنحني إياها تلك البرقية في حد ذاتها هي أننا على الأقل من الناحية الجغرافية، مازلنا قريبين تقريبا أحدنا من الآخر: ذلك أنني يسعني أن أتسلم رداً منك في أقل من أربع وعشرين ساعة. وليس لهذا الرد أن يكون دائماً: لا ترحل.

يتبقى هنالك مايزال ثمة احتمال: ربما لم تتسلمي بعد رسالتي التي شرحت فيها أنه ليس عليك أن تقضي الليلة بعيدا عن فيينا، لكن عليك أن تحضري إلى جموند، لكن لعلك أن تكوني قد اكتشفت هذا بنفسك، وفي هذه الحالة فإنني مازلت أتعجب، ما إذا كنت بناء على هذا الاحتمال الضئيل سأحاول أن أضمن لنفسي تذكرة قطار سريع، وتأشيرة صالحة لمدة ثلاثين يوما (هي رحلة عطلتك).

لعلني لا أريد أن أفعل ذلك، فعلى الرغم من أن برقيتك بالغة التحديد، إلا أنه يبدو أن لديك ثمة اعتراضات على الرحلة، ليس من السهل أن تتحولي عنها فانتبهي الآن يا ميلينا، إن الأمر حقاً ليس بالغ الأهمية، فإنني وحدي لم يكن يسعني أن أجرؤ (في الحقيقة لمجرد أنني لم يسعني مطلقا أن أقدر كيف يمكن بهذه البساطة، أن يتم ترتيب لقاء لنا)، لم يكن يسعني أن أجرؤ على أن أحلم بمحاولة رؤيتك مرة أخرى (بالفعل) بعد أربعة أسابيع، فلو تم لقاؤنا فأعزو الفضل فيه كلية إليك، وعلى هذا يكون لك الحق (بصرف النظر عن حقيقة أنك إن لم تحضري، فلن يمكن احتمال ذلك، وهذا ما أعلمه)

لهذا السبب فى إلغاء ذلك الاحتمال نفسه الذى خلقته أنت – هذا ما لا أجدنى فى حاجة إلى ذكره. إن المشكلة هى فقط فى أنه إذا كان فى الإمكان أن يتم بمثل ذلك الفرح حفر ذلك السرداب المستقيم المؤدى إليك منطلقا من الفجوة المظلمة، وأنه لو تسنى لكل ما يمكن أن يكون عليه المرء أن يكون قد تم إلقاؤه تدريجيا فى داخل ذلك السرداب الذى ربما (بل بالتأكيد، بالتأكيد، بالتأكيد، يقولها السرداب فوراً فى حماقة)، ربما يؤدى إليك، والذى قد يؤدى بى فجأة إلى جحر لا يمكن اختراقه، بدلا من أن يؤدى بى إليك، أنت: فأرجوك إذن ألا تحضرى!، إذا كانت النتيجة التى ننتهى الآن إليها، أن المرء بكل ما قدر له أن يكون عليه، عليه مرة أخرى أن يقفل راجعا فى تلكؤ متسكعا بطول السرداب (ذلك السرداب الذى كان قد تم حفره بتلك السرعة البالغة)، وأن يردمه، وهو يقفل راجعاً.

حسناً، إن فى هذا ما يؤلم إلى حد ما، إلا أنه لا يمكن أن يكون سيئا إلى هذا الحد؛ ما دام يسمح للمرء بأن يتناوله بالكتابة تفصيلاً على هذا النحو. وسيصنع المرء ثانية ممرات جديدة فى نهاية الأمر ستحفرها دودة الخلد العتيدة تلك، التى هى أنا !

أسوأ من ذلك كثيرا حقيقة أن اللقاء سيكون لقاء بالغ الأهمية، لأسباب أعتقد أننى قد أشرت إليها بالأمس. وبهذا الخصوص لا يمكن استبدال اللقاء بأى شئ آخر. وهذا هو فى الحقيقة السبب فى أننى حزين بخصوص البرقية. لكن ربما تضمنت رسالتك إلى بعد الغد، شيئاً من العزاء.

لى طلب واحد فقط: فى رسالتك التى تسلمتها اليوم توجد

جملتان غاية فى القسوة الأولى – «وأنت لن تأتى لأنك تنتظر يوماً يكون حضورك فيه ضرورة بالنسبة لك»، هذه الجملة لها عذر ما، وإن كان أبعد من أن يكون مبرراً كافياً، أما الجملة الثانية فهى – «وداعاً، يا فرانتس»، ثم يعقب ذلك، حتى يمكنك فقط أن تتسمعى وقع الجملة: «وطالما أنه ليس ثمة فائدة هنالك ترجى من إرسال البرقية الزائفة، فإننى لن أرسلها» – [فلماذا أرسلتها إذن؟]، وهذه الـ (وداعاً يا فرانتس!) ليس لها أيضا ما يبررها. هاتان هما الجملتان. فهل يمكنك يا ميلينا على نحو ما أن تسحبيهما؟، اسحبيهما رسمياً، ويمكنك أن تسحبى جملتك الأولى جزئياً إذا شئت ذلك، أما الثانية، فتسحبيها كلية مهما يكن من أمر!.

لقد نسيت أن أرفق بهذا رسالة والدك هذا الصباح. اغفرى لى، وقد لاحظت أيضا؛ بصورة عارضة إنها كانت رسالته الأولى إليك فى ثلاث سنوات، وفهمت الآن فحسب ذلك الانطباع الذى لابد قد تركته فى نفسك، إن هذه الحقيقة، تجعل رسالتك إلى والدك بالطبع، ذات مغزى أعمق، ولابد أن يكون ثمة ما هو جديد فيها أساساً فى نهاية الأمر.

نعم، ثمة هنالك ماتزال جملة ثالثة فى رسالتك لعلها أن تكون موجهة ضدى، أكثر مما هى موجهة ضد هؤلاء الذين ورد ذكرهم فى رسالتك، إنها تلك الجملة التى تتحدث عن الحلوى التى تضايق المعدة.

***

الخميس

وعلى هذا فاليوم؛ وعلى نحو غير متوقع بالإضافة إلى ذلك، هو يوم مذعور لا رسائل فيه. وعلى هذا فرسالتك يوم الاثنين كانت تعنى بغاية الجد أنه لم يكن ليسعك أن تكتبى فى اليوم التالى. حسنا، لقد اعتبرت برقيتك شيئا أتساند إليه.

(فى الهامش الأيسر): لست أعارض مطلقا رحلة عطلتك، كيف يمكننى أن أعارضها، وما الذى يجعلك تظنين هذا؟

الجمعة

رهيبة بدون رسائلك. إذن لما كان ذلك صحيحاً، ذلك أنها لتكون مرعبة الثقل فقط، كان ثقل السفينة بالغاً، وكانت جرتها فى المياه عميقة غاية العمق، ومع ذلك فلقد أبحرت مع تيارك عندما ارتد جزراً. شئ واحد فقط لا يمكننى احتماله يا ميلينا، دون عونك الخاص: ذلك هو «الخوف»، وإننى لضعيف غاية الضعف بالنسبة لهذا، حتى أننى لا أجدنى قادراً حتى على أن أرى نهاية ذلك الخوف الرحب، ذلك أنه يجرفنى بعيداً.

إن ما قلته أنت عن يارميلا، لهو مجرد نوبة من نوبات الضعف هذه التى تنتاب القلب، لقد توقف قلبك لدقيقة واحدة عن أن يكون مخلصا لى، ثم إنك لتدركين فكرة من هذا القبيل. فهل مازلنا اثنين بهذا المعنى؟ وهل «خوفى» أنا يمكن أن يكون شيئا ما من الأشياء، يختلف اختلافاً بعيداً عن خوف امتهان النفس؟

وها أنذا أقاطع استرسال الحديث مرة أخرى؛ ذلك أننى لن يسعنى أن أكتب لك بعد ذلك، أثناء وجودى فى مقر عملى.

إن الرسالة الكبيرة التى أعلنت عنها لتبعث الخوف فى نفس المرء، لو لم تكن هذه الرسالة مؤكدة كل هذا التأكيد، فما الذى سوف تتضمنه؟
إذا وصلتك النقود، فدعينى أعلم ذلك فى الحال، فإذا كانت قد فقدت، فإننى سوف أرسل المزيد، فإن فقدت هذه أيضا فسوف أرسل المزيد مرة أخرى، وهكذا؛ حتى لا يتبقى لدينا منها شئ، وعندئذ فحسب، سيكون كل شئ على ما يرام.
ف
إننى لم أحصل على الزهرة، ويبدو أنك فى اللحظة الأخيرة قد اعتبرت عدم حصولى عليها، أمر حسن للغاية بالنسبة لى.

***

الجمعة

وهكذا فأنت تشعرين بالمرض كما لم تشعرى به منذ أن عرفتك؟ وهذه المسافة التى لا يمكن اجتيازها، بالإضافة إلى آلامك لتجعلنى أشعر كما لو كنت أنا فى حجرتك وأنك لا تكادين تتعرفين على، وأننى أتجول بلا حيلة ذهاباً وجيئة بين الفراش والنافذة، ولا توجد لدى ثقة ما فى أى شخص، ولا فى أى طبيب، ولا فى أى علاج، ولا أعرف شيئا، وأحدق فى السماء الكئيبة التى بعد كل مرح السنوات المنقضية وبهجتها، تتبدى للمرة الأولى فى يأسها الحقيقى، عديمة الحيلة، مثلى تماماً. إنك تستلقين فى الفراش؟ فمن الذى يحضر لك طعامك؟، وما نوع هذا الطعام؟، وإذا سنحت لك الفرصة، اكتبى لى

مرعبة الثقل فقط، كان ثقل السفينة بالغاً، وكانت جرتها في المياه عميقة غاية العمق، ومع ذلك فلقد أبحرت مع تيارك عندما ارتد جزراً. شئ واحد فقط لا يمكنني احتماله يا ميلينا، دون عونك الخاص: ذلك هو «الخوف»، وإنني لضعيف غاية الضعف بالنسبة لهذا، حتى أنني لا أجدني قادراً حتى على أن أرى نهاية ذلك الخوف الرحب، ذلك أنه يجرفني بعيداً.

إن ما قلته أنت عن يارميلا، لهو مجرد نوبة من نوبات الضعف هذه التي تنتاب القلب، لقد توقف قلبك لدقيقة واحدة عن أن يكون مخلصا لي، ثم إنك لتدركين فكرة من هذا القبيل. فهل مازلنا اثنين بهذا المعنى؟ وهل «خوفي» أنا يمكن أنْ يكون شيئا ما من الأشياء، يختلف اختلافاً بعيداً عن خوف امتهان النفس؟

وها أنذا أقاطع استرسال الحديث مرة أخرى؛ ذلك أنني لن يسعني أن أكتب لك بعد ذلك، أثناء وجودي في مقر عملي.

إن الرسالة الكبيرة التي أعلنت عنها لتبعث الخوف في نفس المرء، لو لم تكن هذه الرسالة مؤكدة كل هذا التأكيد، فما الذي سوف تتضمنه؟

إذا وصلتك النقود، فدعيني أعلم ذلك في الحال، فإذا كانت قد فقدت، فإنني سوف أرسل المزيد، فإن فقدت هذه أيضا فسوف أرسل المزيد مرة أخرى، وهكذا؛ حتى لا يتبقى لدينا منها شئ، وعندئذ فحسب، سيكون كل شئ على ما يرام.

ف

إنني لم أحصل على الزهرة، ويبدو أنك في اللحظة الأخيرة قد

اعتبرت عدم حصولي عليها، أمر حسن للغاية بالنسبة لي.

***

الجمعة

وهكذا فأنت تشعرين بالمرض كما لم تشعري به منذ أن عرفتك؟ وهذه المسافة التي لا يمكن اجتيازها، بالإضافة إلى آلامك لتجعلني أشعر كما لو كنت أنا في حجرتك وأنك لا تكادين تتعرفين علي، وأنني أتجول بلا حيلة ذهاباً وجيئة بين الفراش والنافذة، ولا توجد لدي ثقة ما في أي شخص، ولا في أي طبيب، ولا في أي علاج، ولا أعرف شيئا، وأحدق في السماء الكئيبة التي بعد كل مرح السنوات المنقضية وبهجتها، تتبدى للمرة الأولى في يأسها الحقيقي، عديمة الحيلة، مثلي تماماً. إنك تستلقين في الفراش؟ فمن الذي يحضر لك طعامك؟، وما نوع هذا الطعام؟، وإذا سنحت لك الفرصة، اكتبي لي شيئا عن نوبات الصداع هذه التي تنتابك. ذات مرة كان لي صديق، يهودي شرقي، كان يعمل ممثلاً، وكانت تنتابه كل ثلاثة شهور نوبة صداع تستمر أياماً عدة، أما فيما عدا ذلك فقد كان في صحة جيدة. لكنه عندما كانت تداهمه أيام الصداع تلك، كان يحدث له أن يتوقف في وسط الشارع، ويستند إلى حوائط المنازل، ولم يكن هناك ما يمكن للمرء أن يفعله من أجله سوى أن يتمشى ذهاباً وجيئة طوال نصف الساعة تلك، وأن ينتظره.

إن الرجل المريض ليهجره الصحيح، لكن الشخص الصحيح يهجره المريض أيضا! هل هي متكررة بانتظام هذه الآلام؟ وماذا عن الطبيب؟ ومنذ متى أصابتك هذه الآلام؟ ولعلك تتناولين الأقراص الآن أيضاً؟ إن هذا لسيئ، سيئ ولعله ألا يكون مسموحاً لي حتى بأن

أقول: يا طفلتي الصغيرة.

مما يؤسف له أن رحيلك قد تأجل مرة أخرى، والآن فسوف ترحلين فقط يوم الخميس، أسبوع! حسنا، إنها لمتعة أن أراك تستردين صحتك هناك بين البحيرة، والغابة، والجبال، لن يكون من حسن طالعي أن أتمتع بهذا. لكن إلى أي حد أبعد من هذا تراني أرغب في الاستزادة من حسن الطالع، إنني لرجل شره، شره؟ وإنه لما يؤسف له أنه سيكون عليك أن تواصلي تعذيب نفسك إلى هذا الحد البالغ، في ڤيينا.

عن دافوس، سوف نتحدث في وقت آخر، لستُ أريد أن أذهب إلى هناك لأن المكان بعيد غاية البعد، وباهظ النفقات، ولأن الذهاب إلى هناك لا يشكل ضرورة قصوى. فإذا قدر لي أن أغادر براغ، ولربما غادرتها، فإن أفضل ما قد أفعله سيكون أن أذهب إلى إحدى القرى، ولكن من ذا الذي سيستضيفني من ناحية أخرى؟ إنه ليتعين علي مايزال أن أتدبر هذا، على أنني لن أرحل قبل أكتوبر.

التقيت الليلة الماضية بشخص يدعى (شتاين)[1]. ربما تعرفينه عن طريق المقاهي، طالما كان يقارن دائما بالملك ألفونسو. إنه مساعد المدعي العام الآن، قال لي إنه في غاية السعادة للقائي، و كان في حاجة إليّ لكي يتحدث معي حديثا يتعلق بمهنتنا، و قد انتوى أن يتحدث إلي تليفونيا، في اليوم التالي: «حسنا، عن ماذا؟» – «عن حالة من حالات الطلاق، لك بها أنت أيضا ثمة علاقة» – أعني أنه كان يسألني أن أتدخل. «كيف؟»، كان علي حقاً أن أضع يدي على قلبي. ثم اتضح بعد ذلك أنها كانت حالة طلاق أحد والدي «الشاعر»

١) (محامي من براغ، هو دكتور پاول شتاين).

وأن الأم التى لا أعرفها، قد طلبت من دكتور شتاين، أن يطلب إلى أن استخدم نفوذى لدى «الشاعر»، لكى يعاملها (الأم)، على نحو أفضل قليلا، وألا ينتهرها بمثل تلك القسوة التى ينتهرها بها.

وإنه لزواج غريب بالمناسبة. تصورى، كانت المرأة قد تزوجت بالفعل مرة من قبل، وخلال ذلك الزواج السابق أنجبت طفلاً (هو نفسه الشاعر المذكور سابقاً) من زوجها الحالى. وعلى هذا يحمل الشاعر اسم الزوج الأول، ولا يحمل اسم والده. ثم تزوجا (تزوجت الأم بالأب)، وقد تم طلاقهما الآن ثانية بعد سنوات طويلة من حياتهما الزوجية، بناء على رغبة الأب، والد الشاعر، (ولقد تم التصريح لهما بالطلاق بالفعل): لكن لما كانت المرأة، فى ظروف أزمة المساكن الحالية، لم تتمكن من العثور على شقة، فإنهما يعيشان معا لهذا، كزوجين، إلا أن الزوج؛ وعلى الرغم من تلك الحياة الزوجية التى يمارسانها معاً (لعدم وجود شقة أخرى) يرفض الصلح معها، أو أنه يرفض حتى على الأقل أن يتخلى عن متابعة الإجراءات الخاصة بإتمام الطلاق؛ ألا تبلغ بنا عواطفنا نحن البشر درجة المهزلة؟

وإننى لأعرف الأب، وهو شخص رقيق، حساس، قدير للغاية، ورحيم!

ارسلى إلى مهما كان الأمر قائمة بكل ما تريدينه، وكلما طالت محتويات تلك القائمة، كلما كان ذلك أفضل ولسوف أتجول زاحفاً على صفحات كل كتاب تطلبينه، وسأتسلق كل ما سوف يرد فى قائمتك هذه، لكى يتسنى لى أن أرحل فى كل جزء منها إلى ڤيينا (ليس ثمة اعتراض لدى المدير على رحيلى على هذا النحو)،

فاسمحي لي بكل إمكانيات الارتحال إليك بقدر الإمكان، ويمكنك أن تعيريني مقالاتك التي ظهرت أخيرا في (تريبونا).

إن أمامي ما أتطلع إليه غالبا بالمناسبة ، وهو عطلتك تلك، فيما عدا الاتصال البريدي السيئ. سوف تكتبين إلي باختصار، وتصفين لي تلك العطلة، ألن تفعلي ذلك – هل ستكتبين لي عن حياتك، وعن شقتك. وعن نزهاتك، وعن المنظر الذي تطلين عليه من نافذتك، وعن طعامك، وذلك، حتى يتاح لي أن أشاركك حياتك، مشاركة ما، ولو صغيرة.

***

السبت

إنني شارد في هذه اللحظة وحزين، فلقد فقدت برقيتك – أعني أنها لا يمكن أن تكون قد فقدت، لكن حقيقة أن علي أن أبحث عنها، لهي حقيقة سيئة بما يكفي. إلا أنها غلطتك أنت في الواقع، فلو لم تكن البرقية بالغة الجمال إلى ذلك الحد لما ظللت ممسكا بها في يدي طوال الوقت.

إلا أن ما ذكرته أنت فيها عن الطبيب هو فقط ما أراحني، وعلى هذا فليس الدم أمراً ذا بال – حسن، لقد أعربت أنا نفسي عن ارتيابي بالمثل، وأنا رجل الطب العتيد. والآن ما الذي قاله الطبيب عن علة الرئة؟ إنني واثق من أنه لم يصف لك التضور جوعا، أو حمل الأمتعة كعلاج لها. أما عن مواصلتك العناية بأمري، فهل وافقك هو على ذلك؟ أو أنه لم يرد ذكري على الإطلاق؟ لكن ماذا يمكن أن يرضيني إذا لم يكن الطبيب قد عثر لي على أي أثر؟

وهل الأمر ليس أمراً خطيراً حقاً؟ وهل لا يوجد لديه ما يمكن أن يقال فيما عدا أن يرسلك إلى الريف لمدة أربعة أسابيع؟ إنه لأمر هين

فى الحقيقة.

لا، ليس لدى المزيد مما يمكننى أن أعترض به على الرحلة أكثر مما لدى من إعتراض على حياتك فى فيينا، فارحلى، ارحلى أرجوك! فلقد كتبت لى ذات مرة عن أملك الذى تعلقينه على هذه الرحلة؛ وإن هذا ليعد مبرراً كافياً لى أنا أيضاً حتى أريد لك القيام بتلك الرحلة.

ثم الرحلة إلى فيينا مرة أخرى. إن الأمر ليصبح أكثر سوءاً، عندما تكتبين إلى عنها جدياً، عندئذ تشرع الأرض هنا حقاً فى الارتجاج، وأجدنى أنتظر قلقاً لأرى إذا كانت ستقذف بى خارجاً. إلا أن شيئا لا يحدث أما فيما يتعلق بالعقبات الخارجية – ذلك أننى لن أتحدث عن العقبات الداخلية، ذلك أنها وإن كانت أقوى، فهى لا تعوقنى، لا لأنى قوى، بل لأننى أبلغ من الضعف حداً لا يسعنى معه أن أتيح لها بأن تعوقنى – لقد كتبت الآن لتوى أن تلك الرحلة يمكن أن تتم بالفعل بمجرد كذبة، وأنا أخاف الكذب، ليس كما يخافه الرجل الشريف بل كما يخافه تلميذ، ولدى إحساس. بصرف النظر عن هذا، أو أننى أخمن على الأقل إمكانية احتمال أن يجئ وقت ما يكون على فيه – بدون شروط، وبصورة محتومة – أن أجئ إلى فيينا بناء على رغبتك أو بناء على رغبتى، لكننى مرة أخرى لا يمكننى أن أكذب، ولو حتى كتلميذ طائش، وعلى هذا فإن التحفظ الذى أتحفظه لهو احتمال أن أكذب كذبة ما، وإننى لأحيا متحاشيا هذه الكذبة، كما عشت على وعدك بالحضور فى الحال! إن هذا لهو السبب فى أننى لن أحضر الآن؛ وبدلا من اليقين الذى كان متوفرا فى هذين اليومين، وأرجوك ألا تصفيهما لى يا ميلينا، فإنك لتوشكين على تعذيبى بذلك (ذلك أنها لا تشكل بعد ضرورة ما، وإنما تشكل

احتياجاً بلا حد) - بدلا من ذلك اليقين الذى توفر لى فى اليومين المذكورين؛ لدى إمكانيتهما الأبدية.

أما عن الزهور؟ فإنها قد ذبلت الآن بالطبع؟ هل لم يسبق أن كانت لديك زهور (اتجهت فى الطريق الخطأ)، كما فعلت هذه الزهور فى حالتى هذه؟ إن هذا أمر لا يسر بالمرة، ويمكننى أن أقول لك هذا.

لا أريد أن أتدخل فى المعركة الدائرة بينك وبين (ماكس)[1]:، سأقف على جانب لأرى وجهة نظر كل منكما - وأبقى سالماً. لاشك أنك على حق فيما تقولينه، إلا أننا نتبادل أماكننا الآن. إن لك وطنك، ويمكنك أيضا أن تنبذيه، ولعل هذا أيضا أن يكون هو أفضل ما يمكن أن يفعله المرء بموطنه، وخاصة طالما كان المرء لا يمكنه أن ينبذ فى وطنه تلك الأشياء التى لا يمكنه أن ينبذها. لكنه لا وطن له، ولهذا فليس لديه ما ينبذه، وعليه أن يفكر طوال الوقت فى البحث عنه أو إقامته، طوال الوقت، سواء كان يتناول قبعته من على مشجب، أو كان مستلقيا فى الشمس فى حمام السباحة، أو بينما هو يكتب ذلك الكتاب الذى يتعين عليك أن تقومى بترجمته - وربما يكون فى هذه الحالة أقل ما يكون توترا، لكن بالنسبة لك أنت أيتها العزيزة البائسة، كم هو هائل عبء ذلك العمل الذى ترهقين به نفسك، إن عنقك عار، وأنا أقف خلفك، وأنت لا تدرين بذلك، أرجوك ألا تنزعجى لو أحسست بشفتى تلثمان عنقك من الخلف، لست أعنى أن أقبلك ذلك أن حبى لك إنما هو حب عديم الحيلة) - نعم، إن على ماكس أن يفكر فى ذلك طوال الوقت، وحتى وهو يكتب رسالة إليك.

والغريب هو أنك قد هزمت أمامه فى التفاصيل، على الرغم من

١) (ماكس برود وهو صهيونى نشط على الدوام).

أنك بصفة عامة قد تحصنت ضده تمام التحصين، لقد كتب لك بوضوح عن حياتى مع والدى، وكتب لك عن دافوس. وما كتبه فى الحالتين خاطئ، لا شك أن حياتى مع والدى هى حياة سيئة، لكنها ليست الحياة اليومية فقط، ليست الاستكانة لتلك الحلقة من الحنان والحب - نعم إنك لا تعرفين شيئا عن رسالتى إلى والدى - طنين الذبابة وهى على غصن الليمون. وعلى الرغم من أن لهذا أيضا جانبه الطيب، فإنه لا يخرج عن أن رجلا ما يحارب فى الماراثون، بينما يحارب الآخر فى غرفة الطعام. إن إله (الحرب) وإلهة (النصر) ليوجدان فى كل مكان، لكن ما هو الخير الذى يمكن أن ينطوى عليه الرحيل تلقائيا عن المكان، خاصة لو أننى واصلت تناول طعامى فى المنزل وهو ما يبدو الآن بلا شك أفضل بالنسبة لى. أما عن دافوس فسأكتب لك يوما آخر. إن الشئ الوحيد الذى أؤيده فيما يتعلق بدافوس؛ إنما هو تلك القبلة عند رحيلى.

***

السبت

عطوف، وصبور، هل هذه هى حقيقتى؟ إننى لست أدرى حقاً أن مثل هذه البرقية قد أنعشت الجسد كله حقاً، إننى أعلم هذا، وإن الأمر لهو فى النهاية مجرد برقية، وليست يدا ممتدة إلى.

إلا أن ذلك يبدو حزينا أيضا، يبدو كصوت متعب صادر عن فراش المرض. وإنه لسئ أيضا، ولم تصلنى منك رسالة، يوم آخر بلا رسالة، فمن الذى يضمن لى أنك قد أرسلت البرقية بنفسك، وأنك لا تنفقين اليوم بطوله فى الفراش، هنالك فى تلك الحجرة التى أعيش فيها أكثر مما أعيش فى حجرتى؟

فى الليلة الماضية ارتكبت جريمة قتل من أجل خاطرك، حلم مخيف، وليلة سيئة، سيئة، وإن كنت لا أكاد أتذكر شيئا من التفاصيل.

والآن فحسب وصلتنى رسالة فى آخر الأمر، وإنها لواضحة حقا، حقا إن الرسائل الأخرى لم تكن أقل وضوحا منها، غير أن المرء لم يكن ليجرؤ على أن يتخلل ثنايا وضوح تلك الرسائل. بالمناسبة، كيف أمكنك أن تكذبى؟ ليس هذا الجبين مما يمكنه أن يكذب.

إننى بالتأكيد لا أنحى باللائمة على ماكس، مهما كان ما تضمنته رسالته، فقد كان ما تضمنته خاطئا، لا شئ، لا أحد، ولو كان هو أفضل الناس جميعا، يمكنه أن يتدخل بيننا. إن هذا أيضا لهو السبب فى أننى قد ارتكبت جريمة قتل فى تلك الليلة الماضية.

شخص ما، أحد أقاربى، قال فى سياق حديث لست أذكره، لكن يعنى بصورة أو بأخرى إن هذا الشخص أو ذاك لا يمكنه أن ينجز شيئا - وعلى هذا فقد علق هذا القريب فى النهاية ساخراً بقوله: «حسنا، لعل ميلينا يمكنها»، وعلى هذا فقد قتلته على نحو ما، وحضرت إلى المنزل فى هياج شديد، بينما تجرى أمى خلفى طول الوقت، حيث كان يجرى هنا أيضا حديث مماثل ، وفى النهاية صحت، وقد نال منى الغضب:

«لو قال أحد شيئا سيئا عن ميلينا، ولو كان هو (الأب) مثلا، أبى فسوف أقتله هو أيضا أو أقتل نفسى»، ثم استيقظت من النوم، غير أنه لم يكن نوما، ولا كانت يقظتى منه يقظة.

وأعود ثانية إلى الرسائل السابقة، فهى أساسا تشبه شبها

شديدا تلك الرسالة المرسلة إلى الفتاة ، ولم تكن رسائل الأمسيات سوى أحزان على رسائل الصباح - وذات أمسية كتبت أنت أن كل شئ قد يكون محتملا فيما عدا فقدانى لك - وكأن ما يلزم بالفعل ليس سوى ضغطة خفيفة، فيحدث المستحيل، ولعل هذه الضغطة كانت حقا فى الإمكان، وربما كانت قد حدثت بالفعل.

على أية حال: إن هذه الرسالة لهى عزاء، وكان ثمة بين الرسائل الأولى رسالة كانت وكأنها قد دفنت حية، وإن كانت تظن أنه ينبغى على المرء ألا يحرك ساكنا؛ ذلك أننى ربما كنت ميتا حقاً.

ولهذا فلا يدهشنى هذا كله، إننى أتوقعه، ولقد هيأت نفسى بقدر ما يسعنى، لكى أحتمله عندما يقع. والآن وقد وقع هذا فإن المرء بالطبع ليس على ما ينبغى من الاستعداد، ورغم عدم استعدادى . فإننى لم أنطرح أرضاً، ومن ناحية أخرى فما كتبته عن موقفك من الأمور الأخرى، وعن صحتك لهو أمر مزعج غاية الإزعاج، ويزيد كثيرا عن طاقتى على الاحتمال، حسنا لسوف نتحدث عن ذلك عندما تعودين من رحلتك، ولعل المعجزة التى تتوقعينها أن تحدث لك هناك بالفعل، أو تتحقق لك المعجزة الجسدية على الأقل.

ولدى بالإضافة إلى ذلك، فى هذا الخصوص من الثقة فيك، ما أرغب معه فى حدوث أية معجزات أخرى، وإننى لأستودعك أيتها المخلوقة المعجزة، المندفعة، المصونة، إلى الغابة، وإلى البحيرة، وإلى الطعام ، إن لم أكن أستودعك حقاً إلى كل شئ آخر.

وعندما أتمعن فى رسالتك - فلقد قرأتها مرة فقط على أية حال - وما كتبته عن حاضرك وعن مستقبلك، وما كتبته عن والدك، وما

كتبته عني فإنما يترتب على هذا فقط (ما قلته لك ذات مرة بوضوح تام) أن نكبتك الحقيقة ليست أحداً آخر سواى، سواى أنا وحدى - على حين أوضح أنا محدداً ذلك: بأنني أعتبر نفسي (سوء حظك) الخارجي فحسب - ذلك أنني لو لم يكن لي وجود، فلعلك أن تكوني قد غادرت ڤيينا بالفعل منذ ثلاثة شهور، فإن لم تكوني قد غادرتها منذ ثلاثة شهور مضت، فلعلك بلا شك كنت تغادرينها الآن. إنك لا تريدين أن تغادرى ڤيينا إنني لأعلم هذا وإنك لم تكوني لترغبي في مغادرتها إذا لم أكن قد وجدت في حياتك إلا أن المرء ليمكنه أن يقول عن هذا السبب بالذات - ناظرا إلى الأمر من قمة منظور عين الطائر - إنه سيكون بالطبع سببا ضمن أسباب أخرى، ذلك أن أهميتي العاطفية بالنسبة لك لتتألف من حقيقة أنني أجعل من الممكن لك أن تبقي في ڤيينا.

إلا أنه ليس للمرء أن يبعد بهذا الشوط بعيدا كل هذا البعد، وليس له أن يستسلم لمثل تلك المراوغات المعقدة، ذلك أنه ليكفي جدا أن يضع المرء في اعتباره حقيقة أنك قد انفصلت بالفعل ذات مرة عن زوجك، وأنه في وسعك تحت الضغط المتزايد الذي يضغطه عليك الحاضر؛ أن تنفصلي عنه بسهولة، لكنك ستنفصلي عنه بالطبع فحسب لمجرد الانفصال، وليس بسبب شخص ما آخر.

على أن كل هذه الاعتبارات لا تؤدى حقا إلى أى شئ آخر سوى الصراحة.

سوف أحضر الأشياء طبعا بكل سرور: أعتقد فحسب أنه سيكون من الأفضل لى أن أشترى (الصدرية) من ڤيينا، ذلك أنه سوف يلزمني هنا إذن تصدير بخصوصها (فحتى الكتب لم يقبل إرسالها

أحد مكاتب البريد هنا أخيرا، بدون إذن تصدير، على حين أنهم يقبلونها فى نفس الوقت فى مكتب بريد آخر دونما ضجيج) – حسنا، ربما أمكننى أن أجد فى المكتبة من أستشيره فى هذا الشأن – وسوف أضمن رسائلى دائما بعض النقود. وعندما تقولين (كفى)، فسوف أكف عن ذلك فى الحال.

شكرا لتصريحك لى بقراءة (تريبونا). رأيت أخيرا ، يوم الأحد فتاة تشترى (تريبونا) فى ميدان فينتسل، طبعا من أجل مقال (المودة)، لم تكن تبدو الاناقة على تلك الفتاة على نحو خاص، لا لم تكن بعد قد أصبحت أنيقة. ويؤسفنى أننى لم أتفحصها بعناية أكثر، ذلك أننى قد لا يمكننى لهذا أن أرقب تطور أناقتها. لا، إنك مخطئة فى استخفافك بقيمة مقالاتك عن (المودة). إننى لأشعر بالامتنان لك حقا لأننى يتاح لى الآن قراءتها علناً (فلابد من أن أقول، إننى كنت أقرأها مراراً فى السر، وهو ما أخجل له الآن).

***

لقد عرفت للتو ما الذى سوف تتضمنه الرسالة، ذلك أن ما سوف تتضمنه كان موجوداً فى خلفية رسائلك، كان واضحاً فى عينيك – فما الذى يمكن أن تصعب ملاحظته فى أغوارها الصافية؟ – وهو كان مخطوطاً كله أيضا على صفحة جبينك. ولقد أدركت ما سوف تتضمنه كما يدرك ذلك شخص كان قد أنفق النهار بطوله، يستغرقه حلم نائم خائف خلف مصراعى نافذة مغلقين، وعندما يقوم هذا الشخص بفتح النافذة فى الليل، فلن يدهشه بالطبع شئ، ذلك أنه يكون قد عرف أن الليل قد حل، يكون قد عرف أنه قد هبط الآن الظلام – وأنه لظلام رائع عميق. وأرى كذلك فيما سوف تتضمنه تلك

الرسالة كيف تعذبين نفسك، وكيف تتلوين ألما. ولا تنعمين بالخلاص و - لنلقى اللهب فى داخل وعاء مسحوق البارود - وأنك، لن تنعمى أبدا بالخلاص، وإننى لأرى ذلك، ومع ذلك، فلعلنى لا أقول لك. - ابقى حيث أنت. إلا أننى لم أقل عكس ذلك أيضا، وإنما أقف فى مواجهتك، وأتطلع فى عينيك الغاليتين البائستين (نعم، إنها لتثير الشفقة، تلك الصورة التى أرسلتها إلى، رغم كل شئ، وإنه لعذاب أن يتطلع إليها المرء، عذاب يكابده المرء مئة مرة فى اليوم، ولا يزال، للأسف، هو ما أملكه، وما أشعر بأن لدى القدرة لكى أذود عنه فى وجه عشرة من الرجال الأشداء، وإننى لقوى حقا كما تقولين - ثمة قوة لدى من نوع خاص، لو شاء المرء أن يصفها باختصار، وفى غموض، لقال إنها إنما تكمن فى أننى لست منسجما متآلفاً كائتلاف الموسيقى. غير أنها ليست بالغة قوتى تلك، على الرغم من ذلك حداً يحملنى على مواصلة الكتابة، على مواصلة الكتابة فحسب الآن على الأقل ذلك أن فيضا من الأسى ومن الحب يطبق بخناقى ويحملنى بعيدا عن الكتابة.

***

ليلة الاثنين

شئ واحد ظل يزعجنى لفترة طويلة فى مجادلاتك، شئ يتضح بصفة خاصة فى رسالتك الأخيرة، إنه خطأ لا يمكن إنكاره ويمكنك أن تتفحصيه بنفسك .. عندما قلت إنك تحبين زوجك جداً (وهو أمر حقيقى أيضا) وأنك لا يمكنك أن تتركيه (لو أن ذلك كان ليحدث بسببى أنا فقط، أعنى أن ذلك سيكون مزعجا لى لو أنك فعلت ذلك على الرغم من حبك له) فهذا ما أعتقده أنا أيضا، وأصدقك عندما

تقولينه. وعندما قلت إنك على الرغم من أنك يمكنك أن تتركيه، إلا أنه على الرغم من ذلك يحتاجك فى أعماقه ولا يمكنه أن يحيا بدونك، وأنك على هذا لا يمكنك أن تتركيه، فإننى أصدقك عندئذ أيضا، وأوافقك أيضا عليه، لكنك عندما تقولين إنه فيما يبدو لا يمكنه أن يمضى فى خضم الحياة بدونك، وأنك لهذا (وتجعلين من هذا سببا أساسياً) لا يمكنك أن تتركيه، هنا تكونين قد قلت هذا إما لتغطية الأسباب السابق ذكرها (لا لتدعيم تلك الأسباب، ذلك أن تلك الأسباب ليست بحاجة إلى أدنى تدعيم)، وإما أن يكون ما قلته ليس سوى واحدة أيضا من تلك المداعبات العقلية (من قبيل تلك المزح التى كتبتها فى رسالتك الأخيرة)، تلك المداعبات التى يتلوى تحت وطأتها الجسد، وإن لم يكن الجسد هو وحده ما يتلوى لإيلامها.

***

الاثنين

كنت على وشك أن أكتب المزيد فى نفس سياق الأفكار التى أملت على ما سبق أن كتبته، عندما وصلتنى منك رسائل أربع، وإن لم تكن قد وصلت معا بالمناسبة، فقد وصلتنى أولا رسالتك التى تأسفين فيها على أنك قد ذكرت لى خبر حالة الإغماء تلك التى أصابتك، ثم بعد ذلك بقليل تلك الرسالة التى كتبتها على الفور بعد أن أفقت من إغمائك، تصحبها تلك الرسالة - حسنا ، بصحبة تلك الرسالة بالغة الجمال، ثم أخيرا بعد ذلك تلك الرسالة التى تتعلق بإميلى، ولم أستطع أن أتبين تسلسل رسائلك تلك فى وضوح، فأنت لم تعودى بعد تذكرين الأيام التى تكتبين فيها رسائلك.

حسنا، سأحاول أن أجيب على سؤال (الخوف – الرغبة)، وسوف يصعب على النجاح في ذلك من أول مرة، لكن لو أنني عدت إلى محاولة ذلك في رسائل عدة، فلعلني أن أوفق إلى ذلك، وسوف يساعدني على بلوغ ذلك مساعدة هائلة، أن تكوني قد قرأت رسالتي إلى أبي (وهي بالمناسبة رسالة سيئة ولا أهمية لها)... وربما أحضرها لك معي إلى جموند.

لو كان للمرء أن يحدد (الخوف) و(الرغبة) كما فعلت أنت في رسالتك الأخيرة، فلن يكون نفس السؤال سهلا عندئذ، بل ستكون الإجابة عليه غاية في البساطة ويحضرني (الخوف) في هذه الحالة، وذلك على النحو التالي:

أذكر أول ليلة، وكنا نسكن في ذلك الوقت في ممر (تسلتن) في مواجهة (محل أزياء)، اعتادت أن تقف في فتحة بابه فتاة تعمل بالمحل، وكنت أنا في الدور الأول – كنت قد تجاوزت العشرين من عمري بقليل – أتمشى ذهابا وجيئة في الحجرة يشغل بالي إدراكي الذي يوتر أعصابي، بتراكم الحقائق، التي تبدو لي فارغة من المعنى، والتي يلزمني استيعابها استعدادا لأول امتحان عام.

كان ذلك في الصيف، وكان الجو شديد الحرارة، ولا يكاد يحتمل، وكنت أتوقف بين كل فترة وأخرى أمام النافذة، وبين أسناني القانون الروماني المثير للقرف، حتى انتهينا أخيراً إلى التفاهم بلغة الإشارات. وكان على أن ألتقي بها في الساعة الثامنة مساء، لكنني عندما هبطت ذاهبا إليها في المساء، كان ثمة شخص آخر معها بالفعل – حسنا، لم يكن هذا قد غير من الأمر شيئا فقد كنت خائفا من الدنيا كلها، وعلى هذا فقد كنت خائفا من ذلك الرجل هو أيضا،

حتى لو لم يكن واقفا هنالك، فقد كنت لأخافه أيضا. وعلى الرغم من أن الفتاة قد أمسكت بذراعه، فإنها قد أشارت لى مع ذلك بأن على أن أتبعهما. وعلى هذا فقد بلغنا جزيرة (شوترن)، حيث احتسينا البيرة، وكنت أجلس أنا إلى المائدة المجاورة لهما، ثم سرنا، وتبعتهما متباطئا، حتى بلغنا شقة الفتاة فى مكان بالقرب من (سوق اللحم)، وهناك قال لها الرجل إلى اللقاء، وأسرعت الفتاة تجرى إلى داخل المنزل، وانتظرت قليلا حتى خرجت ثانية، ثم مضينا إلى فندق فى (الساحة الصغيرة)، وكان هذا كله ساحراً، ومثيراً، ومرعباً حتى قبل أن ندخل إلى الفندق، ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك عندما أصبحنا فى داخل الفندق. وعندما كنا فى طريق عودتنا والصباح يوشك على الطلوع (وكان الجو مايزال حاراً، وبديعاً). فوق قنطرة كارل، كنت سعيدا بالفعل، لكن تلك السعادة كانت قد جاءتنى من حقيقة أننى أخيرا قد نعمت بشئ من السلام، حققه لى جسدى الذى لا تهدأ له أشواق. وكانت هذه السعادة فوق ذلك كله قد نشأت عن الارتياح لأن التجربة كلها لم تكن أكثر رعبا مما كانت عليه ، ولأنها لم تكن بالغة الفحش. ووجدتنى مع الفتاة مرة أخرى (بعد ذلك بليلتين فيما أظن) ومر كل شىء على ما يرام، كما مر فى الليلة الأولى، لكننى عندما رحلت بعد ذلك مباشرة لقضاء إجازات الصيف، حيث لهوت قليلا هنا وهنالك مع فتاة أخرى، لم يعد فى استطاعتى بعد ذلك أن أتطلع إلى فتاة محل الأزياء فى براغ، ولم أتبادل معها أية كلمة أخرى ، ذلك أنها كانت قد أصبحت (من وجهة نظرى) ألد أعدائى، مع أنها كانت فتاة حسنة الطبع، ودودة، وظلت تتابعنى طوال الوقت بنظراتها التى توحى بعدم استطاعتها إدراك ما يحملنى على تجنبها، ولن أقول إن

السبب الوحيد لعدائي لها كان حقيقة (وأنا واثق بأن هذا لم يكن هو السبب) أن الفتاة كانت قد أتت أثناء وجودنا معا في الفندق، ببراءة تامة، أتت بحركة يسيرة مثيرة للاشمئزاز (وإن كانت لا تستحق الذكر) ، إلا أن أثر تلك الحركة اليسيرة ظل باقيا وقد عرفت في تلك اللحظة أنني لن يمكنني أن أنسى تلك الحركة، وعرفت في نفس الوقت، أو تهيأ لي أنني قد عرفت أن هذا السلوك المثير للقرف، وأن هذه البذاءة، وإن لم تكن ظاهرياً ضرورية، إلا أنها كانت باطنياً لازمة بالضرورة رغم ذلك، في علاقتها بالأمر كله. وأن هذه الإثارة للاشمئزاز والفحش (التي كان عرضها الضئيل أو فقط مجرد تلك الحركة اليسيرة، وتلك الكلمة العارضة)، كانت هي، ما قد جرفني بمثل ذلك الاندفاع الرهيب إلى داخل ذلك الفندق، الذي لولاها لكان لي أن أتجنبه بكل ما تبقى لدي من قوة.

ولقد ظل ذلك التأثير الذي انعكس على وقتئذ باقياً دائماً على ما كان عليه. على أن جسدي الذي قد يبقى هادئاً لسنوات طويلة، ليهتز ثانية مع ذلك إلى حد لا يمكنني أن أحتمله، تهزه هذه الرغبة، لشئ ضئيل، لحركة منكرة، ذات نوعية خاصة للغاية، يهتز رغبة في شئ قليل من إثارة القرف، الارتباك، والفحش، وأنه حتى وسط القليل مما تبقى لي، ثمة شئ من ذلك ثمة أثر واهن لرائحة قذرة ما، أثر لرائحة شئ من الكبريت، شئ من الجحيم. إن هذا الدافع ليتضمن في ثناياه شئ من اليهودي الأبدي المسحوب بلا إرادة، الضال بلا وعي، خلال عالم قبيح فاقد الوعي.

لكن كان ثمة بعدئذ أوقات أيضا لا يكون فيها الجسد على هدوئه، عندما لا يكون ثمة شئ هادئ بالفعل، وإن كان ذلك يحدث بينما لا

يكون هنالك ثمة ما أعانيه من قسر. كانت حياة طيبة هادئة لا يقلقها سوى الأمل فحسب (هل تعرفين اضطرابات أخرى أفضل؟) خلال تلك الفترات، وعلى امتداد تلك الفترات، كنت وحيداً دائماً.

وها أنا الآن أمر يمثل تلك الفترات، لكنني لست وحيداً! هذا هو السبب في أن قربك الجسدي ليس هو فقط، بل هو فقط، بل أنت نفسك من تبعثين في الهدوء القلق. وهذا هو السبب في أنني لا أجد لدى أدنى رغبة في القبح (خلال النصف الأول من الفترة التي قضيتها في ميران، قمت على الرغم من إرادتي الحرة، ليلاً ونهاراً بتدبير خطط تدور حول الكيفية التي أستطيع بها أن أتمكن من إغراء خادمة الحجرة. وأسوأ من هذا، وقرب نهاية فترة إقامتي في ميران، اتفق أن صادفتني فتاة لديها استعداد بالغ، وأقول إنه كان لابد لي من أن أترجم كلماتها إلى لغتي أنا قبل أية محاولة من جانبي لكي أفهمها أساساً)، ولم أر ببساطة أية بذاءة هنالك، لم أعثر في حديثها على شئ يمكنه أن يحدث تأثيراً خارجياً، لكنني وجدت بدلاً من ذلك كل ما يمكنه أن يبعث الحياة من داخلها.

وباختصار كان ثمة شئ جديد هنالك، من قبيل الهواء الذى كان قد استنشقه الإنسان في الجنة قبل **السقوط**. إن بعضاً من هذا الهواء ليوضح لماذا تتصف **الرغبة** بالنقص. على حين أن كل ذلك الهواء، إنما يوضح لماذا يوجد **الخوف**، وهكذا فهاأنت تعرفين الآن، وعلى هذا، فرغم أنني قد (عانيت الخوف) ليلة ما في جموند، فقد كان خوفي على الرغم من ذلك، هو (خوفي) المعتاد فحسب (آه - وإن خوفي المعتاد ليكفيني) ذلك الذى أعانيه هو أيضا في براغ، وليس خوفاً خاصاً بجموند.

والآن حدثيني عن إميلى، فما زال فى مقدورى أن أحصل على الرسالة فى براغ.

لن أضمن رسالتى شيئاً اليوم. غدا فحسب. ذلك أن هذه الرسالة، هى رسالة هامة، وأريدك أن تتسلميها فى أمان.

إن الإغماء هو مجرد عرض من بين أعراض عديدة. أرجو أن تتأكدى من حضورك إلى جموند. هل لن تتمكنى من الحضور إذا أمطرت صباح الأحد؟ حسناً على أية حال سأكون في صباح الأحد أمام محطة جموند. هل لن تحتاجى أكيداً إلى جواز سفر؟ هل استفسرت بالفعل عن ذلك؟ هل تحتاجين إلى شئ يمكن أن أحضره معى؟ ذكر شتاشا، هل تقصدين أن على أن أذهب لزيارتها؟ لكنها لا تكاد تتواجد الآن فى براغ (وحتى عندما تتواجد فى براغ يكون الذهاب لزيارتها أكثر صعوبة)، لن أفعل شيئاً فى هذا الخصوص حتى تذكرى ذلك مرة أخرى، أو حتى نلتقى فى جموند.

، (فى الهامش الأيسر) تصلين أنت بعد الساعة التاسعة بقليل، فلا تسمحى لهم لأنك نمساوية بأن يحتجزوك في الجمرك، ولا يمكنني فى هذه الساعة أن أواصل ترديد الجملة التى أنوى أن أحييك بها.

أما الملاحظة التى تتعلق بـ«ل» (يالها من ذكرى! ليس هذا سخرية، بل غيرة، هى ليست غيرة، بل نكتة سخيفة) فلقد أسأت فهمها. لقد صدمت فحسب لأن كل الناس الذين ذكرهم هو كانوا إما «حمقى» أو (مخادعين) أو إناثاً ممن «يقفزن من النافذة»، بينما كنت أنت «ميلينا» فحسب، وأكثر من هذا كنت «ميلينا» رفيعة المقام، ولقد سررت لذلك، وكان سرورى هو سبب كتابتى لك، ولم يكن ذلك مطلقاً

دفاعاً منك أنت، بل كان دفاعاً منه هو عن كرامته. وكان هناك، لكى أكون دقيقاً، ثمة استثناءات قلائل أخرى أيضاً - زوج أمه (المقبل وقتها)، وزوجة شقيقه وزوج شقيقته، وخطيب خطيبته السابق، وهم جميعاً أشخاص «مدهشون» حقاً.

أما رسالتك التى وصلتنى اليوم، فهى رسالة حزينة للغاية، وتنطوى فوق هذا كله على ألمك منطوياً على نفسه بإحكام حتى لقد أحسست به، وكأنه قد تم استبعاده تماماً. وعندما كان يعن لى أن أغادر حجرتى من حين لآخر، كنت أهرع صاعداً أو هابطاً الدرج، وأظل على هذا الحال فقط على أمل أن أعود فى إحدى المرات لأجد البرقية التى تقول: «سأكون أيضاً فى جموند السبت»، إلا أن هذه البرقية لم تصل بعد...

***

الأحد

البرقية. نعم، ربما يكون من الأفضل لو التقينا. ومن ناحية أخرى، كم من الوقت يلزمنا كى نتمكن من أن نضع الأمور فى مكانها الصحيح! ومن أين جاءت كل هذه المتاعب التى قامت بيننا. إن المرء لا يكاد يرى خطوة واحدة إلى الأمام. وكم عانيت أنت لابد من هذه المتاعب وسط غيرها من كل أشكال المتاعب الأخرى.

وربما كان لى أن أضع حدا لهذه المتاعب منذ وقت طويل، كانت العين صافية الرؤية بما يكفى، لكن كان الجبن أكثر شدة. كما أننى لا أكذب بردودى على رسائل (وكأنها كانت تخصنى) كنت قد أدركت بوضوح أنها رسائل لا علاقة لها بى؟ وآمل أن ردودى لم تكن (بهذا المعنى) من قبيل تلك الردود «الكاذبة» التى اغتصبت منك رحلتك إلى

جموند(١).

لست حزينا أبدا ذلك الحزن الذى قد يبدو لك من هذه الرسالة، كل ما هنالك أنه لا يوجد أى شئ آخر يمكن أن يقال فى هذه اللحظة. ذلك أنها قد أصبحت لحظة هدوء تام، ولا يجرؤ المرء على أن يتفوه بكلمة فى هذا السكون.

حسناً، سنكون معاً يوم الأحد لمدة خمس ساعات أو ست، وهى فترة لا تتسع للحديث، ولكنها تكفى للصمت، تكفى لتماسك أيدينا، وتكفى لكى يتطلع أحدنا فى عينى الآخر.

***

الاثنين

حسنا، حسب جدول المواعيد، يبدو لى الأمر أفضل كثيراً مما ظننت، وآمل أن يكون جدول المواعيد مضبوطاً، ويبدو لى الأمر على النحو التالى:

١ - إمكان فى حده الأدنى المقبول:

أن أرحل من هنا فى الساعة الرابعة والدقيقة الثانية عشرة بعد ظهر السبت لأصل فى الحادية عشرة وعشر دقائق بعد الظهر إلى فيينا، وستكون أمامنا سبع ساعات نقضيها معاً، بعدها سأرحل يوم الأحد فى السابعة صباحاً. وسوف تتوقف هذه الساعات السبع بالطبع، على أن أكون قد نمت قليلاً فى الليلة التى تسبقها (وهو ليس

١) تشير هذه الرسالة إلى موقف غريب كان قد قام فى براغ: فقد تلقى أشخاص رسائل من مجهول، ومع أنها كانت مكتوبة بخط واضح، إنه خط ميلينا، إلاّ أن ميلينا، لم تكن هى من كتبتها.

إنجازاً سهلاً)؛ وإلاً فإنك سوف لا تجدين فى مواجهتك سوى مجرد حيوان مريض بائس.

٢ – إمكان بالغ الروعة، استناداً إلى جدول المواعيد :

أرحل من هنا أيضاً فى الساعة الرابعة والدقيقة الثانية عشرة، لكننى أصل إلى جموند بالفعل (بالفعل، بالفعل) فى الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين. وحتى لو كان على أن أرحل يوم الأحد بقطار الصباح السريع، فلن يكون ذلك قبل الساعة العاشرة والدقيقة السادسة والأربعين، وعلى هذا فسيكون أمامنا ما يزيد على الخمس عشرة ساعة، يمكننا أن ننفق جانباً منها أيضا نائمين. إلا أن ذلك حتى في هذه الحالة سيكون أفضل، ولن يكون على حتى أن أستقل هذا القطار، ففى الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والثلاثين بعد الظهر يوجد أيضاً قطار ركاب، متجه إلى براغ، وسوف أستقل هذا القطار. وعلى هذا فسوف يتيح لنا هذا إحدى وعشرين ساعة نقضيها معاً، ونظريا على الأقل، سيكون باستطاعتنا الحصول عليها (تصورى) كل أسبوع.

ثمة كسب واحد فقط فى هذا، لكننى لا أظنه كسباً هاماً، وعلى أية حال سيكون عليك أن تتحققى منه. ولابد لك من أن تتحققى من أن محطة جموند، هى محطة تشيكية، لكن المدينة التى تتواجد بها هذه المدينة هى مدينة نمساوية، فهل من الممكن أن يمتد السخف المسمى بجواز السفر إلى المدى الذى يستلزم معه أن تسعى مواطنة من أهل ڤيينا للحصول على جواز سفر لكى يمكنها أن تعبر محطة سكة حديد تشيكية؟ فى هذه الحالة سيتعين على أهل جموند الذين يريدون الذهاب إلى ڤيينا الحصول على جواز سفر بتأشيرة تشيكية،

إن هذا شئ لا أستطيع أن أصدقه، شئ سيكون بمثابة صفعة موجهة إلينا مباشرة. ويكفينى من السوء أننى ربما تعين على أن أضيع ساعة فى الجمرك فى جموند قبل أن يتم السماح لى بمغادرة المحطة، وعلى هذا فسوف يحدث اختصار لتلك الساعات الإحدى والعشرين.

وبعد إقرار هذه الحقائق الهامة، لا يوجد فى الحقيقة المزيد مما يمكننى قوله. وأشكرك كثيراً على كل حال لأنك لم تتركينى بدون رسالة منك، وحتى اليوم. لكن غدا؟ لن أتصل تليفونيا لأن ذلك سيكون مثيراً للغاية أولا، وثانياً لأنه سيكون مستحيلاً (ولقد استفسرت عن إمكان ذلك بالفعل ذات مرة)، وثالثا لأننا سنرى أحدنا الآخر عاجلاً. ولسوء الحظ لم يتسع الوقت لـ (أوتلا) اليوم للذهاب إلى مركز البوليس بخصوص جواز السفر - غدا. نعم لقد رتبت أنت أمر الطابع بصورة ممتازة (ولسوء الحظ قد أخطأت أنا فى وضع طوابع البريد السريع، ولقد أوشك الرجل أن يبكى بالدموع عندما حدثته عنها). لاشك أنك قد يسرت على نفسك أن تقدمى لى الشكر على الطوابع، لكننى قد سررت لهذا أيضاً، سررت سروراً زائداً بهذا حتى أننى سوف أرسل لك، تصورى، بعضاً من طوابع الفيلق الحربى. أما بخصوص سرد الحكايات الخرافية، فلست اليوم فى مزاج يصلح لهذا، لأن رأسى، أشبه ما تكون بمحطة سكة حديد، تغادرها قطارات، وتصلها أخرى، وتفتيش جمركى، ويكمن كبير مفتشى الحدود فى انتظار تأشيرتى. التأشيرة صحيحة هذه المرة - ها هى: «نعم، إنها تأشيرة صحيحة، ها هو الطريق إلى خارج المحطة». هل تتفضل أيها السيد كبير مفتشى الحدود، بأن تزيد

فى كرمك معى، فتفتح لى باب الخروج، إننى لا أقوى على أن أفتحه بنفسى. هل من الممكن أن يبلغ بى الضعف هذا الحد البالغ، لأن ميلينا تنتظر في الخارج؟» فيقول: «آه، بالطبع، لم أكن أعلم هذا» ويندفع الباب مفتوحاً.

***

الثلاثاء

أخشى ألاّ يكون فى وسعى أن أستعد استعداداً جيداً جداً لمناسبة عيد ميلادك فلقد كان نومى أسوأ حتى من المعتاد، ورأسى ملتهبة، وعيناى محتقنتان، وصدغى يؤلمنى، بالإضافة إلى السعال. وأخشى ألا يكون بمقدورى أن أقوم بتلاوة تهنئة مسهبة لا يقطعها السعال. ولحسن الحظ أنه ليس لدى ثمة ما يدعو لتهنئة؛ فقط عبارات الشكر على أنك تتواجدين فى هذه الدنيا، حيث لم يكن لى منذ الوهلة الأولى أن أرتاب فى أن وجودك كان ممكنا (وبهذا ترين أننى لا أملك معرفة كافية بالدنيا؛ أيضا - فيما عدا أننى على نقيضك، أسلم بها كما هى). وأنا أشكرك على وجودك (هل يعد هذا الشكر امتنانا؟)، أشكرك بقبلة شبيهة تحديداً بتلك التى فزت بها على محطة السكة الحديدية. وإن كنت لم ترضى عنها (لكننى اليوم أكثر عناداً). لم أشعر بسوء حالتى إلى هذا الحد طوال الفترة الأخيرة، فمن حين لآخر كنت أشعر أحيانا حتى، بأننى فى صحة جيدة جداً، إلا أن أمجد أيام حياتى قد صادفنى منذ حوالى أسبوع. فمع كل ما كنت عليه من فقدان للقدرة ، كنت أواصل السير بلا نهاية حول البركة فى داخل مدرسة تعليم السباحة، وكان الوقت يقترب من المساء، ولم يكن قد بقى هناك الكثير من الناس، وإن يكن مايزال

يوجد عدد لا بأس به منهم، عندما اتجه نحوى مساعد مدرس السباحة (الذى لا يعرفنى) وتجول بنظراته العاجلة فيما حوله كما لو كان يتطلع باحثاً عن شخص ما، ثم انتبه إلى وجودى، أو بوضوح اختارنى ، ثم سألني: «هل تحب أن تقوم بشوط تجديف؟» يبدو أنه كان هناك رجل ما، أحد المضاربين فى العقارات فيما أعتقد، كان قد وصل لتوه من جزيرة صوفيا، وكان يبحث عمن يوصله إلى «الجزيرة اليهودية»، حيث يوجد مبنى هائل فوق تلك الجزيرة الأخيرة. حسناً، لا ينبغى على المرء أن يبالغ فى الأمر كله، لقد لاحظ معلم السباحة وجودى، وقرر أن يتيح للصبى البائس (الذى هو أنا) التمتع بنزهة مجانية بالقارب. ومع ذلك، فمراعاة لرجل المبانى المهم كان عليه أن يختار صبياً يبدو عليه أنه أهل لكى يعوّل عليه ليس فقط من حيث قوته ومهارته فحسب، لكن أيضاً أن يكون صبياً لن يستغل القارب بعد أن يفرغ من أداء مهمته، فى نزهات مختلسة، بل يعيده فى الحال. كل هذا كان هو قد ظن أنه قد عثر عليه في شخصي. وانضم إلينا ترنكا العظيم (صاحب حمام السباحة الذى لابد لى من أن أحدثك بالمزيد عنه يوماً ما) وتساءل إن كان الصبى يقدر على السباحة، فأكد له ذلك معلم السباحة الذى كان قد استطاع بوضوح أن يتكهن بكل شئ فقط بمجرد النظر إلى وجهى. ولم أكن قد تفوهت بكلمة. وجاء الراكب الآن وانطلقنا، وكصبى حسن السلوك، لم أكد أتحدث. قال هو إنها كانت ليلة سارة، وأجبت (نعم)، ثم أضاف قائلاً إنها على الرغم من ذلك كانت تميل إلى البرودة، وقلت (نعم). أخيرا قال إننى كنت أجدف بسرعة شديدة، وهو ما لم أستطع امتنانا أن أجد ردا عليه. ولا حاجة بى إلى القول بأننى قد بلغت شاطئ الجزيرة

بأفضل أسلوب ممكن، وغادر هو القارب، وشكرني، لكنه نسي أن يمنحني بقشيشاً، وهو ما سبب لي إحباطاً (نعم، مادمت لست فتاة). جدفت بالقارب راجعاً مباشرة كالسهم. وكان ترنكا العظيم مندهشا وهو يراني راجعاً بمثل هذه السرعة - حسناً، لم يحدث قط أن كنت مفعماً بالزهو لفترة طويلة من الزمن كما كنت في تلك الأمسية، أحسست وقتها بأنني قد ازددت جدارة بك، مجرد زيادة قليلة جدا في جدارتي، إلا أنني كنت عندها أكثر قليلا في جدارتي من المعتاد. وكنت أنتظر في كل أمسية منذ ذلك الوقت، في مدرسة تعليم السباحة، مترقباً عابراً آخر، لكن لم يظهر واحد حتى الآن.

في الليلة الماضية، وخلال شبه إغفاءة قصيرة تراءى لي أنه كان ينبغي لي أن أحتفل بعيد ميلادك بزيارة كل الأماكن الهامة في حياتك. وفيما بعد مباشرة، وبدون أي مجهود، وجدتني أمام المحطة الغربية. كانت مبنى بالغ الصغر، كما لم تكن تتسع في داخلها بمساحة تكفي أي قطار سريع يصلها لتوه، ولعربة واحدة، لم يكن يوجد مكان لها، فكانت تبدو كلها في خارج المبنى. كنت مسروراً جداً لحقيقة أنه أمام المحطة كانت تقف ثلاث فتيات في ثياب لائقة تماماً، وإن كن في غاية النحافة (كانت لإحداهن ضفيرة شعر طويلة) كن ثلاث حمّالات للأمتعة. أدركت عندئذ أن ما كنت تقومين بعمله لم يكن في الحقيقة أمراً غير معتاد. على أنني كنت مسروراً جداً لأنك لست الآن هناك معهن، على أنني كنت. أيضاً قد حزنت لأنك لم تكوني هناك. لكن كنت من قبيل التأسي لحزني قد عثرت على حقيبة يد صغيرة كان أحد الركاب قد نسيها، وجذبت، لدهشة الركاب الواقفين المحيطين بي، بعضاً من الأثواب الكبيرة من داخل الحقيبة

الجزء الثاني بصفة خاصة من «تيبوس» ممتاز، حاد، وغاضب، ومعادٍ للسامية، ورائع، وحتى وقت قريب لم أكن قد أدركت مدى الدهاء الذى ينطوى عليه نشر المرء لما يكتبه. إنك تتحدثين إلى القارئ برصانة بالغة، وبحميمية زائدة؛ وبكل هذا الانشغال الملح، فلقد نسيت كل شئ آخر في الدنيا، واستغرق القارئ وحده كل اهتمامك، لكنك فى النهاية تقولين فجأة: «هل ما كتبته شئ حسن؟، نعم، هو شئ حسن ؟؛ حسناً لقد سررت، إلاّ أننى مع ذلك بعيد عنك كل هذا البعد فى المكان، ولن أتلقى منك أى قبلات كمكافأة؟».

وهذه هى النهاية فى الحقيقة، فلقد مضيت عنى بعيداً.

هل تعلمين، بالمناسبة، أنك كنت قد أعطيت لى كهدية، بمناسبة (تثبيتى) (هناك أيضاً شئ ما يشبه تثبيتاً يهودياً)؟ لقد ولدت عام ٨٣، وكنت بهذا فى الثالثة عشرة من عمرى عندما ولدت أنت. إن عيد الميلاد الثالث عشر هو مناسبة خاصة. ففى أعلى هناك بالقرب من المذبح فى المعبد، كان على أن أتلو قطعة حفظتها عن ظهر قلب بصعوبة بالغة، ثم كان على فى المنزل أن أقوم بتوجيه خطبة قصيرة (محفوظة أيضاً عن ظهر قلب). تلقيت أيضاً هدايا كثيرة. لكننى أتصور أننى لم أكن راضياً بذلك كل الرضا، فثمة هدية خاصة كنت أفتقدها عندئذ، ولقد طلبتها من السماء؛ فترددت إلى أن وهبتها لى فى ١٠ أغسطس.

بالطبع سوف أعيد قراءة الرسائل العشرة الأخيرة بسرور، على الرغم من أننى أعرف ما تحويه كل المعرفة فى الحقيقة. لكن عليك أن تعيدى قراءة رسائلى أنت أيضاً، وسوف تجدين فيها تساؤلات

مدرسة بنات بأكملها.

سوف نتحدث عن الأب في جموند.

واجهتني «جريته» وكالمعتاد عندما أواجه بفتيات، أكون عاجزاً. هل كانت لدي قط حتى الآن فكرة ما تتعلق بك؟ لا أستطيع أن أتذكر. أحب أن أمسك بيدك في يدي، وأحب أن أتطلع في عينيك. هذا هو كل ما يدور حولك، فلتغربي يا «جريته»!؛ وبقدر ما يتعلق الأمر بـ(«عدم كسب» – «لا يمكنني أن أفهم كيف أن شخصاً كهذا ...») يواجهني نفس اللغز أنا نفسي؛ إنه لغز، لا أظن أننا ستتمكن من حل مغزاه – حتى لو اشتركنا معا في ذلك. وهو علاوة على ذلك يعد تجديفاً. وعلى أية حال، فأنا لا أنوي أن أبدد دقيقة واحدة بشأنه في جموند – إنني أدرك الآن أنه سيكون عليك أن تكذبي، أكثر مما سيتعين على أن أكذب. وإنني لأشعر لهذا بالضيق.

فإذا حدث أن كان ثمة عقبة جدية، فلتبق في فيينا أيّا كان الحال – حتى بدون أن تتيحي لي أن أعلم بذلك، وسأكون قد قمت فحسب بمجرد رحلة قصيرة إلى جموند، وسأكون أقرب إليك بما يساوي ثلاث ساعات. لقد حصلت بالفعل علي تأشيرة جواز السفر. أخشى أنك لن تتمكني من الاتصال بي برقياً؛ على الأقل ليس اليوم، بسبب إضراباتكم.

***

الأربعاء

لا أفهم التماسك للصفح، فلو كان الأمر قد انتهى، فليس هناك ما يدعوني إلى القول بأنني أصفح عنك. لقد كنت صارماً فقط طالما كان

الأمر لم يبلغ بعد نهايته، وفي ذلك الوقت لم تكوني تنزعجي بشأنه. وكيف كان لي ألاّ أصفح عنك بخصوص أمر قد انقضى؟ وإلى أي حد تبدو عليه الأشياء مضطربة لابد، في عقلك، حتي يكون، يكون في مقدورك أن تصدقي شيئاً مثل هذا!

لا أحب المقارنة بيني وبين والدك، على الأقل في الوقت الحاضر. هل أخسرك أنت أيضاً؟ (ثقي بأنني لا أتمتع بالطاقات التي يتمتع بها والدك، والتي يتطلبها ذلك) لكن لو كنت تصرين على عقد المقارنة، فمن الأفضل عندئذ أن تعيدي إلي الصدار الصوفي.

إن شراء وإرسال الصدار الصوفي كانَ بالمصادفة، قصة استمرت على مدى ثلاث ساعات، وهي القصة التي - كنت في أشد الحاجة إليها وقتها - أنعشتني، والتي أشعر بالامتنان لك بسببها. إنني متعب فلا أقوى على سردها لك اليوم، فهذه هي الليلة الثانية التي أقضيها بدون نوم. هل أنا أضعف من أن أتماسك قليلاً حتى أحظى بمدحك لي في جموند؟

تخيلي نفسك تحسدين تلك السيدة المسافرة إلى أمستردام! لاشك أن ما فعلته كان شيئاً حسناً، لو كان ما فعلته قائماً على اقتناع منها بذلك، لكنك ارتكبت خطأ واحداً منطقياً. ذلك أن الشخص الذي يعيش على هذه الحال، تعد الحياة بالنسبة له إرغاماً، وأما بالنسبة للشخص الذي لا يمكنه أن يعيشْ على هذا النحو، فسوف تكون الحياة حرية. إن الحال على هذا النحو نفسه في كل مكان. وفي التحليل الأخير فمثل هذا (الحد) ليس سوى رغبة في الموت.

ويقدر ما يتعلق الأمر بـ«ماكس»، لك أن تفعلي ما تشائين. لكن

بما أننى أعرف الآن تعليماتك الموجهة إليه، فسوف أرغم نفسى، عندما تبدأ النهاية فى الاقتراب، على الذهاب إليه، وأعرض عليه القيام برحلة قصيرة تستغرق عدة أيام «لأننى أشعر بالقوة الزائدة على نحو خاص» ثم بعدئذ أزحف عائداً إلى منزلى، لكى أتمدد هنالك للمرة الأخيرة.

هذه بالطبع هى الكيفية التى أتحدث بها طالما أنها لم تنته إلى صميم الموضوع، لكن ما إن تبلغ درجة حرارتى ٣٧,٥° (٣٨° فى المطر) فإن سعاة الرسائل البرقية سيتعثرون أحدهم فى أعقاب الآخر صاعدين درجات سلمك الممتد. وآمل يكونوا مشاركين فى إضراب عن العمل عندئذ، وليس فى لحظة كتلك التى يناسبها الإضراب الآن، فى مناسبة عيد ميلادك.

لقد استقبل مكتب البريد بغاية الحرفية تهديدى بعدم إعطاء طوابعى للرجل. وقد أزيل طابع البريد المستعجل بالفعل قبل أن يصلنى. بالمناسبة، يجب أن تفهمى ما الذى يسعى الرجل خلفه، ولا ينبغى لك أن تظنى أنه يجمع طابعاً واحداً من كل سلسلة من الطوابع، إن لديه صفحات واسعة لكل سلسلة منها، ولديه مجلدات كبيرة الحجم تضم هذه الصفحات، وعندما تمتلئ إحدى صفحات سلسلة من هذه السلاسل، يلحق بها صفحة جديدة، وهكذا. وفى كل فترة من فترات ما بعد الظهر يجلس إلى هذه الصفحات، وبهذا يكون بديناً، ومرحاً، وسعيداً، ومع كل سلسلة يكون لديه سبب جديد للسعادة. اليوم مثلاً بخصوص الطوابع ذات الخمسين «هيلر»: فسوف تزداد أثمان طوابع البريد قريباً (أيها المسكينة ميلينا) وسوف تصبح الطوابع ذات الخمسين «هيلر» أكثر قيمة!

يعجبني ما تقولينه عن (كرونيتسن) (وليس عن «أفلير» التي هي مصحة حقيقية لأمراض الرئة؛ إنهم يحقنون المرضى هناك، أفٍّ! فلقد كانت هي المحطة الأخيرة لأحد الكتبة في مؤسستنا قبل وفاته بالسل). إنني أحب هذا النوع من الأماكن الريفية، كما أنها أماكن لها أيضا ذكريات تاريخية، لكن هل تظل مفتوحة في أواخر الخريف وهل يقبلون فيها الأجانب، وهل مثل هذه الأماكن ليست باهظة الثمن بالنسبة للأجانب. وهل أي شخص فيما عداي يمكنه أن يفهم لماذا كان على أن أذهب إلى بلد التصور جوعاً لكي أزداد سمنة؟

إلا أنني سأكتب إليهم.

بالأمس تحدثت مرة أخرى مع ذلك الـ(شتاين). إنه أحد هؤلاء الذين حاقت بهم المظالم العامة . لست أدرى لماذا يضحك منه الناس. إنه يعرف كل شخص ، يعرف كل التفاصيل الشخصية، وهو في الوقت نفسه متواضع، وأحكامه تقوم على اهتمام شديد، وتتدرج في مهارة، ويفعمها الاحترام؛ فإن كانت واضحة بدرجة زائدة قليلاً، وخاوية للغاية في براعتها، فهي إنما تزيد في قيمته، هذا على فرض أن المرء يعرف حقيقة الأشخاص المزهوين الغامضين الشهوانيين الإجراميين. بدأت أتحدث فجأة عن «هاس»، وتسللت إلى ما وراء «يارميلا»، وتوصلنا بعد قليل إلى زوجك، وأخيراً – وليس صحيحا بالمناسبة أنني أستمتع بسماع التقارير التي تتناولك، فقط أريد أن أسمع اسمك المرّة بعد المرّة، طوال النهار. ولو كنت قد سألته لكان قد أخبرني أيضا بالكثير عنك، لكن طالما أنني لم أطلب منه ذلك فقد قنع بتقرير حقيقة (ندم مخلصا على إعلانها لي) أنك لا تكادين تشعرين بالحياة، وأن الكوكايين كاد أن يدمر حياتك (كم كنت ممتنا

في تلك اللحظة، لكونك مازلت في عالم الأحياء)، وأضاف حذراً، وفي تواضعه المعهود، بأنه لم يشهد ذلك هو نفسه بعينيه، وإنما فقط قد سمع به. أما عن زوجك فقد تحدث، وكأنه يتحدث عن ساحر غلاّب. كما أضاف أيضا اسماً جديدا على سمعي، يرجع إلى عهد (براغ) : (كرايدلوڤا) فيما أعتقد. كان سيستمر في الحديث على هذا النحو لبعض الوقت، لكنني استأذنت في مغادرته، كنت قد أحسست بالغثيان قليلاً، ومن نفسي أيضا علاوة على ذلك، لأنني كنت أسير هنالك بجواره صامتاً، أستمع إلى أشياء لم أكن قد أردت سماعها، ولا كانت تتعلق بي.

أكرر: إذا حدث أن قامت أية عقبة أمكنها أن تسبب لك أدنى معاناة – فلتبقى في ڤيينا – إذا لم يكن من ذلك بد، حتى بدون أن تحيطيني علماً بذلك. لكن لو غادرتها بالفعل، فعليك أن تجتازي حاجز الحدود في الحال. فلو حدثت مصادفة ما، في تلك اللحظة التي لا يمكن التنبؤ بها بالمرة، ولم أتمكن من المغادرة ولم أستطع. الوصول إليك في ڤيينا (وفي مثل تلك الملابسات سوف أتصل برقياً بالسيدة ك.)، فسوف تجدين برقية في انتظارك في فندق المحطة في جموند.

هل وصلتك الكتب الستة كلها ؟

في أثناء قراءتي قصتك «المقهى» كان قد جاءني إحساس مماثل عند استماعي إلى شتاين فيما عدا أنك تسردين قصة أفضل كثيراً مما يفعل، فمن ذا الذي يحكي قصة بمثل هذه الجودة؟ لكن لماذا

تحكينها لكل شخص ممن يبتاعون صحيفة الـ«تريبونا»؟، في أثناء قراءتي لها أحسست كما لو أنني كنت أسير ذهابا وجيئة أمام المقهى، نهاراً وليلاً لسنوات؛ وفي كل مرة يصل إليها أو يغادرها أحد روادها كنت أقنع نفسي من خلال النظر إلى بابها المفتوح أنك كنت ماتزالين بداخلها، ومن ثم كنت أواصل التجوال، وكنت أنتظر. ولم يكن انتظاري حزيناً، ولا كان مجهداً، فأى حزن أو إجهاد في أن أنتظر خارج مقهى تجلسين بداخله!

***

الخميس

كون مونشهاوزن قد قام بأداء مهمته كما يجب، لهو أمر قد أبهجني كثيراً جداً، وهو في الحقيقة كان قد أنجز مهاماً أكثر كثيراً في صعوبتها قبل الآن. وهل ستتال الورود أيضاً العناية بها مثل الزهور الأخرى؟ وما هي أنواع تلك الزهور؟ ومن هو مصدرها؟

سؤالك عن جموند، كنت قد أجبته من قبل أن توجهيه إلي. حاولي أن تقللي من إيلامك لنفسك إلي أقل حد ممكن، فعندئذ سوف يكون إيلامك لي أقل. لم أدرك كما ينبغي لي أنه كان عليك أن تكذبي كل هذا الكذب، لكن كيف يمكن لزوجك أن يظن أنني لا أقوم بكتابة الرسائل لك، وأنني لا أود رؤيتك بعد أن أتيحت لي رؤيتك ذات مرة؟

أنت تكتبين لي قائلة بأنك أحيانا ما تشعرين بالرغبة في وضعي موضع الاختبار. ولقد كانت هذه الفكرة هي مزحة فحسب، ألم تكن كذلك؟ أرجو ألاّ تفعليها. إن عملية التعرف في حد ذاتها – تستلزم طاقة كافية، فأى قدر من الطاقة زيادة على ذلك يستلزمه العجز عن التعرف؟

(١) يبدو واضحاً أنها إعلانات عن تجار القراء في فيينا.

إننى مسرور للغاية لأن الإعلانات[1] قد راقت لذوقك. فلتأكلى، عليك فقط أن تأكلى! ربما لو بدأت فى التوفير اليوم، وانتظرت أنت عشرين عاماً، وأصبح الفراء أرخص ثمناً (لأنه فى ذلك الحين ربما تكون أوربا قد أصبحت خراباً، وراحت حيوانات الفراء تجرى فى أنحاء الشوارع)، ربما يكون ممكناً عندئذ وجود ما يكفى من النقود لشراء فراء.

وهل تعلمين بالمناسبة، متى سأحصل فى النهاية على بعض النوم؟ ربما فى ليلة السبت أو ليلة الأحد؟

حسناً، لمعلوماتك، هذه الطوابع مرتفعة الثمن - كانت هى رغبته الخاصة (ليس لديه شئ سوى رغبات «خاصة») - يقول إن «هذا جمال، هذا جمال»، فأية أشياء يجب أن يراها فى هذه الطوابع!

والآن سوف آكل، ثم أذهب إلى (مكتب التحويلات) - ويعمل صباحاً.

***

الجمعة

لست أدرى تماماً لماذا أكتب، ربما بدافع من العصبية، كما كان بدافع العصبية أن أرسلت لك هذا الصباح رداً برقياً أخرق على الرسالة المستعجلة التى تسلمتها الليلة الماضية. وبعدما أستفسر عند (شنكر) بعد ظهر اليوم سوف أرسل إليك رداً فورياً.

إن المراسلة بيننا حول هذا الموضوع تعيد المرء المرة تلو المرة إلى الخلاصة بأنك قد ارتبطت بزوجك بكل الروابط فيما عدا رباط الزواج المقدس الوثيق (كم أنا عصبى المزاج، لابد أن سفينتى قد فقدت

دفتها على نحو ما، خلال هذه الأيام الأخيرة)، وارتبطت أنا بزواج مماثل أيضاً بـ – لست أدرى بمن، إلاّ أن عين تلك الزوجة المرعبة غالباً ما تستقر على؛ وإننى لأشعر بهذه النظرة. والشئ الغريب أنه مع أن كل من هاتين الزيجتين تعد رباطاً وثيقاً لا انفصام له، حتى أنه لا يبقى شئ يمكن أن يقال عن الموضوع، إلا أن عدم قابلية أحد الزيجتين للانفصام، على الرغم من ذلك تشكل استعصاء الزيجة الأخرى على الانفصام، أو على الأقل توثق رباطها والعكس بالعكس، هو ما يحدث فى حالة الزيجة الأخرى. إلا أن ما يبقى هو لا شئ سوى الحكم كما تمت صياغته بمعرفتك :

«ذلك لن يكون أبداً»، ودعينا لا نتحدث ثانية أبداً عن المستقبل، فقط عن الحاضر.

هذه الحقيقة هى حقيقة مطلقة راسخة، وهى للعمود الذى تستقر فوقه الدنيا، ومع ذلك فإننى أعترف أنه، فى إحساسى (فى إحساسى وحده مع ذلك، تبقى هذه الحقيقة، حقيقة مطلقة)، هل تعرفين إننى، عندما أحاول أن أكتب شيئاً من قبيل ما يلى، تبدأ السيوف التى تحيط بى حوافها فى دائرة، فى الاقتراب ببطء من الجسد، ويكون العذاب أقصى ما يكون، عندما تبدأ هذه الحواف فى كشط جسدى، لا أقصد وخزه؛ وإنما عندما تشرع فحسب فى كشط جسدى، تبدو مرعبة بالفعل غاية الرعب، حتى أننى أخونك فوراً، وعند الصرخة الأولى، وأخون نفسى، وأخون كل شئ) – وأننى على أساس من هذا الوهم وحده أعترف أن مثل هذه المراسلة حول هذه الموضوعات تبدو لى فى إحساسى (أكرر مرة أخرى، وبحياتى، أنها تبدو لى فقط فى

إحساسى) كما لو كنت أعيش فى مكان ما فى أفريقيا الوسطى، وأننى قد عشت هناك حياتى كلها، محاولاً أن أنقل لك، أنت التى تعيشين فى أوربا، آرائى الراسخة فيما يتعلق بالتطور السياسى المقبل. إلا أنها مجرد مجاز؛ مجاز غبى أخرق، زائف، عاطفى، بائس، أعمى عن عمد. صدقينى، سيوفى ليست شيئاً آخر.

أنت على حق في اقتباسك لى من رسالة زوجك، وإن كنت لا أفهم كل شئ فهماً تاماً (لاترسلى إلى الرسالة)، وأكثر ما أدركه – أن هذه الرسالة قد كتبها رجل (غير متزوج) يريد أن يتزوج. ما أهمية «عدم وفائه» العرضى، الذى لا يعد حتى انعداما للوفاء، ذلك أنكما كلاكما باقيان على الطريق نفسه، فيما عدا أنه يتفق له على هذا الطريق أن يضل قليلاً إلى ناحية اليسار؟ أية أهمية لهذا «الانعدام للوفاء» الذى لم يتوقف قط علاوة على ذلك عن صب أعمق مشاعر السعادة حتى فى غمار أشد حالاتٍ حزنك؟ أى أهمية لهذا «الانعدام للوفاء» عند مقارنته بعبوديتى الأبدية؟

لم أسئ فهمك فيما يتعلق بأمر زوجك. أنت تصبين سر تماسكك الذى لا سبيل إلى تحطيمه، تصبينه كله، هذا السر الثرى الذى لا ينفد، المرة بعد المرّة فى القلق الذى يشغلك بشأن حذائه ذى الرقبة. شئ ما فى هذا الانشغال يعذبنى، لست أدرى بالضبط ما هو. إن الأمر فى النهاية غاية فى البساطة: فلو كان لك أن تتركيه لكان عليه إما أن يعيش مع امرأة أخرى، أو أن يذهب ليعيش فى نزل، وسوف يتم تنظيف حذائه ذى الرقبة بعناية أفضل مما يلقاها الآن. هذا أمر

سخيف، وهو ليس سخيفاً أيضاً، لست أدرى ماذا يعذبنى إلى هذا الحد كله فى هذه الملاحظات، ربما تعرفين أنت؟

لم يكن يوم عيد ميلادك ليضيع لو كنت قد كتبت لى قبل حلوله بخصوص النقود سوف أحضرها معى - ويحتمل ألا يرى أحدنا الآخر على أى حال، في هذا الاضطراب الذى قد يحدث بسهولة.

ثمة شئ آخر. أنت تكتبين عن الناس الذين يقضون أمسياتهم وصباحاتهم معاً، وعن أولئك الذين لا يفعلون ذلك. ويبدو لى أن وضع الناس الأخيرين هو الوضع الذى أفضله أكثر، لقد فعلوا أمراً سيئاً يقيناً أو احتمالاً، وقذارة هذا المشهد تستمد وجودها أساساً كما تقولين بحق، من كونهم غرباء، وإنها لهى قذارة مادة، تشبه قذارة شقة لم يشغلها سكان قط، ثم تتفتح فجأة على اتساعها. هذا سئ حقا، إلا أن شيئاً حاسماً لم يحدث؛ لا شئ حاسم حقاً، لا فى السماء ولا فوق الأرض، لا شئ بالفعل سوى (لعب بكرة)كما تسمينه أنت. إنه كما لو كانت حواء عندما قطفت التفاحة حقاً من الشجرة (أحيانا ما أعتقد أننى أفهم سقوط الإنسان كما لم يفهمه غيرى) كانت قد فعلت ذلك على أى حال لمجرد أن تريها لآدم – لأنها أعجبتها. لكن كان قضم التفاحة هو الفعل الحاسم – أما اللعب بها، وإن لم يكن مسموحاً به، إلا أنه لم يكن مع ذلك ممنوعاً.

***

الثلاثاء

وعلى هذا فلن أحصل على رد لهذه الرسالة لعشرة أيام أخرى أو أربعة عشر يوماً. وبمقارنة ذلك بالماضى القريب، يكاد يبدو هذا وكأنه

هجر، أليس كذلك[1].

وأشعر الآن بالذات كما لو كان لابد لي أن أخبرك بعدة أشياء، لا يمكن التعبير عنها، ولا كتابتها، ليس لكى أحاول بواسطتها إصلاح شئ أفسدته في جموند، ولا لكى أنتشل شيئا ما من الغرق، بل لكى أساعدك على أن تتفهمي بعمق طبيعة أحوالي، وذلك حتى لا تهربي مذعورة بعيداً عني – وما أود أن أخبرك به هو، على الرغم من كل شئ، مما يمكن أن يحدث بين الناس. أحس أحياناً كما لو كنت أحمل تلك الأثقال الزائدة من الرصاص حتى ليتعين على في كل لحظة أن أغطس متجرجراً إلى أعماق البحار، وأن الشخص الذى يحاول أن يمسك بي، أو حتى يحاول أن (ينقذني)، سوف يكف عن محاولته، ليس لضعفه. ولا حتى ليأسه، بل لمجرد الضيق المحض. ولا يقال هذا بالطبع لك، بل يقال لانعكاس واهن لشخصك، انعكاس لا تكاد تتحقق منه رأس مرهقة خاوية (ولا أقول رأساً تعسة أو متهيجة، لأنها حال يوشك المرء على الامتنان لها لو كانت كذلك).

حسناً، ذهب بالأمس لزيارة «يارميللا». ولما كانت هذه الزيارة قد بدت لي زيارة هامة بالنسبة لك فلم أرد تأجيلها، حتى ولو ليوم واحد، أيضا، ولكي أكون صادقاً فإن فكرة أنه سيتعين على الآن أن أتحدث إلى «يارميللا» كانت قد جعلتني قلقاً. ولهذا فضلت أن أنتهي منها في الحال، علي الرغم من كوني لست حليقاً (ولم نمو شعرى عندئذ مجرد قشعريرة فوق مسام الجلد، وهو ما ظننت بقدر ما يتعلق بذلك نجاح مهمتي أنه لن يؤدى إلى أى ضرر. ذهبت إلى هناك حوالي الساعة السادسة والنصف، ولم يرن جرس الباب، ولم تكن هناك

(١) كانت ميلينا في سانت جلجن.

فـائدة من الطرق على البـاب، ولم تكن توجـد نسـخ من صـحـيـفـة (نارودنى لستى) فى صندوق البريد، وكان واضحا أنه لا يوجد أحد بالمنزل، ظللت واقفاً فى المكان لفـترة قصـيرة، ثم اقـتربت امـرأتان قـادمـتـان من الفناء، كـانت إحـداهمـا هـى «يارمـيللا»، وربما كـانت الأخرى أمـها. عرفت ى. فى الحال، على الرغم من أنها لم تكد تشبه الصـورة الفوتوغرافية، ولم تكن تشبهك على الإطلاق.

غادرنا المنزل على الفور ولمدة عشر دقائق رحنا نتمـشى ذهابا وجيئة خلف الأكاديمية الحزبيـة السـابقة. وكان أكثر ما دهشت له حقيـقة أنها كـانت على عكس تنبـؤك ثرثارة جدا، وإن يكن فـحسب على مدى هذه الدقائق العشر. تكلمت بلا انقطاع على الأغلب. ولقد ذكرتني كثـيرا جدا بتلك الثرثرة التى غلبت على رسـالتهـا تلك التى أرسلتها أنت لى ذات مرة، ثرثرة كان تبدو مستقلة كل الاستقلال عن المتحدثة. ولقد كانت هذه الثرثرة لافتة للنظر لأنها لم تكن تتناول تلك التفاصيل العينية كالتى وردت بتلك الرسـالة. كان اضطرابها مما يمكن تفسيره جزئياً بحقيقة أنها، كما أوضحت، كانت قد أثيرت لأيام بخصـوص «المسـألة»[1]، وكانت قد أبرقت لـ«هـاس» بخصـوص (فـيـرفل) دون أن تتلق رداً حـتى الآن؛ وكـانت قـد أبرقت، وكـتـبت رسالة عاجلة لك، وأحرقت الرسائل فى الحـال بناء على اقتراحك،ولم يكن فى اسـتطاعتـها أن تفكر فـى أى وسيلة يمكنها بواسطتـها أن تهدئ خواطرك بسرعة، وبهذا كانت قد رأت أن تحضر لزيارتى فى هذه الظـهـيرة لكى تتـحـدث على الأقل إلى شـخص مـا على علم هو أيضا بالأمر كله.

(١) فيما يبدو بخصوص (مسألة) الرسائل بلا توقيع.

(إنها فيما يبدو واقعة تحت تأثير الانطباع بأنها تعرف مكان إقامتي، والسبب في هذا هو ما يلي: ذات مرة – وأظن أن ذلك كان في الخريف أو كان في الربيع، فلست متأكداً، كنت قد ذهبت للتجديف مع «أوتلا»، والصغيرة «روزنكا»، وهي البنت التي كانت قد تنبأت في قصر (شونبورن) باقتراب نهايتي، وأمام الـ(رودولفينوم) قابلنا «هاس» ومعه امرأة لم أكن حتى قد لاحظت وجودها وقتها: وكانت هذه المرأة هي «يارميلا». وذكر «هاس»لها اسمي، وتذكرت «يارميلا» أنها كانت قد تحدثت مع شقيقتي قبل سنوات في حمام السباحة المدني. ولما كان حمام السباحة المدني مكانا مسيحيا جداً في تلك الأيام، فقد بقيت «أوتلا» ماثلة في ذاكرة «يارميلا» باعتبارها حالة يهودية، نادرة. في ذلك الوقت كنا نقطن في مواجهة حمام السباحة. وكانت «أوتلا» قد أطلعتها على شقتنا، وبهذا فهذه هي القصة بأكملها، وكان هذا هو السبب في أنها كانت بالغة السعادة، من أعماقها، لأنني كنت قد حضرت، وبالغة الحيوية – ولم تكن سعيدة فوق هذا، فيما يتعلق بتلك التعقيدات، التي كانت بكل تأكيد، بكل تأكيد، قد بلغت غايتها، تلك التعقيدات التي كما أكدت هي لي في انفعال، أنها تعقيدات لن يكون لها بكل تأكيد، بكل تأكيد، أية عواقب لاحقة. ولم أكن قد أشبعت طموحي مع ذلك؛ كنت قد رغبت – في الحقيقة، دون أن أدرك أهمية المهمة التي كان على أن أقوم بها، إلا أنني كنت قد استغرقت في القيام بها كل الاستغراق – في إحراق الرسائل بنفسي، ونثر رمادها من أعلى الشرفة.

أما عن نفسها فلم تذكر سوى القليل؛ وأنها تجلس في المنزل طوال الوقت – ويبرهن وجهها على ذلك – وأنها لا تحادث أحداً،

وأن مغادرتها المنزل لا تتعدى مرة من وقت لآخر تذهب فيها لتبحث عن شئ في إحدى المكتبات، أو لكى تقوم بإرسال رسالة من وقت لآخر. وفيما عدا ذلك، فقد تحدثت فقط عنك (أو لعلنى أنا الذى كنت قد تحدثت عنك؛ يصعب على المرء أن يميز حقيقة ذلك فيما بعد)؛ وعند ذكرى للسعادة الهائلة التى كان قد سببّها لك تصورك، من خلال قراءاتك للرسالة التى وصلتك من برلين - إمكان قيام «يارميللا» بزيارتك؛ قالت إنها لا تكاد تفهم إمكانية السعادة، وآخر ما يخطر على بالها أن تفهم أن ثمة من يمكن أن تتيح له هى أن يسعد. ولقد بدا ذلك بسيطا ومقنعا. قلت إن الأزمان القديمة لا يمكن لها أن تنمحى تماما، وببساطة؛ وإنها تتضمن دائما إمكانيات يمكنها أن تعود إلى الحياة. قالت، نعم؛ ربما أمكن أن يحدث هذا لو كان لكما أن تتواجدا معاً، وإنها بدأت أخيراً تتطلع تطلعا زائداً إلى رؤيتك؛ ولقد بدا لها أنه من الطبيعى للغاية، ومن الضرورى أن تتواجدى هنا - أشارت عدة مرات أمامها إلى الأرض، وكانت يداها أيضا مفعمتين بالحيوية، - هنا، هنا، هنا.

وأمام المنزل ودّع أحدنا الآخر بكلمات مقتضبة قبل هذا، كانت قد أثارت ضيقى على نحو ما بقصة معقدة عن صورة فوتوغرافية لك جميلة على نحو خاص، كانت تريد أن تريها لى. وأخيراً اتضح أنها مباشرة قبل رحلتها إلى برلين، عندما كانت تقوم بإحراق كل أوراقها ورسائلها، كانت قد ثبتت هذه الصورة على الحائط، وإنها فى هذه الظهيرة بالذات كانت قد بحثت عنها ثانية بلا جدوى.

ثم أرسلت لك برقية تتصف بالمبالغة فى الكيفية التى تم بها تنفيذ تعليماتك. لكن هل كان يسعنى أن أفعل أكثر مما فعلت؟ وهل أنت

راضية عني؟

لا معنى لأن استعطفك، بما أنك لن تتسلمي هذه الرسالة قبل أسبوعين، لكن ربما أمكن فقط إضافة صغيرة ما إلى افتقار الالتماس من كل معنى: أرجوك لا تدعى نفسك للخوف يبعدك عنى، فلو كان من الممكن أصلاً في هذه الدنيا المقلقة (حيث، إذا حدث أن انجرف المرء بعيدا، فهو إنما يكون قد انجرف بعيدا، ولا حيلة له في ذلك) – لا تدعي نفسك للخوف يبعد بك عني، حتى لو خيبت أملك مرة أو ألف مرة، أو خيبت ظنك الآن بالذات أو ربما الآن بالذات دائماً . في الحقيقة ليس هذا التماساً، ولا هو موجه إليك، ولا أدرى إلى أين يتخذ وجهته. هو ليس سوى التنفس الذى ضيق عليه الصدر المقهور.

***

الأربعاء

رسالتك في صباح الاثنين. حتى منذ صباح ذلك الاثنين أو حتى منذ ظهر الاثنين، عندما كان التأثير الخير للترحال (وكل رحلة بعيدا عن أى شئ آخر، هى فى ذاتها، راحة، هى شعور المرء بأنه قد أخذ بخناقه، بأنه قد اهتز كيانه، واهتز) قد بدأ يتلاشى على نحو ما - منذ ذلك الحين، كنت قد رحت أغنى لك بلا انقطاع أغنية واحدة، هى أغنية مختلفة باستمرار؛ ودائما هى نفسها، ثرية كالنوم بلا أحلام، مضجرة ومنهكة حتى أننى كنت فى أثنائها أحيانا ما أستغرق فى النوم. فلتسعدى لأنه ليس عليك أن تسمعيها، اسعدى بأنك مصونة ضد رسائلى طوال كل هذا الوقت.

آه، المعرفة بالطبيعة البشرية! ما الذى على أن أتخذه ضد قيامك

بتلميع الأحذية ذات الرقبة تلميعا له كل هذا الجمال! قومي بتلميعها تلميعا جميلاً بكل ما في وسعك، ثم ضعيها في أحد الأركان، وتخلصي من هذا الأمر. المسألة فقط هي أنك تقومين بتلميعها في عقلك طوال اليوم، يعذبني هذا أحياناً (ولا ينتهي بتنظيف الأحذية ذات الرقبة).

***

الخميس

ظللت متطلعا إلى سماع عبارة أخرى، هي هذه: – «أنت لي». ولماذا هذه العبارة بالذات؟ إنها حتى لا تعني الحب، بل تعني بدلاً منه القرب والليل.

نعم، كانت الكذبة هائلة وشاركت أنا فيها، لكن ما كان أكثر منه سوءاً هو أنني كنت مع نفسي، في الركن، أتصنع البراءة.

ولسوء الحظ دائما ما تعطينني أنت تعليمات تكون قد تم تنفيذها بالفعل عندما أصل إلى هناك، هل ثقتك بي قليلة إلى هذا الحد أو أنك إنما تحاولين أن تمنحيني بعضاً من الثقة بالذات؟ إنها محاولة تبدو لي في هذه الحالة بالغة الشفافية.

لا أفهم ما هي علاقة برقية «يارميلا» (والتي كانت قد أرسلتها أصلاً قبل لقائي بها) بي أو حتى بالغيرة. بدا أن زيارتي حقا قد جلبت لها السرور (وهذا في صالحك)، ولكن رحيلي قد جلب لها من السرور قدراً أكبر بكثير (الصالحي، أو بالأحرى لصالحها).

كان في مقدورك بالفعل كتابة كلمات قلائل أخرى عن نوبة البرد. هل أصبت بها في جموند، أو في طريق عودتك إلى المنزل، من

مشرب القهوة؟ هنا، بالمناسبة، لايزال الجو صيفاً جميلاً، حتى لقد أمطرت فقط يوم الأحد في جنوب بوهيميا.

كنت مختالاً، فقد كان في وسع الدنيا كلها أن ترى من ملابسي الغارقة في البلل أنني كنت قادماً من اتجاه جموند.

***

الجمعة

بالقراءة على مسافة ملاصقة للعين مباشرة لا يسع المرء أن يفهم مطلقاً هذا البؤس الذي تعيشين فيه هذه اللحظة، لذا يتعين على المرء أن يمسك الرسالة على مسافة أبعد قليلا، لكن حتى في هذه الحالة أيضاً لا يكاد يبدو الفهم ممكنا.

لقد أسأت فهم تلك الملاحظة عن المخالب – ولقد كانت في الحقيقة ملاحظة مبهمة. وما تقولينه عن جموند هو حق بأوسع المعاني. أذكر على سبيل المثال، سؤالك لي عما إذا كنت قد أخلصت لك في براغ: لقد كان سؤالاً نصفه مزاح، ونصفه جد، ونصفه لامبالاة (ومرة أخرى هذه الثلاثة أنصاف، فقط لأنه كان مستحيلاً). إن لديك رسائلي ومع ذلك تسألين مثل هذا السؤال. فهل كان هذا سؤالاً ممكناً؟. لكنني وكما لو لم يكن هذا كافياً، قد جعلته أنا أكثر استحالة. قلت، نعم، لقد كنت مخلصاً لك. فكيف يتسنى للمرء أن يتحدث بمثل هذا؟ وفي ذلك اليوم تحدثنا واستمع أحدنا للآخر، غالبا، ولوقت طويل وكأننا غريبان.

بالأمس مع اقتراب المساء جاءت يارميللا لزيارتي (لست أدري

كيف عرفت عنواني الحالي). لم أكن بالمنزل، فتركت رسالة لك، وكلمة بالقلم الرصاص تطلب مني فيها أن أرسل لك الرسالة، لأنها وإن كانت تعرف عنوانك في الريف، إلا أنه لايبدو لي عنواناً آمنا بما يكفي بالنسبة لها.

***

الاثنين

حسناً، لم تستغرقا وقتاً طويلاً جدا، على كل حال، فلقد تسلمت الرسالتين القادمتين من سالبورج، ولعل الأمور أن تسفر عن خير في جلجن، وأؤكد بأن الخريف قد حل هنا بالفعل، وهذا ما لا يمكن إنكاره.

أحس بسوء حالتي، كما أشعر بتحسنها، تبعا للكيفية التي يراها بها المرء. آمل أن تستمر صحتي وقتاً ما إلى داخل فصل الخريف، وسيكون لنا أيضاً أن نكتب أو نتحدث عن جموند – وهذا جزء من شعوري بسوء حالتي. أرفق مع رسالتي هذه رسالة يارميللا. ولقد رددت على زيارتها بإشارة لاسلكية قائلاً إنني بالطبع سأرسل رسالتها بكل سرور، لكن على ألا تكون قد تضمنت أي شئ عاجل، لأنني لم أكن أظن أنني سأهتدي إلى عنوانك في أقل من أسبوع. ولم تكتب هي ثانية.

(في الهامش الأيمن): لو أمكن، أرجو أن ترسلي رؤية عينية لشقتك.

***

قرأت أولاً الرسالة المكتوبة بالقلم الرصاص. وفى رسالة الاثنين، تطلعت إلى فقرة فيها تحتها خط، ثم قررت أن أتركها بعضاً من الوقت؛ كم أنا قلق، ويالها من حال تثير الرثاء عندما لا يكون فى مقدور المرء أن يلقى بنفسه وبكل كيانه إلى كل كلمة، حتى لو أن هذه الكلمة قد تعرضت لهجوم ما، لأمكن للمرء أن يحمى نفسه بكاملها أو أن يتحطم كلية. لكن هنا، أيضا، لا يوجد الموت وحده، بل توجد أيضاً الأمراض.

وحتى قبل أن أفرغ من قراءة الرسالة - تذكرين شيئاً مماثلاً قرب نهايتها - طرأ على بالى إن لم يكن ممكنا بالنسبة لك أن تمكثى هناك، مزيداً من الوقت، وقتاً يمتد بقدر ما يسمح الخريف. ألا يمكن ذلك؟

وصلت الرسائل من سالزبورج بسرعة، أما الرسائل القادمة من جلجن فقد استغرقت بعضاً من الوقت، إلا أننى حصلت أيضا على أخبار أخرى هنا وهناك. صورة قلمية سريعة كتبها (بولجار)[١] فى الصحيفة، تصف البحيرة، هى صورة حزينة إلى غير حد إلا أنها محيرة، لأنها صورة مرحة مع ذلك - حسنا - ليس هذا بالكثير، إلا أن ثمة أخباراً عن سالزبورج، عن الاحتفال، عن الجو غير المستقر - وهذا بدوره لا يتصف بالمرح؛ ولقد رحلت أنت متأخرة للغاية فى نهاية الأمر؛ ثم دفعت أنا ماكس إلى أن يخبرنى بما يعرف عن (ڤولڤجانج) وعن (جلجن)، لقد عرف السعادة الغامرة هناك فى صباه، ولابد أن الحال كان أفضل فى قديم الأيام. إلا أن هذا كله لن يعد شيئا ذا بال، لولا «التريبونا»، فتطلعى كل يوم إلى احتمال العثور على شئ لك، ثم العثور بالفعل على كتابات لكِ هنا وهناك. هل تستائين من

(١) «ألفريد بولجار» الكاتب الڤيينى الشهير.

حديثي عن الصحيفة؟ مع أنني أستمتع كثيراً بقراءتها. ثم من الذي سيتحدث عنها إن لم يكن أنا، أفضل قرائك؟ وحتى من قبل، قبل أن تذكري أنك أحيانا ما تفكرين في أثناء الكتابة، كنت قد أحسست بها بتعلق بنفسي - أعني، أنني كنت قد ضممتها إلى نفسي. والآن بما أنك قد قلت ذلك بصراحة، فإنني مازلت ربما أكثر قلقا بشأنها؛ مثلاً، عندما قرأت فيها عن أرنب وسط الثلوج كدت أن أجد نفسي وقد انطلقت جريا إلى هناك.

(في أعلى الهامش الأيسر): نعم، كنت أعرف أنني قد تجاوزت عن شئ في رسالتك، وبدون أن أجد القدرة على أن أنساه، لا أجدني قادراً على تذكره: درجة الحرارة؟ درجة الحرارة الحقيقية؟ هل تدركين ما أعني؟

أخيرا فرغت من قراءة الرسالة الأخرى، لكنني حقا قد بدأت قراءتها بالفقرة التي تقول: «لا أريدك أن ترد على ذلك». لست أدرى ما الذي سبق هذه الفقرة، لكنني اليوم ورسائلك تواجهني، وتعززك على نحو لا يدحض، أجدني مستعدا للتوقيع عليها دون أن أقرأها مقرا بصحتها حتى لو كانت ستتخذ بهذا قرينة ضدي أمام المحكمة العليا. إنني قذر يا ميلينا قذر بلا حد، وهو ما يجعلني أحدث كل هذه الضجة الهائلة حول النقاء. ولا يتغنى من الناس بمثل تلك الأصوات النقية، كما يتغنى من يعيشون في عمق أغوار الجحيم؛ وما نسميه نحن شدو الملائكة، إنما هو غناؤهم.

قبل أيام قليلة انتهيت إلى أن (الخدمة الحربية) - أو على نحو أكثر صحة حياة (المناورة)، التي اكتشفتها منذ سنوات، هي أكثر ما يلائمني في أحيان بعينها. النوم في الفراش في فترة ما بعد الظهيرة

لأطول مدة ممكنة، ثم التجوال سيراً على الأقدام لمدة ساعتين، ثم البقاء مستيقظا لأطول مدة ممكنة، لكن العقدة إنما تكمن فى هذه (الأطول مدة ممكنة). «إنها غير ممكنة لمدة طويلة»، غير ممكنة فيما بعد الظهيرة، ولا فى الليل، ومع ذلك فإننى أكون بالفعل قد نبلت عندما أبلغ مقر عملى فى الصباح، وتكمن الجائزة الحقيقية خفية فى أعماق الليل، فى الساعة الثانية، الثالثة، الرابعة؛ لكننى حاليا إن لم آو إلى الفراش عند حوالى منتصف الليل مع أقصى تأخير، لضاع الليل، وضاع النهار، وضعت أنا نفسى، ومع ذلك فلا شئ من هذا يهم، فى (كونى فى الخدمة) هو أمر جيد؛ حتى ولو لم يسفر عن أية نتائج. ولم يكن له حتى أن ينتهى إلى نتيجة، إننى فى حاجة إلى عام كهذا العام لكى «أفك عقدة اللسان» قبل أى شئ، ثم لكى أتحقق من أن الأمر قد قضى، وأن السماح بأن (أكون فى الخدمة) قد بلغ غايته. لكن هذا كما قلت: هو أمر جيد فى حد ذاته، حتى لو تدخل السعال بطريقة طاغية فاستغرق وقتا طال أو قصر:

بالطبع لم تكن الرسائل سيئة إلى هذا الحد. لكننى حقا لا أستحق هذه الرسالة المكتوبة بالقلم الرصاص، فهل يوجد شخص فى السماء أو على الأرض يستحقها؟

***

مساء الخميس

اليوم لم أكد أفعل شيئا، سوى الجلوس فى أنحاء المكان، أقرأ قليلا هنا، وقليلا هناك، لكننى أساساً لم أفعل شيئاً. أو رحت أتسمع إلى ألم طفيف ما، بينما كان يحدث تأثيره فى جانبى جبهتى. كنت مشغولا طوال اليوم برسائلك، معذباً، عاشقاً، متوحشاً، وفى حالة خوف غير معلوم من شئ غير محدد، يتألف لا تحدده فى معظمه من

حقيقة أنه يتجاوز حدود طاقتي. ولم أكن في الوقت نفسه قد جرؤت على قراءة الرسائل قراءة أخرى، ولم أكن قد جرؤت على قراءة نصف صفحة حتى في المرة الأولى. فلماذا لا يستطيع المرء أن يسلم نُفسه إلى حقيقة أن حياته في هذا التوتر الانتحاري المعلق، الخاص، هي عدل.

(تذكرين أحياناً شيئاً مماثلا لهذا ولقد حاولت أن أضحك على ذلك وقتها)؟ ولماذا يقوم المرء بدلاً من ذلك عمداً بفك وثاق حياته هذه، لينطلق خارجاً منها كما ينطلق حيوان لا يعقل. (ويحب حتى لامعقوليته هذه كحيوان) ويوصل بفعله هذا كل الكهربية الممزقة، المعربدة إلى داخل الجسد، وذلك حتى توشك أن تنتهي بالمرء إلى الاحتراق؟

لا أعرف بالتحديد ما الذي أريد أن أقوله بهذا بالفعل. أريد فقط على نحو ما أن أحكم قبضتي على أشكال اللوم، لا المعلنة؛ بل الصامتة تلك التي تخرج من رسائلك، ويمكنني أن أحكم قبضتي عليها، ذلك أنها ملكي. وأن يكون في مقدورنا حتى هنا في الظلام أن نكون معا إلى هذا الحد عقلاً واحداً، لهو أكثر الأمور غرابة، ويمكنني بالفعل أن أومن به فقط للحظة، بعد لحظة أخرى غيرها.

***

الجمعة

بدلاً من النوم، قضيت الليلة (وإن لم يكن ذلك عن طواعية تامة) مع الرسائل. ومع ذلك، فليست الأمور في أقصى حالاتها سوءاً الآن بالتحديد. لم تصل في الحقيقة، أية رسالة، لكن حتى هذا لا يهم في ذاته.

في هذه اللحظة من الأفضل كثيراً ألا أكتب يومياً؛ ولقد أدركت

أنت ذلك سراً قبل أن أدركه أنا. إن الرسائل اليوم تسبب الضعف أكثر مما تبعث القوة. في السابق كان المرء يشرب الرسالة حتى آخر قطرة تحتويها، وكان المرء في الوقت نفسه (أتحدث عن براغ وليس عن ميران) أقوى عشرة أضعاف، وأكثر عطشاً بعشرة أضعاف.

لكن الرسائل الآن قد أصبحت بالغة الجدية، الآن يعض المرء شفتيه عندما يقرأ رسالة، ولا يكون ثمة شئ أكثر تأكيداً سوى الألم الطفيف في الصدغين. لكن حتى هذا لا يهم، ويبقى شئ واحد فقط: «لا تستسلمي للمرض يا ميلينا، لا تمرضي. لا بأس من عدم الكتابة (ما عدد الأيام التي قضيتها في مقاومة مثل رسالتي الأمس هاتين؟ أسئلة غبية، وهل يمكن للمرء أن يقاومهما في أيام؟)؛ لكن لا ينبغي أن يكون المرض هو السبب. إنني أفكر بالطبع، في نفسي فحسب. ما الذي سأفعله؟ سأفعل على الأرجح نفس ما أفعله الآن، لكن كيف سأفعله؟ لا، لا أريد أن أفكر في هذا الفعل. وفي الوقت نفسه، عندما أفكر فيك، تكون رؤيتي أوضح ما تكون دائماً، هي تلك التي تبدين فيها راقدة في الفراش، كما كنت ترقدين في المرج، في تلك الأمسية في جموند (هناك حيث حكيت لك عن صديقتي، ولم تستمعي إلى كثيراً). وليست هذه مطلقا رؤية مؤلمة، بل هي بالفعل أفضل رؤية أجدها في مقدوري في هذه اللحظة: وهي أنك راقدة في الفراش، وأنني أقوم بتمريضك، وأنصرف عنك، لأعود إليك مرة أخرى، وأضع يدي فوق جبهتك، وأغرق في عينيك عندما أطرق متطلعا إليك، وأحس بنظرتك تحدق في بينما أتجول في أنحاء الحجرة، عارفا طوال الوقت بخيلاء لم يعد قابلاً للترويض أنني إنما أحيا من أجلك، وبأنني قد حزت السماح لي بأن أفعل، وأنني في بدء امتناني لحقيقة أنك كنت قد وقفت ذات مرة إلى جانبي، ووضعت يدك في يدي. وسيكون فقط

مرضاً عابرا سرعان ما يزول ويتركك أكثر صحة عما كنت عليه من قبل. بينما سأكون أنا حالاً وفجأة (وآمل ألا يكون ثمة ضوضاء ولا ألم) أزحف في باطن الأرض - حسناً، كل هذا لا يسبب عذاباً بالغاً، لكن فكرة أن عليك أن تقعي فريسة للمرض هي التي أراها أبعد ما تكون.

أنت أيضا تحبين سائقي الترام، أليس كذلك؟ نعم، ذلك السائق الڤييني الأمثل، المرح، وإن يكن منهكا بالغ الهزال، في تلك المرة! إلاّ أنهم ناس طيبون هنا، أيضا، ويريد الأطفال أن يصبحوا سائقي ترام لكي يكونوا مثلهم أقوياء ومحترمين، وأن يتولوا القيادة، وأن يقفوا فوق سلم الترام لكي يتمكنوا من الانحناء إلى أسفل فوق رؤوس أطفالنا، ومعهم أيضاً خرّامة تذاكر، وكميات كبيرة من تذاكر الترام، بينما أنا - على حين تروعني كلّ هذه الإمكانيات - أحب أن أكون سائق ترام لكي أكون في مثل مرحه وتكون لي مثل قدرته على المشاركة في كل شئ. كنت أسير ذات مرة خلف ترام يسير ببطء وكان السائق - (لقد وصل الشاعر لكي يخرجني من مقر عملي، فلينتظر حتى أفرغ من السائقين) - ينحني بجسمه كثيراً إلى الخارج من فوق سلم الترام الخلفي، قد راح يصيح بي بشئ ما (لم أتمكن من سماعه بسبب الضوضاء في «يوزيف بلاتس»)، وظل يأتي بحركات متهيجة بكلتا ذراعيه، كان من الواضح أنها تعني الإشارة إلى شئ ما، إلا أنني لم أفهم معناها. وطوال الوقت ظل الترام يتحرك أكثر وأصبحت حركاته يائسة أكثر فأكثر - وأخيرا فهمت: كان دبوس المشبك الذهبي في ياقة قميصي قد انفك - وكان السائق يحاول أن يلفت انتباهي إليه. لقد تذكرت هذه الحادثة هذا الصباح،

عندما صعدت الترام منهكا من الليلة الماضية وكأننى شبح مريض، وأعاد لى السائق فكة الكرونات لكى يبعث البهجة فى نفسى (لا لكى يبعث البهجة فى نفسى على وجه الدقة، لأنه لم يكن حتى قد تطلع إلى؛ بل لكى يبعث البهجة فى الجو بصفة عامة) قد أتى بملاحظة ودية (فاتتنى إدراك مغزاها) عن أوراق (البنكنوت) التى كان يردها ثانية إلى – على حين كان يقف إلى جوارى أحد السادة؛ ابتسم لى هو أيضا نتيجة لهذا التميز، وهو ما لم أرد عليه من جانبى سوى بالابتسام، وبهذا كان كل شئ قد تحسن قليلاً. فعسى أن تتمكن هذه الحكاية من أن تبعث البهجة فى السماء المطيرة فوق سانت جلجن!.

***

السبت

رائع الجمال، رائع الجمال يا ميلينا، رائع الجمال. لا شئ فى رسالة «الثلاثاء» رائع الجمال مثل الهدوء، الثقة، الوضوح، الذى صدرت عنه الرسالة.

لم يأت فى الصباح شئ. كنت سأتوافق بسهولة مع هذه الحقيقة فى ذاتها؛ لكن يختلف الحال الآن كل الاختلاف مع تسلم رسائل. ومع ذلك، فمع كتابة الرسائل لم يكد يتغير شئ؛ فالدافع يستمر، وتستمر معه متعة أن يكون على المرء أن يكتب وعلى هذا سأتصالح مع هذه الحقيقة.

وما حاجتى إلى رسالة، عندما قضيت بالأمس، مثلا، اليوم بطوله، والمساء، ونصف الليلة فى حديث معك، حديث كنت فيه مخلصاً وجاداً مثل طفل، وكنت أنت فيه جادة وواعية كأم (ولم أكن قد رأيت قط فى الواقع مثل هذا الطفل ولا مثل هذه الأم)، وكان لهذا كله أن يكون على ما يرام، فقط ينبغى لى أن أعرف السبب فى عدم كتابتك؛ لا

ينبغي لي أن أراك مريضة في الفراش طوال الوقت، في الغرفة الصغيرة، وأمطار الخريف خارجها، وأنت وحيدة تماماً، في درجة حرارة (كتبت أنت عنها)، ومع نزلة برد (كتبت لي عنها)، علاوة على العرق ليلاً، والإعياء (كتبت لي عن هذا كله) - فإذا هذا كله لم يعد له وجود، فهو خير إذن، ولا أريد شيئاً في هذه اللحظة أفضل من هذا.

لن أشرع في إجابة على الفقرة الأولى من رسالتك، ولا أعرف بعد حتى الفقرة الأولى سيئة الذكر من رسالتك السابقة فهذه كلها أشياء عميقة التعقيد ولا تجد حلاً لها إلا من خلال مناقشة بين أم وطفل، ويمكن سماعها عندئذ، ربما فقط لأن هذه التعقيدات في هذه الحالة لا يمكنها أن تحدث. لن أشرع في تناول هذه الفقرة لأن الألم يكمن في صدغي متربصاً. فهل كانت «نبلة» كيوبيد قد صوبت في اتجاه صدغي بدلاً من تصويبها نحو قلبي؟ كما أنني لن أكتب بعد ذلك مزيدا عن جموند، عن قصد على الأقل. سيكون هناك الكثير مما يمكن أن يقال عنها، لكن في النهاية سيكون كل ما ستنتهي إليه، هو أن اليوم الأول في ڤيينا كان من الممكن أن يكون أفضل قليلاً مما كان لو كنت قد رحلت في المساء. وعلى الرغم من أن ڤيينا تتميز حتى على جموند، بأنني قد بلغتها في شبه حالة إعياء، من الخوف والإنهاك؛ وكنت قد ذهبت إلى جموند (على غير وعي مني بذلك - «فلست سوى أحمق») واثقاً على نحو بديع، كما لو أن شيئاً لا يمكن أن يقع لي ثانية أبداً. لقد وصلت كصاحب بيت؛ ووجه الغرابة هو، أن ذلك الفتور كان ممكنا أن يقع لي رغم كل شكوكي التي تهزني باستمرار، وربما كانت هذه هي غلطتي الحقيقية، في هذا الموقف،

وفى مواقف أخرى.

الساعة الآن الثالثة إلاّ الربع، وقد تسلمت رسالتك قبل تمام الثانية مباشرة، ولعله من الأفضل لى الآن أن أتوقف هنا، وأغادر المكان، وآكل.

ترجمة الجملة الأخيرة جيدة جداً، كل جملة فى هذه القصة، كل كلمة، كل – لو كان لى أن أقول هذا – موسيقى ترتبط بـ«الخوف».

بهذه المناسبة انفتح الجرح للمرة الأولى أثناء ليلة واحدة طويلة، وفى رأيى، تلتقط الترجمة الترابطات باكتمال، بتلك اليد السحرية التى هى يدك.

ترين ما الذى يسبب كل هذا العذاب فى تسلم الرسائل – حسنا، لاحاجة بى لأن أقول لك. اليوم بين رسالتك ورسالتى يوجد، – بقدر ما يسمح بذلك الإمكان، مع وضعنا لعدم اليقين من ذلك فى الاعتبار، يوجد قرب رائق، طيب، عميق التنفس. والآن على أن أنتظر الردود على رسائلى الأسبق التى أتخوف منها.

كيف يمكنك بالمناسبة، أن تتوقعى رسالة منى يوم الثلاثاء، بينما حصلت أنا على عنوانك فقط يوم الاثنين؟

***

الأحد

غلطة غريبة بالأمس. كنت فى ظهيرة الأمس سعيداً سعادة بالغة بخصوص رسالتك (رسالة الثلاثاء) وعندما قرأتها ثانية فى المساء، وجدت أنها لم تكد تختلف فى طبيعتها عن الرسائل الأخيرة، (يكون تعساً بما يتجاوز كثيراً ما تسمح به)، تثبت الغلطة إلى أى حد أفكر فقط فى نفسى. لقد استغلقت فى داخل نفسى، كيف ألتصق فقط

بذلك الجزء منك الذى يمكننى أن أتشبث به، وإلى أى حد أتوق إلى أن أنطلق هارباً به إلى الصحراء، حتى لا يقدر على أن ينتزعه منى أحد. لأننى كنت قد عدت للتو إلى حجرتى من الإملاء؛ لأنه كانت تقبع هناك لدهشتى رسالتك؛ لأننى شملتها بنظرة فى سعادة وينهم، لأنه لم يبد بها أى شئ موجه ضدى بأحرف كبيرة، لأنه بالصدفة وحدها كان صدغاى ينبضان بهدوء، لأننى كنت خفيف القلب إلى حد يكفى لأن أتخيلك راسخة فى عمق غابة، بحيرة أو جبال - لكل هذه الأسباب ولأسباب قلائل أخرى فوقها حتى، ليس لأى منها أدنى علاقة برسالتك ووضعك الحقيقى، بدت رسالتك لى باعثة على البهجة - ونتيجة لذلك رددت عليها بحماقة.

***

الاثنين

ترين يا ميلينا، إلى أى حد يفتقر المرء إلى التحكم فى نفسه، إلى أى حد يتطوح ذهابا وجيئة فى بحر - بدافع من الحقد وحده - لا يبتلع المرء فى جوفه.

طلبت منك أخيراً ألا تكتبى إلى يوميا، وكنت مخلصا فى طلبى، كنت خائفاً من الرسائل؛ وعندما لم تصلنى أحيانا أية رسالة كنت أكثر هدوءاً؛ وعندما رأيت رسالة ملقاة فوق المائدة كان على أن أستجمع كل قواى، لكننى لم أجد قواى فى متناولى بما يسعفنى - واليوم كان مقدراً لى أن أكون تعساً لو أن هذه البطاقات (لقد قرأت بكليهما) لم تكن قد وصلتنى. شكرا.

من بين الكتابات التعميمية التى قرأتها حتى الآن عن روسيا،

أحدثت المقالة المرفقة بهذه الرسالة أشد التأثيرات علي، أو على وجه أكثر تحديداً، أحدثت أشد التأثيرات على جسدي، على أعصابي، على دمي. حقاً، لم أكن قد أخذتها تماماً كما كتبت؛ لكنني كنت قبل كل شئ قد قمت بتنويعها وفقا للأركسترا الخاصة بي. (قطعت نهاية المقالة، فهي تحتوي على اتهامات ضد الشيوعيين، وهذه النهاية، لا تتفق مع هذا السياق، والمقالة على كل حال هي مجرد شذرة فحسب).

***

الخميس

رسائلك في يومي الأحد والاثنين، وبطاقة قد وصلت. أرجوك أن تحكمي على الموقف حكماً صحيحاً يا ميلينا. إنني أجلس هنا في عزلة زائدة، على مسافة بالغة البعد، وإن كنت أجلس في سلام وتمر عبر رأسي أشياء كثيرة - الخوف، عدم الارتياح؛ وهكذا فأنا أكتبهما وإن كانا لا يفيدان الكثير من المعنى، وأنا عندما أتحدث إليك أنسى كل شئ، حتى أنت؛ وعندما تصلني مثل هاتين الرسالتين، أصبح مرة أخرى فحسب على وعي بالكل.

شئ واحد من بين هواجسك بخصوص الشتاء لا أفهمه بالمرة. فلو أن زوجك مريض إلى هذا الحد، أو يعاني حتى من مرضين، ولو أن الحال يمثل خطراً، فهو عندئذ بالتأكيد لا يمكنه أن يذهب إلى مقر عمله ولا يمكن بالطبع أن يفصل بصفته موظفا معيناً على وظيفة دائمة؛ وبسبب من مرضه فسوف يكون عليه أيضاً أن يرتب حياته على نحو مختلف، وبهذه الطريقة سيتم تبسيط كل شئ ليصبح أسهل خارجياً على الأقل، والمحزن أن يكون الحال كله خلافاً لذلك.

إلاّ أن واحداً من أكثر الأشياء التى تفتقر تماماً إلى المعنى فى هذه الدنيا الواسعة، إنما هو التناول الجاد لمشكلة الذنب، على الأقل هكذا يبدو لى. فليس فقط التلفظ بعبارات اللوم هى التى تبدو لى بلا معنى؛ ولا شك فى أنه عندما يلم بالمرء كرب ما، فإنه يلقى بالملامات فى كل الاتجاهات (مع أنه بالطبع لا يفعل ذلك عندما تلم به أشد حالات الكرب هولاً، فهو لا يتلفظ عندها بأى لوم)؛ أيضاً من المفهوم أن المرء يتشبث بمثل هذا الملام فى وقت الهياج والاضطراب؛ لكن أن يكون على المرء أن يعتبر أنه من الممكن أن يتناقش بشأنها كما يسعه أن يناقش أى مسألة رياضية عادية من المسائل التى تبدو بالغة الوضوح حتى لتسفر عن نتائج يتم استخدامها فى السلوك اليومى، فهذا ما لا أفهمه على الإطلاق. بالطبع يقع عليك اللوم؛ وبعد ذلك يقع اللوم أيضاً على زوجك، ثم بعد ذلك عليك مرة أخرى، وبعدها يقع عليه ثانية، بما أنه لا يمكن أن يكون الحال خلافاً لهذه الصورة فى الحياة المشتركة للكائنات البشرية، ويتكوّم الملام فى تتابع لا ينتهى حتى يبلغ الخطيئة الأصلية الرمادية؛ لكن أية فائدة يمكن أن يقدمها لى فى يومى الحالى أو فى الزيارة للطبيب فى (إشل) كى ينبش فى الخطيئة الأزلية؟

وطوال الوقت يتساقط المطر فى الخارج ولا يبدو قط أنه سوف يتوقف. ولا يزعجنى المطر على الإطلاق، لوجود سقف يحمينى، لكن ما يربكنى فقط هو أن آكل (إفطار الشوكة) [1] أمام نقاش المنزل الذى يقف فى هذه اللحظة فوق السقالة أمام نوافذى، وفى هياجه بسبب المطر الذى لا يتوقف إلاّ وقتيا عن الهطول، وبسبب كمية الزبد

(١) كان معتاداً فى النمسا القديمة، على أنه إفطار ثانٍ، بما أن الإفطار الأول لا يعد وجبة تامة.

التى أضعها فوق خبزى، يطرطش الطلاء فوق النوافذ بلا انقطاع (وهو ما قد يكون أيضا تخيلى أنا، بما أن انشغاله بى يقل بلا شك عن انشغالى به مئة مرة). لا، إنه الآن حقا منهمك فى صب المطر والرعد.

سمعت أخيرا بعضاً من الأخبار الجديدة عن (ڤايس)، وأنه ليس مريضاً ربما، لكنه بلا نقود، وأيا كان الأمر، فقد كان حاله هكذا فى الصيف. كتبت إليه فى (الغابة السوداء) بالبريد المسجل منذ ثلاثة أسابيع ولم يرد، إنه الآن بالقرب من «بحر ستارنبرجر» بصحبة صديقته التى تكتب بطاقات مكتئبة جادة (هذه هى طبيعتها) إلى (باوم)[1] قبل أن تغادر براغ (حيث حققت نجاحاً بالغاً على المسرح) منذ حوالى شهر، كان لى حديث قصير معها. كانت تبدو فى مظهر رث، وهى عموما ضعيفة ورقيقة، لكنها تتصف بالصمود، وكانت منهكة القوى نتيجة للجهد الذى أنفقته فى التمثيل.

تحدثت عن (ڤايس) تقريباً كما يلى: «إنه فى هذه اللحظة فى الغابة السوداء، وهو لا يشعر بالراحة هناك؛ لكننا الآن سنكون معاً، عند (بحر ستارنبرجر) وستكون الأمور أفضل».

***

الأحد

هل ما أردت أن تكتبيه لى هو الموضوع الرئيسى لهذه الرسالة يا ميلينا، أو أنه فى نهاية الأمر هو الثقة الضمنية؟ لقد كتبت بالفعل عنه مرة من قبل، وكان ذلك فى إحدى الرسائل الأخيرة إلى فى

(١) كاتب براغ الأعمى (أوسكار باوم)، وهو صديق قديم لكافكا.

ميران، التى لن أعد قادرا على الرد عليها.

كان على روبنسون كما ترين أن يوقع بالموافقة، وأن يقوم بالرحلة الخطرة، وكان عليه أن يعانى لتحطم سفينته ولأشياء كثيرة أخرى – وليس أمامى فقط سوى أن أفقدك وسأكون عندها روبنسون بالفعل، إلا أننى سأكون روبنسون أكثر منه؛ ذلك أنه ماتزال لديه الجزيرة ويوم الجمعة وأشياء كثيرة وأخيرا السفينة التى حملته منها وكادت أن تحيل كل شئ مرة أخرى إلى حلم – ولن يكون لى أنا شئ من هذا، ولن يكون لى اسم حتى، فهذا أيضا أعطيته لك.

وهذا هو السبب فى أننى بمعنى ما، مستقل عليك، فقط لأن الاستقلالية قد بلغت ما وراء كل الحدود. إن خيار (إما / أو) خيار رهيب للغاية؛ فإما أنك لى وسيكون الخيار خيرا فى هذه الحالة، أو أفقدك، وهى الحالة التى تكون فحسب سيئة، بل تكون لا شئ. فى تلك الحالة لن توجد غيرة، ولا معاناة ولا قلق – لا شئ، وبلا شك ثمة ما يتصف بالتجديف والجحود فى بناء كل هذا الصرح الهائل بلا حد على أساس شخص واحد، وهذا أيضاً هو السبب فى أن الخوف يزحف حول الأساسات. ومع ذلك فليس ذلك كله هو الخوف بخصوصك بقدر ما هو الخوف بخصوص الجرأة على أن يقوم المرء بالبناء على هذا النحو أصلاً. وهذا هو السبب فى أنه للدفاع عن النفس (ولعله أن يكون دائماً على هذا النحو، يختلط الكثير جدا من الصفات القدسية مع الصفات البشرية فى ملامح وجهك العزيز.

والآن على هذا كان شمشون قد أخبر دليلة بسره، وكان فى وسعها أن تقص شعره الذى كان دائما ما تجعده سلفاً. لكن لتفعل! فطالما أنها ليس لديها سر مماثل، فلا شئ يهم بعد ذلك.

على امتداد ثلاث ليال كنت أنام نوماً سيئاً جداً بلا أى سبب واضح. آمل أن تكونى فى خير حال؟

رد سريع لو أمكن أن يعد رداً، وصلت البرقية لتوها. جاءت على نحو مفاجئ للغاية (ومفتوحة أيضاً) حتى أننى لم أجد وقتاً لأتخذ أهبتى. هى بالفعل ما أريده اليوم بالضبط؛ فكيف عرفت؟ إنها الطريقة الطبيعية التى يرد بها من عندك ما هو ضرورى دائماً.

***

الثلاثاء

سوء فهم - لا، إنه أسوأ من مجرد سوء فهم، بكل معنى *الكلمة*، يا ميلينا - وإن كنت بالطبع تفهمين السطح فهماً صحيحاً - لكن ماذا هناك لكى يفهم أو لا يفهم؟

إنه سوء فهم يظل قادراً على *التكرر*، فقد حدث بالفعل مرة، مرتين فى ميران. لم أكن فى النهاية أطلب منك النصيحة، وهو ما قد أطلبه من الرجل الجالس على المكتب المقابل لمكتبي. لقد كنت أتحدث إلى نفسى؛ أسأل نفسى النصيحة، فى سبات عميق، وأيقظتنى أنت.

لا أدرى ما إذا كنت قد فهمت ملاحظتى عن المقالة التى تدور حول البلشفية. وما اعترض الكاتب عليه هو بالنسبة لى أعلى تقريظ ممكن على وجه الأرض. لو كان لى الخيار فى الليلة الأخيرة (كانت الساعة الثامنة مساء، عندما نظرت من الشارع إلى حجرة المأدبة فى «قاعة المدينة» اليهودية؛ حيث كان يقيم أكثر كثيراً من مائة من اليهود المهاجرين الروس - كانوا ينتظرون تأشيرات سفرهم الأمريكية -، كانت الحجرة مكتظة بهم كما تبدو فى أثناء أحد

الاجتماعات العامة؛ وبعد ذلك في الساعة الثانية عشرة والنصف رأيتهم جميعاً نياماً هناك، الواحد تلو الآخر، كانوا ينامون حتى وهم فوق المقاعد، وهناك كان شخص ما يسعل، أو يتقلب على جانبه الآخر، أو يتلمس طريقه بحرص خلال الصفوف، وظل النور الكهربائي مضاء طوال الليل) - فلو كان لي الخيار لأن أكون كما أردت، لكنت قد اخترت أن أكون صبياً يهودياً شرقياً صغيراً في ركن الحجرة، وبلا أثر للانشغال كان الأب في الوسط يتناقش مع رجال آخرين، والأم ملتفة في لفافات ثقيلة تمد يدها باحثة في جوف بقجه السفر، والأخت تثرثر مع البنات وهي تهرش في شعرها الجميل - وفي غضون أسابيع قليلة سوف يكون المرء في أمريكا. لم يكن الأمر بهذه البساطة بالطبع، فلقد كانت توجد بينهم حالات دوزنتاريا، وكان هناك ناس في الشارع، يهتفون بتهديدات خلال النوافذ، وكانت هناك مشاجرات حتى بين اليهود أنفسهم، فلقد هاجم اثنان بالفعل أحدهم الآخر بالسكاكين. لكن لو كان المرء صغيراً، لو كان المرء يملك الإدراك ويحكم على كل شئ بسرعة، فما الذي كان ليحدث للمرء؟، وكان هناك الكفاية من الصبية كهذا الصبي يهرولون جرياً في أنحاء القاعة يتسلقون الحشيات، ويزحفون تحت المقاعد في انتظار الخبز الذي كان شخص ما - هم شعب واحد - يقوم بتوزيعه مع شئ ما. كل شئ يصلح للأكل.

***

الثلاثاء

وصلت اليوم رسالتان، والبطاقة البريدية المصورة. فضضتها في تردد. إما أنك طيبة إلى حد يفوق التصور أو إنك تجيدين التحكم في

نفسك بدرجة تفوق التصور، ويشير كل شئ إلى الاحتمال الأول، وتشير أشياء عديدة أيضاً إلى الثانى.

أكرر: لقد كنت محقة كل الحق. وإذا كنت قد - وإنه لمستحيل - أوقعت بى شيئاً متهوراً بالمثل، محجوب مدى النظر، سخيف فى طفولية، مغرور، ومفتقر حتى إلى التفكير كالذى أوقعته بك بالتحدث إلى ڤ. لكنت قد جانبت صوابى، وليس فقط فى لحظة إرسال البرقية[1].

قرأت البرقية فقط مرتين، مرة سطحياً بعد أن تسلمتها؛ ثم بعد ذلك بأيام قبل أن أمزقها.

من الصعب أن أصف القراءة الأولى. أشياء كثيرة جداً تدافعت نحوى فى الحال. كانت هذه هى الصفعة.

لا، لا يمكننى اليوم أن أكتب عن هذه القراءة بالتفصيل، ليس لأننى متعب خاصة، بل بالأحرى، لأننى «أشعر بالثقل» إن الـ«لا شئ» الذى كتبت عنه قد أطلق على أنفاسه.

إن الأمر كله سيكون مبهما لو ظننت أننى قد فعلت ما فعلت أعلاه مذنباً، عندئذ كان يجب ان أعاقب بالضرب لسبب يستوجب عقابى. لا، إننا مذنبان كلانا - كما أننا كلانا لسنا بمذنبين.

ربما، بعد التغلب على كل المقاومة التى لها ما يبررها، ستكونين قادرة على أن تصالحى نفسك فى النهاية مع رسالة (ڤ) التى ستجدينها فى ڤيينا. ذهبت فى ظهيرة اليوم الذى وصلتنى فيه البرقية لأسأل عنها فى منزل والدك. فى أسفل البرقية كان قد كتب

(١) كان كافكا قد ساوم بالنيابة عن ميلينا فى صفقة مالية حرجة، ولقد أدى هذه المهمة السرية فيما يبدو ببراعة فائقة وبلباقة - ليس إرضاء لميلينا مع ذلك. وتأنيب ضميره له وإحساسه بالذنب لا يمكن أن يقوم على أساس الصفقة نفسها.

(أ. شودى) وكنت دائما قد اعتقدت أن هذا هو الطابق الأول، فكان أن وجدته الآن فى أعلى المنزل تماماً.

فتحت الباب خادمة صغيرة جميلة ومرحة، وكما توقعت لم تكن (ف) موجودة ولكننى كنت قد جئت فقط لكى أجد لنفسى شيئاً أفعله؛ بالإضافة إلى أن أعرف متى ستصل فى الصباح. وفى الصباح التالى انتظرتها أمام المنزل - أعجبت بها - ذكية، عملية، صريحة. لم أقل أكثر من أننى قد أخبرتك فى برقيتى.

(فى هامش أيسر) هواجسك عن والدك، يمكننى جزئياً أن أبددها فى المرة القادمة.

قبل ثلاثة أيام جاءت يارميللا لترانى فى مقر عملى، لم تكن قد حصلت على أية أخبار منك لمدة طويلة، ولم تكن قد عرفت شيئاً عن الفيضانات، وجاءت لتستفسر عنك. وانتهى ذلك على ما يرام. مكثت وقتاً قصيراً فقط. ونسيت أن أنقل إليها رجاءك بخصوص كتاباتك، وكتبت لها بضعة أسطر قليلة عن ذلك فيما بعد.

لم أقرأ الرسائل بعد بعناية، وعندما أفعل، سأكتب لك ثانية.

والآن وصلت البرقية أيضاً. حقا، حقاً؟ ولم تعدى تندفعين إلى مهاجمتى بالهجاء؟

لا، لا يمكنك أن تكونى سعيدة بذلك. هذا مستحيل، إنها برقية هذه اللحظة، مثل البرقية التى سبقتها، والحقيقة لا هى هنا، ولا هى فى البرقية التى سبقتها. أحيانا عندما يستيقظ المرء فى الصباح يعتقد أن الصدق موجود بالقرب من الفراش - ولكى أكون أكثر دقة

أقول إن قبرا فوقه بضع زهور ذابلة؛ مفتوح، وجاهز لكي يستقبل المرء.

لا أكاد أجرؤ على قراءة الرسائل. يمكنني أن أقرأها فقط خطفاً، لا يمكنني أن أتحمل الألم الذي تسببه لي قراءتها.

ميلينا – ومرة أخرى أفرق لك شعرك، وأرتبه إلى جانب – هل أنا حقا، ذلك المخلوق الشرير، شرير تجاه نفسي، وبالتحديد شرير بالمثل تجاهك. أو أنه لن يكون أكثر صحة أن أقول إن الشر إنما يكمن خلفي، يدفعني إلى الأمام ؟ لكنني حتى لا أجرؤ على أن أقول إنه يبدو لي كذلك عندما أكون منهمكا في الكتابة إليك، ويكون هذا هو ما أقوله.

وإلاّ فإنه كما قد كتبت تماما في الحقيقة. عندما أكتب إليك لا تكون هناك مسألة تتعلق بالنوم سواء قبل الكتابة أو بعدها؛ وعندما لا أكون مشغولا بالكتابة إليك فإنني أنام على الأغلب نوماً سطحياً للغاية، متقطعا لساعة أو ساعتين في كل مرة. وعندما لا أكتب، أكون متعباً فحسب، حزيناً وثقيلاً؛ وعندما أكتب فإنني أتمزق إرباً بفعل القلق والخوف.

يبدو كما لو أننا كلانا يطلب أحدنا من الآخر أن يرثي له؛ أطلب أنا منك ذلك، فربما يتاح لي الآن أن أخبئ نفسي، وتطلبين أنت مني – إلا أن حقيقة إمكان ذلك هي أكثر المفارقات إثارة للرعب.

تسألين، لكن كيف يكون ذلك ممكنا؟ ما الذي أريده أنا، وما الذي أفعله؟

إن المسألة تقريباً على هذا النحو: أنا، حيوان من الغابة، كنت في ذلك الوقت أكاد أتواجد في الغابة، أستلقي هناك في مكان ما في حفرة قذرة (قذرة فقط نتيجة لوجودي بداخلها بالطبع). ثم رأيتك في

خارج الحفرة، في الخلاء - أكثر شئ إثارة للدهشة رأيته على الإطلاق. نسيت كل شئ تماماً، نسيت نفسي، نهضت من مكاني، اقتربت - ومع خوفي وسط هذه الحرية الجديدة المألوفة مع ذلك - اقتربت على الرغم من ذلك، حتى بلغت مكانك؛ وكنت أنت بالغة الطيبة، فربضت على ركبتيّ محنيا إلى جوارك، كما لو كان ذلك من حقي، ودسست وجهي في يدك، كنت سعيداً غاية السعادة، ومختالاً جداً ، وحراً من كل القيود، وهائل القوة، ومؤتنسا آمنا - أكثر فاكثر ثانية هذا: آمنا مستأنساً - لكنني أساساً كنت ما أزال حيوانا فحسب، كنت أنتمي مازلت فقط إلى الغابة، عشت هنا في الخلاء فقط بفضلك، وقرأت دون أن أدرك ذلك، (ذلك أنني في نهاية الأمر، كنت قد نسيت كل شئ)، قدري في عينيك. لم يكن يمكن لهذا أن يستمر ومع أنك قد ربت على بأرق الأيدي، فقد كان عليك أن تدركي ما في ذلك من غرابة كانت توحي بالغابة، من حيث قفزت خارجاً، وإلى حيث كنت أنتمي حقا. ثم جاءت المناقشات المحتومة حول (الخوف)، تكرر نفسها على نحو لا مفر منه، فعذبتني (وعذبتك، ولكنها عذبتك ببراءتك) حتى بلغت الدرجة التي لمست معها العصب العاري. واتضح لي أكثر فأكثر إلى أي حد كنت أنا طاعوناً ملوثاً، وإلى أي مدى كنت عقبة في طريقك، أعوقك في كل مكان - وأستند إلى سوء التفاهم ذلك مع ماكس، وكان واضحاً بالفعل في جموند؛ ثم جاء فهم وسوء فهم يارميللا؛ ثم في النهاية ذلك التعامل الغبي، الأخرق، الذي تكفل به الإهمال مع (ف.)، والكثير من أشكال سوء الفهم الصغيرة الأخرى بين هذا كله. تذكرت من أنا، لم أعد أرى أي خداع في عينيك، وعانيت الرعب الحالم (للسلوك كما لو كان المرء أليفاً على

سجيته في مكان لا ينتمي المرء إليه). هذا الرعب عشت تجربته الواقعيةوكان على أن أعود إلى الظلام، لم يكن في مقدوري أن أحتمل الشمس، كنت قانطاً، حقيقة كحيوان ضال. شرعت في الانطلاق جريا بأسرع ما أمكنني، ودائما كانت الفكرة هي : «لو أمكنني فحسب أن آخذها معي!»، والفكرة المضادة : «هل ثمة أي ظلام حيث تكون هي؟».

تتساءلين كيف أعيش : هذه هي كيفية حياتي.

الرسالة الأولى كانت قد أرسلت بالفعل عندما وصلت رسالتك، وبصرف النظر عن أي شئ قد يتواجد في أسفل – تحت أشياء من قبيل «الخوف» وما إليها – وهي الأشياء التي تصيبني بالغثيان، لا لأنها مقززة، بل لأن معدتي بالغة الضعف.

وبصرف النظر عن هذا فقد تكون المسألة أسهل حتى مما تقولين. على هذا النحو مثلا: إن النقص في حال الوحدة ينبغي أن يتم تحمله خلال كل لحظة، حتى حين أن النقص الذي يشارك فيه اثنان ليس له أن يطاق. أفليس للإنسان عينان لكي يخلعهما، وله قلب لنفس الغرض؟ على أن المسألة ليست سيئة، إنها مبالغة كلها، وكذبة؛ كل شئ هو مبالغة، فقط التوق هو الحقيقي، فهذا لا يمكن أن تحدث له مبالغة. لكن حتى حقيقة التوق ليست هي صدقه، بل هي بالأحرى تعبير عن الكذبة في كل شئ آخر.

قد يبدو هذا جنونيا لكنه هكذا.

كما أنه ربما لن يكون هو الحب في الحقيقة، عندما أقول إنك الأحب إلي، إن الحب بالنسبة لي هو أنك السكين التي أديرها

مـغروسـة في داخلي. وعـلاوة علـى ذلك، فـأنت نفـسك تقـولينهـا: - «(الناس) الذين لم يؤتوا القـوة علـى أن يحـبـوا؛ ألا ينبـغـى أن يكون هذا تمييزا كافياً بين «حيوان» وبين «كائن بشرى؟».

لا يمكنك أن تفهمي حق الفهم يا ميلينا، ما هي حقيقة الأمر كله، أو أن تفهمي جزئيا مـا هو مداره. إنني حتى أنا نفسي لا أفهـمه، إنني أرتعش فـحسب تحت وطأة الهـجوم، أعـذب نفسـي إلى درجة الجنون، لكن ما هو، أو مـا الذي يريده في المدى البعيد، فهذا مـا لا أعرفه. كل مـا يتطلعه فـقط في هذه اللحظة هو السكون، الظلام، الزحف إلى مكان للاختـبـاء، أعـرف هذا ولابد لي من أن أطيع، لا يمكنني أن أفعل سوى ذلك.

إنه اندلاع، وهو يأخذ مجراه، ولقد قطع جزءاً من شوطه، إلاّ أن الطاقـات التي بعـثـتـه إنما ترتعش في داخلي طوال الوقت، قـبل الاندلاع وبعده - في الحقيقة -، حياتي، وجودي، إنما يتألف من هذا التهـديد السفلي، فلو توقف هذا التهـديد لتوقف أيضا وجودي. إنه طريقـتي في المشـاركة في الحـيـاة؛ فلو توقف هـذا التـهـديد، أهجـر الحياة، بمثل سـهولة وطبيعية إغلاق المرء لعينيه. وهل لم يكن موجودا منذ أن عرف أحدنا الآخر، وهل كنت لتتطلعي إلى حتى ولو خلسة لو لم يكن هذا التهديد موجوداً؟

بالطبع لا يمكن للمرء أن يدير الموضوع إلى هذه الوجهة ويقول:

والآن لقد مر هذا التـهديد ولم أعد إلاّ هـادئاً وسعيداً وممتنا في حـالة كوننا كلينا مـعـا الجـديدة. لا يجـرؤ المرء على أن يقـولهـا على الرغم من أنهـا تكاد تكون صـادقـة (الامـتنان صـادق كليـة - أمـا

السعادة فهي حقة بمعنى ما - إلاّ الهدوء فلا صحة لوجوده مطلقاً)
ذلك أنني سوف أكون مرتعبا من نفسي قبل كل شيء.

تذكرين الخطبة وأشياء مماثلة كانت بالطبع بسيطة للغاية، لكن لمْ تكن المعاناة بسيطة، بل كان البسيط هو أثرها. ويبدو كما لو أن المرء قد عاش دائما حياته منهمكا في الشهوات، وأن المرء الآن قد تم اقتناصه، وعقابا له على كل ما اقترفت يداه من عربدة وضعت رأسه بين ذراعي منجلة أحدها ينضغط في صدغه الأيمن، وينضغط الآخر في الصدغ الأيسر، والآن بينما تتضغط المسامير اللولبية ببطء يكون للمرء أن يقول: «نعم، سوف أواصل حياتي المعربدة» أو «لا، سوف أقلع عنها». وبالطبع يجأر المرء بـ«لا» حتى تتفجر رئتاه.

أنت أيضا على حق في وضع ما فعلته للتو على خط واحد مع الأشياء القديمة، ويمكنني بعد كل شيء أن أبقى فقط كما أنا، وأن أمر بنفس التجارب. والاختلاف الوحيد هو أنني قد حصلت بالفعل على بعض التجارب، حتى أنني في هذه الأيام لا أنتظر لكي أصرخ، إلى أن تدور المسـامـيـر اللولبـيـة لتـصل إلى حـد إكـراهي على الاعترافات، بل أبدأ بالفعل في الصراخ لمجرد إحضارها، أصرخ في الحقيقة عندما يتحرك شيء ما على البعد؛ وبهذا أصبح وعيي منتبهاً زائد التيقظ - لا، ليس زائد الانتباه، بل هو لم يصبح بعد منتبها بما يكفي إلى حد بعيد.

إلا أن هناك فرقاً آخر مايزال: لك وليس لأي شخص آخر يمكن للمرء أن يقول الحقيقة خالصة من أجل خاطر هذا الشخص نفسه، ومن أجل خاطرك؛ وفي الحقيقة فمن خلالك يمكن للمرء بالفعل أن يكتشف حقيقته هو نفسه.

لكن عندمـا تتـحـدثين بمرارة يا مـيلينا، عن طلبى منك بكل هذا الإلحاح ألا تتركينى، فلست فى حديثك هذا على حق. لم أكن مختلفاً، فى هذا الخصوص عندئذ، عما أنا عليه الآن. كنت أحيا من نظراتك (ليس هذا بعد تأليـها خـاصـاً لشـخـصك، فبنظرة كتلك يمكن لكل شخص أن يصبح سماوياً)، لم تكن لى أرضية حقيقية تحتى، وكان هذا هو ما كنت أخافه دون أن أدركه فى وضوح، لم أكن حتى على وعى بالمدى الذى بلغته فى طفوى فوق سطح أرضيتى. لم يكن هذا حسناً، لا بمفهومى ولا بمفـهومك. كلمة صدق مـحتوم واحدة كانت كافية، وجذبتنى بالفعل خطوة واحدة إلى أسفل، كلمة واحدة أخرى، بخطوة واحـدة أخـرى – حـتى لم يـعـد هناك فى النهـاية أى توقف وغاص المرء فى أسفل، وانتابه الشعور بأن حركته إلى أسفل بطيئة ماتزال. إننى لا أقتبس عن قـصـد أية أمثلة لـ«كلمات الصـدق» تلك، لأن هذا لا يؤدى إلاّ إلى التشوش، ولأنه ليس صحيحاً تماماً.

أرجوك ياميلينا، اخترعى لى إمكانية أخرى لكى أكتب إليك اليوم. فأن أرسل لك بطاقات تمتلئ بالأكاذيب لهو أمر بالغ السخف، كما أننى لا أعرف دائماً أية كتب يفتـرض أن أرسلها لك؛ وأخـيرا فكرة أنك قــد تذهبين ذات مــرة إلى مكتب البـريد بلا طائل هى فكرة لا تحتمل، فأرجوك اخترعى إمكانية أخرى.

***

مساء الاثنين

وهكذا فسوف تذهبين الأربعاء إلى مكتب البريد، ولن تكون هناك أية رســالة فى انتظارك – آه، نعم، رســالة الســبت. لم أتمكن من الكتابة فى مقر عملى لكننى كنت قد انتويت أن أعمل، ولم أتمكن من

آن أعمل لأننى كنت أفكر فى علاقتنا معا. ولم أتمكن فى فترة ما بعد الظهيرة من مغادرة الفراش، ليس لأننى كنت شديد التعب، بل لأننى كنت (ثقيلاً) ثقلاً بالغاً – مرة بعد أخرى هذه الكلمة، إنها الكلمة الوحيدة التى تناسبنى ، فهل تفهمين هذا أصلاً؟ إنه شئ شبيه بـ «ثقل» السفينة التى فقدت دفتها، والتى تقول للأمواج: «بالنسبة لنفسى أنا ثقيلة جداً، وبالنسبة لك أنا خفيفة للغاية» إلا أن الحالة ليست تماماً كذلك أيضاً، ولا تستطيع المقارنات أن تعبر عنها.

لكن أساساً السبب فى عدم كتابتى هو الشعور الغامض، هو أن لدى الكثير جداً من الأشياء بالغة الأهمية إلى أقصى حد، كى أقولها لك، وأن أى قدر من الوقت الخالى لن يكون خالياً بما يكفى لكى ألم شتات كل الجهد المطلوب لتحقيق ذلك، وهذه هى حقيقة الأمر.

وإذا كنت لا أستطيع أن أقول أى شئ عن الحاضر، فإلى أى مدى شاسع يبدو عجزى عن قول أى شئ عن المستقبل؟ لقد نهضت فى الحقيقة الآن فحسب من «فراش المرض» («فراش مرض» منظور إليه من الخارج)، إننى مازلت متشبثا به، وأكثر ما أفضله هو أن أعود إليه، على الرغم من أننى أعلم ما الذى يعنيه هذا الفراش.

ما كتبته عن الناس، يا ميلينا – «الذين لم تعط لهم القوة على الحب» – كان صحيحاً، حتى وإن كنت وأنت تكتبينه لا تعتبرينه صحيحاً. ولعل موهبتهم للحب إنما تتألف فقط من القابلية لأن يكونوا محبوبين. وحتى فى هذا يتواجد تميز فى التأهيل لهذه القابلية عند هؤلاء الناس. فلو قال أحدهم لمحبوبته: «إننى أثق فى أنك تحبيننى»، فإن هذا يكون عندئذ شيئاً مختلفاً كل الاختلاف، وأقل كثيراً عن قوله: «أنا محبوب بواسطتك». هؤلاء بالطبع، ليسوا عشاقاً بل نَحْويُّون.

أخشى أن تكونى قد أسأت فهم ملاحظتى عن «النقص فى حالة اثنين». فبهذه الملاحظة لم أكن قد قصدت أن أقول أى شئ أكثر من: أننى أعيش فى قذارتى، فهذا هو ما يشغلنى. لكن أن أجرجرك إلى داخلها أيضاً، فهذا شئ مختلف تماماً - لا كمجرد إساءة إليك، فهذا جزء عرضى من ملاحظتى (ولا أعتقد أن إساءة ضد أى شخص آخر، بقدر ما يتعلق ذلك فقط بالآخر، يمكن أن تكدر نومى). وعلى هذا فهى ليست هكذا. إن الشئ المزعج هو شئ بعيد بالأحرى حيث أننى من خلالك أصبح أكثر وعياً بقذارتى على نحو زائد، و - فوق كل شئ - أنه من خلال وعيى يصبح الخلاص أكثر كثيرا فى صعوبته بالنسبة لى - لا، بل أكثر كثيرا فى استحالته (وإنه لمستحيل على أية حال، لكن فى هذه الحالة تتزايد الاستحالة). وينتج عن هذا عرق الخوف البارد فوق الجبهة؛ ولا محل لكون هذا نتيجة لأى خطأ ينسب السبب فيه إليك. لكنها كانت ملاحظة خاطئة ولقد ندمت ندماً شديداً لأننى فى رسالتى الأخيرة عقدت مقارنات مع أشياء أسبق. فهيا نَمْحُ هذا معاً.

وهكذا فأنت حقا لست مريضة ؟

بالتأكيد، ياميلينا، أنت تمتلكين أملاكاً هنا فى براغ، ولا أحد أيضا يجادل فى ذلك، ما لم يكن الليل هو الذى يحارب منازعاً لك فيها؛ لكن الليل يحارب منازعا على كل شئ، وأية أملاك هذه مع ذلك! إننى لا أقلل من شأنها، فهى شئ ما؛ بل هى فى الحقيقة عقارات بالغة الضخامة حتى ليمكنها أن تحجب قمراً تاماً هناك فى أعلى، داخل حجرتك. ولن يخيفك الظلام البالغ؟ الظلام بدون دفء

الظلام ؟

وحتى يمكنك أن ترى شيئا من (انشغالاتى) أرفق بهذا رسماً. فهذه أعمدة أربعة، خلال العمودين الأوسطين قد دست قضبان شدت إليها يدا «المذنب»، وخلال العمودين الخارجيين دست قضبان من أجل القدمين. وبعد أن تم شد وثاق الرجل على هذا النحو يجرى سحب القضبان ببطء إلى الخارج حتى يتم شق الرجل جزئين عند المنتصف. وأمام العمود يرتكن المخترع الذى أضفى على نفسه وقد عقد يديه وساقيه، كبرياء زائداً مصطنعاً. كما لو كان هذا كله هو اختراعه الأصيل، بينما هو قد قام فقط بنسخ صورة عن عمل الجزار الذى يمدد الخنزير المنتزعة أحشاؤه مشدوداً على واجهة حانوته.

السبب فى سؤالى عما إذا كنت لن تشعرى بالخوف هو أن الشخص الذى تكتبين عنه لا يوجد، ولم يحدث أن وجد قط من قبل؛ فذلك الذى فى فيينا لم يوجد؛ كما لم يوجد ذلك الذى فى جموند، وإن كان الشخص الأخير قد زاد فى انعدام وجوده، وأن اللعنة سوف تلاحقه، وأن تعلمى ذلك هو شئ هام لأنه إن كان لنا أن نلتقى فإن الشخص الفيينى أو حتى ذلك الشخص الذى من جموند سيعاود الظهور بكل البراءة، كما لو أن شيئا لم يكن قد حدث، بينما الشخص الحقيقى فى أسفل، – ذلك الشخص المجهول للجميع ولنفسه والذى يقل وجوده حتى عن وجود الآخرين، لكنه فى تظاهراته بالقوة أكثر حقيقة من كل الآخرين (فلماذا لا يخرج فى النهاية عن غيابه ويعرض نفسه؟) سوف يرفع يده المتوعدة ليحطم بها كل شئ مرة أخرى.

نعم، ميتسى ك. كان هنا، وانقضى كل شئ تماماً على ما يرام.

لكن لو كـان ذلك ممكنا حـتـى، فـإننى لن أكـتب مـزيدا عن الناس الآخـرين، فلقـد كـان اخـتـلاطهم فى رسـائلنا هـو الذى سـبب كل الاضطراب. وهذا ليس مع ذلك هو السبب الحقيقى الذى من أجله لم أعد أرغب فى أن أكتب عنهم (فـهم فى النهاية، لم يقوموا بإحداث ضرر، بقدر ما مهدوا الطريق للحقيقة؛ ولما كان له أن يعقبها). لا أعنى بهذا أن أعاقبهم – على فرض إمكانى أن يعد ذلك عقاباً لهم – بل يبدو لى فـحسب أنهم لم يعودوا ينتمون إلى هنا. فـهنا الظلام، شقة مظلمة، ليس فيها سوى أهلها، ولا يمكنهم سوى بصعوبة أن يجدوا طريقهم فى أنحائها.

ما إذا كنت قد عرفت أنها سوف تمر؟ لقد عرفت أنها لن تمر.

عندما كنت وأنا طفل قد فعلت شيئاً سيئاً جدا، شيئاً ليس بالغ السوء بالمعنى العام، لكنه سيئ جدا بالمعنى الخاص عندى (وحقيقة أنه لم يكن سوءاً عاماً، لم يكن فضلا يحسب لى؛ لكنه كان العمى أو السبات الذى اتصف به العالم) – عندئذ كنت أصاب بالدهشة الشديدة لأن كل شئ قد واصل سيره فى طريقه بلا تغيير، وأن الكبار، وإن كانوا قد بدوا عابسين قليلاً، إلا أنهم قد واصلوا سيرهم حولى بلا تغيير، وأن أفواههم التى كنت قد أعجبت بها هادئة ومغلقة طبيعيا من مكانى المنخفض منذ بواكير طفولتى الأولى، قد واصلت البقاء مغلقة. من كل هذا استنتجت، بعد مراقبتها لفترة، أنه لم يكن بمقدورى بعد هذا كله، أن أكون قد فعلت شيئاً سيئا بأى معنى، وأن كونى قد خشيت عاقبة ما لم يكن سوى خطأ طفولى، وأننى على هذا كـان يمكننى أن أبدأ من جـديد من حـيث أقلعت عن الفـعل عند

الصدمة الأولى.

وفيما بعد، تغيرت تدريجيا هذه الفكرة التى تتعلق بالعالم المحيط، فقد بدأت أعتقد في البداية أن الآخرين كانوا على وعى كامل تماماً بكل شيء، وأنهم بالفعل قد عبروا أيضاً عن رأيهم في وضوح، وأنني فقط الذى لم أكن حتى ذلك الوقت قد امتلكت عينا حادة بما يكفى لإدراك ذلك - وهو شيء قد حصلت عليه الآن بغاية السرية، لكن برودهم ثانياً، وحتى لو كان له أن يوجد؛بدا لى، وإن كان باعثا على الدهشة، إلا أنه لم يكن مع ذلك دليلا على براءتي. حسنا، إذن فهم لم يلحظوا أى شيء؛ لا شيء في وجودى يدخل في عالمهم؛ كنت في عيونهم نقيا بلا عيب؛طريقة حياتي، طريقى قد مرّ على هذا النحو خارج عالمهم؛ فلو كان هذا الوجود مجرى مائياً، فلقد مرّ رافد قوى على الأقل عندئذ خارج عالمهم.

لا يا ميلينا، أتوسل إليك مرة أخرى أن تخترعى إمكانية أخرى لكتابتي إليك. لا ينبغى لك أن تذهبى إلى مكتب البريد عبثاً، حتى ساعي بريدك الصغير - من هو؟ لا ينبغي له أن يفعل ذلك، ولا يجب حتى على رئيسة مكتب البريد أن يوجه إليها السؤال بلا ضرورة. فإذا كنت لا تجدين أية إمكانية أخرى، فعلى المرء إذن أن يتحمل ذلك، لكن على الأقل، ابذلى مجهوداً في العثور على إمكانية واحدة.

في الليلة الماضية حلمت بك، أما ما الذى حدث بالتفصيل فلا أكاد أتذكره؛ كل ما أعرفه هو أننا ظللنا نندمج أحدنا بالآخر؛ كنت أنا أنت، وكنت أنت أنا؛ وفي النهاية اشتعلت فيك النيران على نحو ما. ولأنني تذكرت أن شخصا ما كان قد قام بإخماد النار بالملابس، أخذت معطفا قديما ورحت أضربك به، لكن تحولاتنا بدأت ثانية، ولقد قطعت في تغيرها شوطا بعيدا حتى أنك لم يعد لك وجود؛ وبدلا منك

أصبحت أنا الذى فيه النيران، وكنت أنا أيضا الذى رحت أضرب النيران بالمعطف لأطفئها، إلاّ أن ذلك لم يجد شيئاً، وكان هذا الضرب بالمعطف قد أكد خوفى القديم من أن مثل هذه الأشياء لا يمكنها أن تطفئ حريقاً. وفى تلك الأثناء، مع ذلك، وصل رجال الإطفاء، وتم إنقاذك على نحو ما. لكنك كنت مختلفة عن ذى قبل، أصبحت شبحية كما لو كنت مرسومة بالطباشير على السواد، وتهاويت بلا حياة، أو ربما كنت قد سقطت مغشيا عليك فى أحضانى فرحاً بنجاتك. لكن تدخل هنا أيضا الشك الذى لازم قابلية التحول، فربما كنت أنا من سقط بين ذراعى آخر.

الآن فقط كان هنا (أ.) هل تعرفينه؟ فلو فقط أمكن أن تتوقف الزيارات. كل شخص يتمتع بحيوية أبدية، وهو خالد فى الواقع، ربما ليس فى اتجاه الخلود الحق، لكن إلى أسفل نحو عمق أعماق الحياة الفورية المباشرة لكل منهم. إننى أخافهم خوفاً شديداً، وبسبب الخوف أحب أن أتوقع مقدما أى رغبة يرغبها الواحد منهم، وأن أقبل قدميه اعترافاً بالجميل! فقط لو انصرف بدون أى دعوة منه لرد الزيارة. وحدى تماما مازلت حيا، لكن ما إن يصل زائر فإنه يوشك بزيارته أن يقتلنى لكى يكون قادراً على أن يبعثنى حياً بما لديه من طاقة،لكنه لا يمتلك مثل هذه الطاقة الزائدة، يوم الاثنين من المفروض أن أذهب لزيارته، وإن رأسى ليطن بهذا الافتراض.

لماذا يا ميلينا، تكتبين عن مستقبل مشترك لم يكن لنا قط فى نهاية المطاف، أو أن هذا هو السبب فى أنك تكتبين عنه؟ لقد حدث بالفعل ذات مساء فى فيينا عندما تحدثنا عن هذا المستقبل باقتضاب أن تملكنى الإحساس بأننا كنا نقوم بالبحث عن شخص ما عرفناه معرفة عميقة وافتقدناه كثيراً، وكنا لهذا نناديه بأعذب الأسماء إلا

أننا لم نتلق أي رد؛ فكيف كان له أن يرد طالما أنه لم يكن موجوداً هناك، ولا كان موجودا في أي مكان آخر حولنا على بعد أميال؟

قليلة هي الأشياء المؤكدة، وأحدها هو أننا: لن نعيش معا مطلقاً، في نفس الشقة، جسداً لجسد، ونجلس إلى نفس المائدة، أبداً، ولا حتى في نفس المدينة. أوشكت أن أقول الآن بالذات أن هذا يبدو لي يقيناً كيقيني بأنني في صباح الغد لن أنهض من النوم (لقد رفعت نفسي بدون مساعدة! في مثل تلك اللحظات أرى نفسي من زاوية رؤية تحتية، وكأنني تحت صليب ثقيل، مضغوط على بطني إلى أسفل، كان على أن أعمل جاهداً قبل أن أتمكن حتى من أن أنحني عندما رفعت الجثة التي فوقي نفسها قليلاً) ولن أذهب إلى عملي. هذا صحيح بالفعل، لن أنهض بالتأكيد، لكن لو جاوزت عملية النهوض الطاقة البشرية قليلاً فحسب، فإنني سأظل عندئذ أجهد نفسي في متابعة القيام بها، سأرفع نفسي هذه الزيادة القليلة فحسب فيما وراء الجهد البشري. لكن لا تأخذي هذا الكلام عن النهوض حرفياً إلى هذا الحد، فليس الأمر بكل هذا السوء؛ فعن أنني سأنهض غدا أمر على أية حال يفوق في تأكده أغلب الاحتمالات البعيدة الأخرى التي تحفل بها حياتنا مجتمعة.

ولا تظنى أيضا يا ميلينا عكس ذلك عندما تتفحصين نفسك وتتفحصينني و«البحر» الذي بين «ڤيينا» و«براغ» بأمواجه العالية التي لا تقهر.

أما بخصوص تلك القذارة، فلماذا لا ينبغي لي أن أمضي في عرضها، وهي ملكيتي الوحيدة (الملكية الوحيدة لكل الناس، فقط أنا لست على كل هذا الوعي بها)؟ بدافع من التواضع، ربما؟ حسناً، سيكون هذا هو الاعتراض الوحيد المبرر.

وعلى هذا ففكرة الموت ترهقك؟ إننى لا أخشى فقط، فى رعب، سوى الآلام.إن هذه دلالة سيئة، فأن يريد المرء الموت ولا يريد الآلام لهى دلالة سيئة، لأنه خلافا لهذا يمكن للمرء أن يغامر بالموت. لقد كان المرء قد أطلق إلى الخارج كحمامة الكتاب المقدس، فلم تجد أثراً لخضرة فانزلقت راجعة إلى ظلام الفُلْكْ.

لقد تلقيت النشرات المرسلة من المصحتين، وكنت قد عرفت أنهما لا يمكن أن تتضمنا أية مفاجآت، وأهم ما تضمنتاه كان عن النفقات على الأغلب، وعن مدى بعدهما عن ڤيينا، وفى هذا الخصوص فكلتا المصحتين تقريبا متساويتان وهما باهظتا النفقات للغاية، أكثر من (٤٠٠) ك. فى اليوم، وربما (٥٠٠)ك.، وحتى هذه الأسعار عرضة للتغير. والمسافة حوالى ثلاث ساعات بالقطار من ڤيينا، ثم نصف الساعة بعد ذلك بالعربة، وبهذا تعد رحلة طويلة هى أيضاً. وبالمناسبة، تبدو مصحة (جريمينشتاين) مع ذلك أقل فى أسعارها إلى حد طفيف، وبهذا يمكن أن يقع عليها الاختيار فى حالة الضرورة؛ لكن فقط فى حالة الضرورة.

ترين يا ميلينا، إلى أى حد لا أفكر فقط إلا فى نفسى طوال الوقت – أو بالأحرى فى الشريحة الضيقة المشتركة من الأرضية التى تعد طبقاً لشعورى وقصدى حاسمة بالنسبة لنا – وكيف أهمل كل شئ آخر حولى. إننى لم أشكرك بعد حتى عن «كمن» و«تريبونا»، وإن كنت مرة أخرى قد أنجزت ذلك على نحو جميل. سوف أرسل لك نسختى التى معى هنا على المائدة، لكن ربما كنت تريدين أيضاً بعض التعليقات عليها، وفى هذه الحالة يتعين على أن أعيد قراءتها ثانية وليس هذا سهلاً. إلى أى حد أستمتع بقراءة ترجماتك الكتابات

الأجنبية! هل كان حديث تولستوى ترجمة عن الروسية؟

وعلى هذا فقد أصبت بالأنفلونزا؟ حسناً، على الأقل لا يمكننى أن ألوم نفسى على أننى قد استمتعت بوقت مرح هنا بنوع خاص (أحيانا لا أفهم كيف اكتشفت الكائنات البشرية فكرة «الإنشراح»، ربما كان قد تم تقديرها على أساس أنها نقيض للحزن).

كنت قد اقتنعت بأنك لن تعاودى الكتابة إلى بعد ذلك، إلا أننى لم أكن مندهشاً ولا كنت حزينا بهذا الخصوص. لم أكن حزيناً لأن ذلك بدا لى ضرورياً على نحو يتجاوز كل حزن، ولأنه فى العالم كله ربما لا توجد أثقال ميزان تكفى لرفع ثقلى الضئيل البائس، ولم أكن مندهشاً، لأننى لم أكن لأدهش حتى فى الماضى، لو كنت قد قلت: «لقد كنت حتى الآن مترفقة بى، إلا أننى سأكف عن ذلك الآن، وسأذهب بعيداً». لا يوجد فى العالم سوى أشياء تثير الدهشة؛ إلا أن هذا كان سيعد واحداً من أقل الأشياء إثارة للدهشة؛ فكم يفوقه إثارة للدهشة، مثلاً، أن ينهض المرء من نومه كل صباح. كما أن هذه، علاوة على ذلك، ليست دهشة باعثة على الثقة بالنفس، بل هى بالأحرى فضول أحياناً يثير الغثيان.

فهل لا تستحقين كلمة طيبة يا ميلينا؟ من الواضح أننى لا أستحق أن أقولها لك؛ وإلا لأمكننى أن أقولها.

هل سيرى أحدنا الآخر مبكراً عما أظن؟ أنا أكتب (يرى)، وتكتبين (نعيش معاً) لكننى أعتقد (وأرى اعتقادى مؤكداً، فى كل مكان، وفى أشياء لا علاقة لها به، وأسمع كل الأشياء تؤيد اعتقادى هذا) بأننا سوف لا يكون لنا، ولن يكون فى مقدورنا مطلقاً أن نعيش معاً، و(مبكراً عن) بدلاً من (مطلقاً)، هى مرة أخرى (مطلقاً).

(جـريمينشـتـاين) هـى الأفـضل فـى نهـاية الأمـر. إن الفـرق فـى النفـقـات ربما كـان حـوالى (٥٠)ك. فى اليـوم، وعلاوة على ذلك، فـفـى المصـحـة الأخرى على المرء أن يحـضـر مـعه كل شئ لعلاج الاسـتـراحـة (فـروة لغطاء القـدمين – وسـادة – بطاطين، إلخ، ولا يـوجـد لدى شئ من هذا)، على حـين أنه يمكن للمـرء فى مـصـحـة (جريمينشـتـاين) أن يستعيرها. فى مصـحـة (ڤينر ڤالد) على المرء أن يودع مبلغا كتأمين، لكن فى (جـــريمينشـــتـــاين) ليس هـذا مطلوباً، عـــلاوة على أن (جريمينشتاين) تقع على ارتفاع أعلى، وعلى أى حـال فلست ذاهـباً إليها الآن؛ ومع ذلك فلقد أحسست بسوء حالتى واضحاً لمدة أسبوع (بعض الارتفاع فى درجة الحرارة وتلك الصعوبة فى التنفس، حتى أننى كنت أخشى أن أنهض من أمـام المائدة، وأيضـاً سـعـالاً زائداً)، لكن يبـدو أن هذا كـان فقط نتـيـجـة لمشوار طويل سـيـراً على الأقدام تحدثت خـلاله كـثيـراً إلى أحـد مـا؛ وحـالتى الآن قد أصـبـحـت أفـضل كثيراً، حتى أن المصحة قد أصبحت مرة أخرى حاجة أقل إلحاحاً.

ولدى النشرات الآن هنا: ففى (ڤينرڤالد) أقل سـعـر لحـجـرة تطل على الجنوب، وبها شرفة هو (٣٨٠ ك.)، وفى (جريمينشـتـاين) تكلف أغلى غرفة (٢٦٠ ك.)، إن الفرق بالغ للغاية، وسعرهما كلاهما مرتفع بصـورة مرعبة. كـمـا أن احـتـمـالات الاحـتـيـاج إلى الحـقن يجب أن توضع فى الاعتبار، فالحقن على حدة لها تكلفتها الإضافية. إننى أود الذهـاب إلى الريف، وأفـضـل أكـثـر حـتى أن أبقى فى براغ، وأتعلم إحدى الحرف، وأقل من هذا كله رغبتى فى الذهاب إلى مصحة. فما الذى سأفعله فيها؟ هل سيمسك بى كبير الأطباء بين ركبتيه و«يزغط» قطعـة اللحم التى يضـعـهـا فى فـمى، بأصـابعـه التى تفـوح بحـمض الكربوليك حتى تنزل من حلقومى؟

الآن بالذات كنت مستلقيا على الأريكة لمدة ساعتين، ولم أكد أفكر خلالهما فى شئ آخر سواك.

لا يبدو عليك أنك تدركين يا ميلينا، أننا نقف معا جنبا إلى جنب، نرقب ذلك المخلوق فوق الأرض، الذى هو أنا، لكننى كمتفرج لا يكون لى وجود عندئذ.

بالمناسبة، إن الخريف يتلاعب بى هو أيضاً، فأنا فى أحيان أكون دافئاً بطريقة باعثة على الريبة، ويزيينى كذلك إحساسى بالبرودة، إلا أننى لم أكتشف عن حقيقة هذا الأمر، فلن يكون هذا أمراً سيئاً للغاية هو أيضــاً. فى الحـقـيـقـة كنت حتى قد وضـعت فى الاعـتـبـار المرور مباشرة عبر ڤيينا، لكن فقط لأن الرئة هى بالفعل فى حالة أسوأ مما كنت عليـه خـلال الصـيف - وهذا طبيـعى للغـاية فى نـهاية الأمـر - والحديث فى الشارع صعب بالنسبة لى، وله نتائج غير سارة. فلو كان على أن أغادر هذه الحـجرة، لرغبت فى أن ألقى بنفسى بأسرع ما يمكن على المقعد القماش فى (جريمينشتاين) ومن ناحية أخرى، فلعل الرحلة فى حد ذاتها أن تكون ذات نفع لى مثلها مثل الهواء فى ڤيينا الذى فاجأنى ذات مرة عندما تنفست فيه نسمات هواء الحياة الحقيقية.

قد تكون (ڤيزڤالد) أقرب، لكن هناك ثمة فرقاً كبيراً فى المسافة، والمصحة لا تقع فى (ليبرزنورف)، بل تقع على مسافة أبعد منها، ومن المحطة إلى المصحة مسافة أخرى تبعد نصف ساعة بالعربة. وعلى هذا فلو كان لى أن أرحل من هذه المصحة إلى بادن بدون مصاعب - لأن ذلك سيكون بالتأكيد مخالفاً للتعليمات - فسيكون فى مقدورى بالمثل أن أرحل أيضا من (جريمينشتاين) إلى (ڤينر - نويشتات)، ولن يكون

فى هذا فرق كبير لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لى.

كيف حدث يا ميلينا، أنك مازلت لا تحسين أى خوف أو نفور مني، أو شئ من هذا القبيل؟ والى أى مدى تبلغ جديتك وقوتك.

إننى أقرأ كتاباً صينياً هو (قصص أشباح). وأذكره لأنه يهتم بصفة خاصة بالموت. رجل يستلقى على فراش موته، وفى حالة الاستقلال التى يتيحها له إشرافه على الموت، يقول: «لقد قضيت حياتى محاولاً أن أحارب الشهوة وأن أضع نهاية لها». ثم يسخر تلميذ من مدرسه الذى لا يتحدث عن شئ سوى الموت قائلا له: «إنك تتحدث عن الموت طوال الوقت، لكنك لا تموت حتى الآن»، ويرد عليه المدرس: «وسأموت مع ذلك، لكننى أغنى فقط أغنيتى الأخيرة؛ فأغنية رجل ما أطول، وأغنية غيره أقصر. والفرق مع ذلك لن يكون مطلقاً أكثر من بضع كلمات قلائل».

هذا حق، ومن غير العدل أن يبتسم المرء وهو ينظر إلى البطل الذى يستلقى فوق خشبة المسرح، يغنى وهو يعانى جراحه المميتة لحناً من الألحان. فنحن جميعاً نستلقى فوق الأرض ونغنى لسنوات.

قرأت أيضا «رجل المرآة»[1]. فأية وفرة فى الطاقة الحيوية! فقط فى أحد المواضع يتبدى المرض قليلاً، لكن تتزايد فى كل موضع آخر غزارتها الحيوية، وحتى المرض مفرط القوة لقد قرأتها فى نهم حتى النهاية فى ظهيرة واحدة.

ما هذا الذى يعذبك الآن «هناك»؟ لقد ظننت دائماً أننى كنت عاجزا حيال هذا فى الماضى، لكننى إنما أعانى العجز الآن فحسب؛ وعلاوة على ذلك، فأنت غالبا جدا ما تكونى مريضة.

مررت الآن على المدير؛ كان هو قد استدعانى. وكانت (أوتلا) قد

ذهبت لمقابلته ضد رغبتى فى الأسبوع الماضى؛ وضد رغبتى فحص طبيب العمل حالتى، وضد رغبتى سوف أحصل على إجازة.

اصفحى عنى يا ميلينا، فلقد كتبت لك باختصار زائد ربما، فى الفترة الأخيرة، بينما كنت ساخطاً عند حجز الغرفة بالمصحة (التى اتضح الآن أن حجزها لم يتم)؛ وعلى الرغم من ذلك، فأنا أنوى الذهاب إلى (جر.)، لكن ماتزال هناك بعض المعوقات الصغيرة التى كان من الممكن أن يتغلب عليها قبل وقت طويل شخص يتمتع بقوة جسمانية متوسطة، إلا أننى فحسب لم أستطع (وبالطبع من ذا الذى لا يود الذهاب إلى (جر.). وقد علمت للتو أيضا، أنه خلافاً لتأكيدات المصحة، يلزمنى تصريح إقامة من السلطات التى ربما تسمح بها، لكن ليس قبل أن أرسل طلباً لذلك بلا شك.

لقد قضيت فترة ما بعد الظهيرة كلها فى الشوارع، أتلوى ملتقطاً الطعم من سنارة اليهود؛ (رعاع أقذار) سمعت أحدهم ينعت بها اليهود منذ بضعة أيام. أليس السلوك الطبيعى هو أن يغادر المرء المكان الذى تبلغ الكراهية له فيهذا الحد؟ (لهذا السبب، لا حاجة بنا إلى الصهيونية، أو الشعور القومى). إن البطولة التى تتمثل فى البقاء على الرغم من كل هذه الكراهية، هى بطولة الصراصير التى يتعذر أيضا إبادتها من الحمّام.

الآن فحسب تطلعت خارج النافذة: البوليس المطلى على ظهور الخيل (الجندرمارى) متأهب للهجوم بالسناكى، والحشد الصارخ يتبدد هاربا، وفى النافذة هنا فى أعلى العار الكريه للحياة طوال الوقت تحت الحماية.

(١) مسرحية لـ (فرانتس فيرفل).

كانت هذه الرسالة ملقاة هنا لبعض الوقت، إلا أننى لم أعقد العزم على إرسالها، كنت منغلقاً للغاية فى داخل نفسى - أيضا، يمكننى أن أفكر دائماً فى السبب الوحيد لعدم كتابتك لى.

لقد أرسلت الطلب فعلاً إلى السلطات، وعندما يتم قبوله فسوف تتم البقية (حجز الغرفة وجواز السفر) عاجلاً، ثم سأحضر بعد ذلك. تريد شقيقتى أن تذهب إلى ڤيينا، وربما تحضر فى الحال، إنها تريد أن تقضى يوما أو يومين فى ڤيينا، لكى ترافق فى رحلة قصيرة، طفلها الذى يبلغ الشهر الرابع من عمره الآن.

إيرنشتاين[1] - حسناً، مما كتبه لك، يتضح أن له عينا فاحصة أكثر مما ظننت. وعلى هذا الأساس أحب أن أعيد النظر فى الانطباع الذى كنت قد كونته لنفسى عنه، لكن طالما أننى لا يمكننى أن أراه الآن فلن يكون ذلك بإمكانى. أحسست معه - وإن لم يكن ذلك قد استمر لأكثر من ربع الساعة - بالارتياح الزائد، ولم يكن هذا غريباً بالمرة، وإن لم يكن ذلك على مستوى أكثر ارتفاعاً فى الوقت نفسه - لقد كان الارتياح، وعدم الإحساس بالغربة هو الإحساس الذى أحسسته عندما كنت تلميذاً تجاه الصبى الذى كان يجلس إلى جوارى. أحببت ذلك الصبى، لم يكن بإمكانى الاستغناء عنه كنا حليفين فى اجتيازنا لكل أهوال المدرسة؛ وكان تصنعى معه أقل منه مع أى شخص آخر - فأى علاقة مثيرة للشجن كانت علاقتنا تلك أساساً. لقد كان هذا هو نفس الشئ مع (إيرنشتاين)، لم أشعر معه بأى تبادل مشترك للقوة الداخلية. كان ما يعنيه جيداً جداً، وكان يتحدث جيدا، ويبذل جهداً هائلاً،لكن لو قدر لمثل هذا المتحدث أن يقف على ناصية كل شارع فلن يكون لهؤلاء المتحدثين

(١) ألبرت ايرنشتاين، الشاعر الڤيينى.

على أى نحو، أن يعجلوا بمجئ «يوم الحساب»؛ لكنهم سيجعلون أيام الحاضر تستعصى أكثر مما هى عصية، على قدرتنا على احتمالها. هل تعرفين (تانيا)[1]، تلك المحادثة بين القس الروسى وبين تانيا؟ إنها، دون أن يقصد لها أن تكون؛ مثال لهذا النوع من العون العاجز وتموت تانيا أمام أعيننا تحت وطأة عبء هذا الارتياح الهائل.

ربما يكون (إ.) فى ذاته شخصا شديد القوة، وما قرأه منذ عدة ليال، كان جميلا جمالاً نادراً، وإن يكن مرة أخرى باستثناء فقرات معينة فى كتاب «كراوس»[2]. وله كما قلت من قبل عين نافذة.

فى الحقيقة، يكاد يكون (إ.) قد أصبح بدينا على الأغلب، وهوجسم على أى حال (وأيضا جميل بصراحة؛ فكيف أخطأك أن تلاحظى ذلك!)، ويعرف عن النحاف من الناس، ما يزيد قليلا على معرفته بكونهم نحاف البنية، وأصارحك القول بأن معرفته هذه تعد كافية بالنسبة لغالبيتهم؛ فهى كافية مثلاً، بالنسبة لى.

لقد تأخرت المجلات، وسأذكر لك السبب فى وقت آخر؛ إلاّ أنها فى الطريق.

لا ياميلينا، لا توجد إمكانية حياة مشتركة ظننا أننا كنا قد عشناها فى ڤيينا، تحت أى ظرف، ولم يحدث أن وجدت تلك الحياة وقتذاك، كنت قد تطلعت «من وراء سورى»، كنت فحسب قد شببت نحو قمة السور متشبثا بها بيدىّ، ثم سقطت من عندها ثانية بيدين ممزقتين. هنا بالطبع إمكانات أخرى؛ إلاّ أننى لم أعرفها بعد.

(١) دراما شاعر براغ (إرنست ڤايس).

(٢) كتيب إيرنشتاين، عن الكاتب الڤيينى الساخر «كارل كراوس».

أسعدتني بالجدول. إنني أدرسه وكأنني أدرس خريطة. هناك ثمة يقين إلاّ أنني واثق من أنني لن أحضر قبل أسبوعين، وربما بعدهما. عدة أشياء مازالت تعوق انطلاقي في مقر عملي؛ والمصحة التي اعتادت الرد علي فوراً، قد صمتت الآن، ولم ترد على تساؤل عن التغذية النباتية، وعلاوة على ذلك فإن نهوضي للقيام بالرحلة يكاد يكون كنهوض أمة؛ طوال الوقت هنا وهناك يحتاج الأمر إلى شئ من الإرادة؛ وهذا الشخص وذاك مايزال ينبغي تشجيعه، وفي النهاية يصبح كل شخص مستعداً لكنني لا أتمكن من الرحيل لأن طفلا راح يبكي. وأكثر من ذلك، فإنني أكاد أخاف الرحلة فمن ذا الذي سيحتملني مثلا في فندق، عندما أنخرط في السعال مثل الليلة من العاشرة إلاّ الربع (لقد انقضت سنوات منذ أن تواجدت في الفراش في العاشرة إلاّ الربع) حتى حوالي الحادية عشرة بلا انقطاع، ثم أتهيأ للنوم، وفي الثانية عشرة عندما أتقلب من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، أبدأ في السعال ثانية وأستمر في السعال حتى الواحدة صباحاً؟ لا شك أنني لن أجرؤ على أن أرحل ثانية في قطار نوم، كما فعلت في العام الماضي بلا صعوبات.

ليس الأمر تماما على هذا النحو يا ميلينا. إن من يكتب لك الآن، تعرفينه من ميران. كنا عند ذاك شخصاً واحداً، لم يكن قد أصبح هناك ثمة سؤال عن معرفة أحدنا بالآخر، ثم انفصلنا بعد ذلك ثانية.

وأود أن أقول ما هو أكثر في هذا الشأن، غير أنه لا يمكنه أن يخرج من حلقي الجاف.

إن الأمر هو أيضا على هذا النحو معي. غالباً ما أفكر قائلاً

لنفسي: يجب أن أخبرك بهذا، غير أنني لا أستطيع أن أخبرك بشئ في نهاية الأمر. ربما كان الباشجاويش (بيركنز) ولا يمكنني إلاّ عندما يترك يدي لدقيقة أن أكتب لك بسرعة كلمة في السر.

إن ترجمتك لهذه الفقرة بالذات تدل على تشابه في المزاج، نعم، إن التعذيب يهمني غاية الأهمية ، إنني لا يشغلني شئ سوى أن أتعذب وأن أتسبب في عذاب الغير. لماذا؟ لنفس السبب الذي كان يدفع الباشجاويش بيركنز، ومثله أيضا أفعل ذلك بلا تفكير، تلقائياً وانسياقا مع العرف - أعني لكي أتعلم الكلمة اللعينة من الفم الملعون. كنت قد عبرت ذات مرة عن الغباء المتأصل في هذا (فالتحقق من الغباء لا ينفع بشئ) كما يلي: «ينتزع الحيوان السوط من السيد ويسوط به نفسه، وذلك كي يصبح هو نفسه سيداً، ولا يدرك أن ذلك ليس لسوى خيال صورته له عقدة جديدة أخرى في سوط السيد».

وإن التعذيب ليثير الشفقة بالطبع، أيضاً. ولهذا لم يقم الاسكندر بتعذيب «العقدة الجوردية» عندما استعصت على أن تنفك.

في هذا الصدد يبدو أن ثمة عرف يهودي موجود أيضاً، فالـ(ڤنكوف[1])، التي تكتب كثيراً ضد اليهود في هذه الأيام، قد أوضحت في مقال بارز أخيراً أن اليهود يفسدون كل شئ ويصيبونه بالانحلال، وأنهم حتى يفترض أنهم قد أفسدوا حركة (التسوط) التي كانت معروفة في القرون الوسطى! ولسوء الحظ لم يرد بالمقال مزيدا من التفاصيل عن هذا، فقط كانت به فقرات مقتبسة من كتاب

انجليزى. أشعر «بتثاقل» بالغ يعوقنى عن الذهاب إلى مكتبة الجامعة، إلا أننى أود جداً أن أعرف حقيقة علاقة اليهود بهذه الحركة التى كانت (خلال العصور الوسطى) قد بعد بها العهد عنهم جداً. وربما وجد بين معارفك باحث يعرف شيئاً عن هذه الحركة.

لقد أرسلت الكتب، وأصرح لك بوضوح، أن ذلك لم يضايقنى، بل إنه على العكس من ذلك هو الشئ الوحيد الذى يكاد يكون له معنى والذى قمت به منذ وقت طويل. كتاب (ألس)[2] قد نفدت طبعته، وسوف تظهر الطبعة الجديدة منه فى عيد الميلاد. وقد اشتريت بدلاً منه كتاباً لـ(تشيخوف). وأخشى ألا تكون طبعة (بابيكا). واضحة القراءة، فلعلك لم تكونى لتشتريها لو رأيتها، لكن كانت التعليمات قد وجهت إلى ...

هل قرأت شيئاً عن تفاصيل حريق المصحة؟ على أية حال ستكون مصحة (جريمنيشتاين) قد ازدحمت الآن وأصبحت بعيدة عن متناولى. وكيف سيتمكن (هـ) من زيارتى هناك؟ ظننت أنك قد كتبت لى أنه موجود فى ميران.

إن رغبتك فى ألا أقابل زوجك من الممكن ألا تكون أقوى من رغبتى فى ذلك، لكن لو لم يحضر هو بالفعل لزيارتى – ولا أكاد أظن أنه سيفعل ذلك – فسوف يكون لقاؤنا عندئذ مستحيلاً.

تأجلت الرحلة مرة أخرى لأن لدى أعمالا على أن أقوم بها فى المكتب. ترين من هذا أننى لست خجلا عندما أكتب إليك قائلاً أن

(١) الصحيفة لسان حزب الفلاحين المحافظ.

(٢) Ales فنان مصور وحفار تشيكى.

لدى «أعمالا على أن أقوم بها». بالطبع من الممكن أن تكون هذه أعمال كأى أعمال أخرى غيرها؛ لكنها بالنسبة شبه إغماءة، أقرب إلى الموت كقرب النوم منه. فقال «فنكوف» صحيح تماماً. هاجرى يا ميلينا، هاجرى.

تقولين يا ميلينا أنك لا تفهمين ذلك، حاولى فهمه بأن تسميه مرضاً. إنه واحد من كثير من الأعراض المرضية الذى يظن التحليل النفسى أنه قد كشف عنها. إننى لا أسميه مرضاً وأعتبر الجانب العلاجى من التحليل النفسى غلطة ميئوس من إصلاحها. كل هذه التى تدعى أمراضا، مهما بدت بائسة، هى أمور تتعلق بالعقيدة، هى جهود للأرواح المكروبة فى محاولاتها لبلوغ مرافئ فى تربة أمومية على نحو ما؛ وعلى هذا يعتبر التحليل النفسى أيضا أصل الأديان (فى زعمه) ليس سوى ما يسبب للفرد «الأمراض». ونفتقد فى أيامنا هذه بالطبع الإحساس بالمجتمع الدينى بصفة عامة؛ فالملل لا حصر لها، ومحصورة فى أشخاص فرادى - وربما يبدو ذلك على هذا النحو فقط للعين المتأثرة بألوان الحاضر.

ومع ذلك فمثل هذه المرافئ التى تتشبث بالأرض الصلبة حقاً، هى فى النهاية ليست ملكية للإنسان منعزلة قابلة للتبادل، بل هى خلافاً لذلك موجودة قبلاً فى طبيعته، وهى تواصل عملها فى تشكيل طبيعته (كما تعمل عملها فى تشكيل جسمه أيضاً) فى هذا الاتجاه، والأمل أن يكون هنا مجال العلاج ؟

أما فى حالتى فعلى المرء أن يتخيل ثلاث دوائر؛ دائرة داخلية هى (أ)، ثم (ب) ثم جـ)، وتفسر الدائرة المركزية (أ) للدائرة (ب) لماذا يتعين على هذا الرجل أن يعذب نفسه ويتشكك فيها، ولماذا يتعين عليه

أن يرفض (إنه ليس رفضاً، لأن ذلك سيكون من الصعب جدا، ولكنه فقط مجرد وجوب لأن يرفض)، ولماذا قد لا يكون له أن يعيش. (وألم يكن ديوچين مثلاً، مريضاً بهذا المعنى مرضاً عضالاً؟) ومن منا من لن يسعده لو أشرقت علينا في النهاية من أعلى عين الاسكندر؟ غير أن ديوچين قد استعطفه في إلحاح بالغ أن يتيح له الحصول على الشمس – تلك الشمس المرهقة، الإغريقية، التي يبعث حريقها على الجنون. لقد كان هذا الحوض مليئا بالأشباح. أما عن (جـ) الشخص الفعال، فلا شيء عنده يجد تفسيرا حتى الآن، فهذه الدائرة *تتلقى الأمر من (ب). إن (جـ) إنما يفعل تحت أقصى الضغوط عنفاء* عندما يتصبب عرق الخوف بارداً (هل ثمة عرق آخر يتفصد فوق الجبهة، والخدين، والصدغين وفروة الرأس – أو باختصار من كافة جوانب الجمجمة كلها، هذا هو حال (جـ))، وعلى هذا فإن (جـ) يعمل بفعل الخوف أكثر مما يعمل على أساس من الفهم؛ إنه يصدق ويعتقد أن (أ) قد فسر كل شيء لـ(ب) وأن (ب) قد فهم، وأوصل إليه كل شيء بالضبط.

إنني لا أفتقر إلى الإخلاص يا ميلينا مع أن لدى انطباعاً بأن خط يدي في الكتابة قد دأب على الازدياد ضراحة ووضوحاً؛ فهل هو كذلك؟) كما أنني قد بلغت في إخلاصي آخر مدى تسمح به (تعليمات السجن) وهذا كثير، كما أن «تعليمات السجن» أيضاً تزداد تراخياً في صرامتها؛ لكنني لا أقدر على الثبات في الالتزام بخطاها، «فالثبات» مستحيل.

إن لي ميزة أتميز بها، وإن كانت في جوهرها لا تفرق كثيراً بيني وبين معارفي، وإن كانت تزداد في حالتي كثيرا في الدرجة. كلانا

يعرف فى النهاية نماذج نمطية كثيرة من اليهود الغربيين؛ وأعد أنا بقدر علمى أكثر هذه النماذج نمطية بينهم. ومعنى هذا فى شئ من المبالغة أنه ليس لى أن أطمع فى ثانية واحدة من الهدوء؛ لا شئ لى من هذا مطلقاً، وعلىّ أن أكتسب كل شئ؛ ليس فقط الحاضر والمستقبل؛ بل على أن أكتسب الماضى أيضاً – وثمة شئ فوق هذا ربما يكون قد اكتسبه كل كائن على نحو ما بالوراثة؛ هذا الشئ أيضاً على أن أكتسبه. ولعل هذا أن يكون هو أشق ما يتعين على أن أنجزه.

وعندما تسير الأرض نحو اليمين ولست متأكدا من أنها تفعل هذا – يكون قد تعين على عندئذ أن أستدير أنا إلى اليسار، لكى أعوض ما فاتنى من الماضى. ولما كنت لا أملك أدنى ذرة من القوة للاضطلاع بهذه الالتزامات، فلست أقوى على حمل الدنيا فوق كتفى؛ ولا أنا أحتمل حتى ثقل معطفى فوقهما. وهذا الافتقار إلى القوة، هو بالصدفة شئ لا يتعين على المرء بالضرورة أن يتباكى عليه؛ فأية قوة إذن تكفى للاضطلاع بهذه الأعباء. إن أية محاولة للمضى فى هذا السبيل استناداً إلى قوتى الحالية هو جنون، وستكون عاقبته هى الجنون. لهذا السبب من المستحيل أن (أثبت) فى خطاى، كما تقترحين. وحدى لا يمكننى أن أمضى فى الطريق الذى أريد المضى فيه، وفى الحقيقة لا أستطيع حتى أن أريد أن أمضى فيه. باستطاعتى فقط أن أهدأ؛ لا أستطيع أن أرغب فى أى شئ آخر، كما أننى لا أريد أى شئ آخر.

إن الأمر لا يخرج عن كونه، كما لو أن شخصاً ما، لم يكن عليه فقط

قبل أن يخرج فى كل مرة للتريض أن يغتسل ويمشط شعره وما إلى ذلك – وهذا فى حد ذاته مرهق حقا بما فيه الكفاية – بل يتعين عليه أيضاً (بما أنه فى كل مرة يفتقر إلى ما هو ضرورى لنزهته) أن يخيط ثيابه هى أيضا وأن يضع أحذيته وأن يقوم بتصنيع قبعته، وأن ينحت عصاه التى يتوكأ عليها فى سيره، وهكذا. وبالطبع لا يكون قادراً على أن يصنع كل هذا على نحو جيد جداً، فلعلها أن تتماسك كلها إلى بعضها البعض على امتداد بضعة شوارع قليلة؛ لكنه عندما يبلغ «جرابن»[1] مثلاً، تسقط جميعاً كل منها فى ناحية، ليقف هنالك عاريا وسط الخرق والأسمال، ويجئ الآن دور العذاب فى جريه راجعاً إلى (ساحة ألت – شتيتر) [2]. وفى النهاية ربما يندفع وسط غوغاء التأموا فى حلقة شَرَكْ اليهود فى «حارة (آيزن)».

لا تسيئى فهمى يا ميلينا، فأنا لا أقول بهذا إن هذا الرجل قد ضاع، لا، أبداً؛ لكنه يكون قد ضاع إن ذهب إلى (جرابن)، حيث يجلب الخزى على نفسه والعار على العالم.

تسلمت رسالتك الأخيرة يوم الاثنين، وأرسلت ردى عليها أيضا فى الحال يوم الاثنين.

يخيل إلى أن زوجك قد قال هنا إنه ينوى الرحيل إلى باريس، فهل هذا تطور جديد فى إطار الخطة القديمة؟

وصلتنى اليوم رسالتان. بالطبع أنت على حق يا ميلينا، فلا أكاد

(١) شارع عمومى فى براغ.

(٢) حيث كان يقطن والد كافكا.

أجرؤ على فض ردودك خجلاً من رسائلى، ورسائلى صادقة كما هى، أو على الأقل فى طريقها لأن تكون صادقة - تصورى ما كنت سأفعل عندما واجهتنى رسائلك، لو كانت رسائلى كاذبة! الجواب سهل: كنت سأصاب بالجنون. وعلى هذا فقول الحقيقة ليس فضيلة كبيرة جداً؛ بل هى أيضاً بالغة الصغر أيضاً، إننى أحاول طوال الوقت أن أنقل إليك شيئاً لا يمكن نقله؛ أن أشرح لك شيئاً لا يقبل التفسير، أن أخبرك بشئ يسكن فى عظامى ولا يمكن أن تعانى تجربة معرفته فقط سوى هذه العظام وعسى ألا يكون ذلك فى الأساس شيئاً سوى ذلك الخوف الذى تحدثنا عنه مراراً بالفعل، إلا أن الخوف قد امتد إلى كل شئ، الخوف من عظائم الأمور كالخوف من التوافة - الخوف، الخوف المتشنج كى لا ينطق كلمة. ومن ناحية أخرى مع ذلك، فلعل هذا الخوف ألا يكون خوفاً فقط، لكنه توق أيضا فى الوقت نفسه إلى شئ هو أكبر من كل الأشياء التى تبعث الخوف.

- «كان قد انقلب ضدى» - هذا شئ لا معنى له على الإطلاق. غير أننى أنا الملوم، فهى تتألف من قليل جداً من الصدق فى جانبى، قليل جداً جداً من الصدق، ويتألف أغلبها من أكاذيب، أكاذيب نابعة من الخوف من نفسى ومن الخوف من الناس! وهذه الجرة كانت قد انكسرت قبل أن تذهب إلى النبع بوقت طويل[1].

والآن سوف أمسك لسانى، حتى يتسنى لى أن ألزم قليلا جانب الصدق. إن الكذب أمر مخيف، لا يوجد عذاب عقلى أسوأ منه، وهذا هو السبب فى أننى أستعطفك: أرجوك دعينى أصمت فى الرسائل الآن، وأتوقف عن الكلمات فى ڤيينا.

(١) من المثل الألمانى «الجرة تذهب مراراً وتكراراً إلى النبع حتى لقد رجعت فى النهاية إلى البيت مكسورة».

تكتبين قائلة: «لقد انقلب ضدى»، لكننى فقط أرى أنك تعذبين نفسك، وأنت كما تقولين تجدين السلام فقط فى الشوارع، بينما أجلس أنا هنا، فى حجرة دافئة، مرتدياً ملابسى المنزلية، وشبشبى، هادئاً بقدر ما يتيح لى ذلك (رقّاص ساعتى) و(إنه لابد لى من «تحديد الوقت»).

يمكننى أن أعرف متى سأرحل فقط بعد أن أتسلم التصريح بالإقامة. ذلك أن الإقامة لمدة تزيد عن ثلاثة أيام تتطلب تصريحاً خاصاً من السلطات، وقد قدمت طلبا لذلك منذ أسبوع.

– «لقد انقلبت ضدى» – إننى أفكر مرة أخرى فى هذه الجملة فهى خاطئة تماماً مثلاً، بقدر ما تعبر عن الإمكانية المضادة.

ليس هذا خطئى، ولا هو خطأ الغير. هو فحسب أن منزلى إنما يتواجد فى الهدوء الأهدأ، وهذا هو ما يصح بالنسبة لى.

لقد قصصت هذا الموضوع لأجلك من الصحيفة (ليڤين)[١] قد أطلق عليه الرصاص فى ميونيخ، هل لم يحدث له ذلك ؟

***

اليوم هو الخميس. حتى يوم الثلاثاء، كنت قد قررت جاداً أن أرحل إلى جريمينشتاين على الرغم من أننى عندما أفكر فى ذلك أحس أحياناً بتهديد داخلى، وأدركت أيضاً أن تأخير الرحلة كان إلى حد ما يرجع إلى هذا السبب، وعلى الرغم من ذلك، اعتقدت أنه من السهل إمكان أن أتغلب على الأمر كله. وفى يوم الثلاثاء بلغنى من شخص ما أنه ليس من الضرورى أن أنتظر فى براغ لاستلام

(١) مفوض الشعب خلال عهد جمهورية ميونيخ المستشارية.

تصريح الإقامة، ذلك أن بإمكان المرء أن يحصل عليه في ڤيينا، في يسر. وعلى هذا كان الطريق مفتوحاً أمامي. وقد قضيت إحدى فترات الظهيرة بأكملها ممدداً فوق الأريكة أعذب نفسي، وفي المساء كتبت لك رسالة، غير أنني لم أرسلها لك، ذلك أنني مازلت أظن نفسي قادراً على أن أتغلب على الأمر. غير أنني قضيت الليلة المؤرقة كلها غالبا وأنا أتلوى من العذاب.

إن هذين اللذين يكمنان في اخلي، ذلك الذي يريد الرحيل، والآخر الذي يخاف أن يرحل، كل منهما كان جزءاً مني، ولقد كانا وغدين كليهما، وكانا يتصارعان بداخلي، وفي الصباح نهضت كما أستيقظ وأنا في أسوأ حالاتي.

ليست لدي القوة لكي أرحل؛ إن فكرة الوقوف في مواجهتك لا يمكنني مقدماً أن أحتملها، لا أتحمل الضغط على ذهني.

تظهر رسالتك بالفعل خيبة أمل لا سبيل إلى مقاومتها، وإحباطاً لا حد له بداخلي – وتظهر رسالتي هذه ذلك أيضا. تكتبين قائلة إنه لا أمل لديك، لكنك تملكين الأمل في أن يكون في مقدورك أن تتركيني تماماً.

لا يمكنني أن أوضح لك، ولا لسواك كيف أشعر بذلك في داخلي. كيف أوضح كيف كان الأمر هكذا؟ لا يمكنني أن أوضح هذا حتى لنفسي، ومع ذلك، فليس هذا هو الشئ الأساسي – فالشئ الأساسي واضح: أن يعيش امرؤ حياة إنسانية في الجو الذي يحيط بي، مستحيل؛ إنك تتركين ذلك، ومع ذلك فأنت لا تريدين أن تصدقيه؟

***

مساء السبت

لم أتسلم بعد الرسالة الصفراء، وسوف أعيدها لك مغلقة.

سأكون مخطئاً خطأً بالغاً إن لم يتضح أن فكرة أننا قد توقفنا الآن عن الكتابة أحدنا إلى الآخر، هي فكرة جيدة. إلاّ أنني لست مخطئاً يا ميلينا.

لن أتحدث عنك، ليس لأن هذا ليس من شأني، فهو شأني، إلا أنني لا أريد أن أتحدث عنه.

وعلى هذا فسأتحدث فقط عن نفسي: إن ما تمثلينه بالنسبة لي يا ميلينا، هو بالنسبة لي شئ يتجاوز كل العالم الذي نعيش فيه، شئ لا يوجد في القصاصات اليومية من الأوراق التي ظللت أكتبها لك. هذه الرسائل في حقيقتها لا نفع فيها سوى أنها تسبب العذاب، فلو كانت لا تسببه لكانت عندئذ أشد سوءاً. إنها لا يمكنها أن تفعل سوى أن تقدم يوماً في جموند، سوى أن تنتج أشكالاً من سوء التفاهم، والإذلال، دائما الإذلال المتصل. أريد أن أراك في مثل الوضوح الذي رأيتك عليه أول مرة في الشارع، إلاّ أن الرسائل تشوش أكثر مما يفعل كل شارع (ل.)، بكل ضوضائه.

ومع ذلك، فليس هذا شيئاً حاسماً حتى؛ إن ما هو حاسم هو عجزي، الذي تزيده الرسائل وأن أبلغ إلى ما وراء الرسائل؛ هو العجز تجاهك، بالإضافة إلى العجز تجاه نفسي – ألف رسالة في جانبك، وألف رغبة في جانبي لا يمكنها أن تدحض ذلك بالنسبة لي – وما هو أكثر من ذلك حسماً هو الصوت القوي الذي ربما كان هو سبب هذا العجز، غير أن كل الأسباب إنما تقبع في الظلام، بما أنه كان صوتك أنت الذي يرجوني أن أظل صامتاً.

ويبقى الآن كل ما يتعلق بك ولم يحدث له بعد أن قيل، على الرغم من أنه موجود في كل رسائلك (وربما في الرسالة الصفراء أيضا، أو أفضل: فهي تبدي نفسها في البرقية التي طلبت أنت بواسطتها، ولك كل الحق في طلبك بالطبع، إعادتها إليك)، ويوجد مراراً في الفقرات التي تخوف منها أنا، والتي أتجنبها كما يتجنب الشيطان مكاناً مقدساً.

غريب، لقد أردت أنا أيضاً أن أرسل لك برقية، ولقد داعبتُ هذه الفكرة لوقت طويل، في الفراش، خلال الظهيرة، فوق الشرفة في المساء، إلا أنها لم تكن سوى مجرد سطر واحد لاغير: «سؤال عن رد محدد، ومؤكد على الفقرات التي تحتها خط في الرسالة الأخيرة».

وأخيراً، مع ذلك باغتتني ريبة لا أساس لها؛ قبيحة تكمن في ثنايا هذا السطر فلم أرسله.

ها أنذا أجلس الآن هنا لقراءة تلك الرسالة – لا أفعل شيئاً سواها، حتى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر – لقد حدقت فيها، وحدقت فيك من خلالها..أحياناً وفي غير ما حلم، أرى هذه الرؤية: وجهك وقد غطاه شعرك، وأنجح في فرق الشعر، وإزاحته إلى اليمين وإلى اليسار، ويتبدى وجهك، وأدرت جبهتك وجبينك على الجانبين، كي آخذ وجهك الآن بين راحتيّ.

*(في الهامش الأيمن): لو ذهبت إلى مصحة، فسوف أخبرك بذلك بالطبع.

***

الاثنين

أردت أن أمـزق هذه الرسـالة، ولا أرسلهـا، ولا أرد على البـرقيـة؛ فالبرقيات بالـغة الغموض؛ لكن وصلت البطـاقة الآن والرسـالة، هذه البطاقـة وهذه الرسـالة. لكن حـتى تجاهـهمـا يا ميلينا، حـتى لو كان اللسـان الذى يتـوق إلى الحـديث كان عليه أن يتمزق مزقـاً - فكيف يمكنني أن أعتقد أنك تحتاجين إلى رسائل الآن، بينما لا تحتاجين إلى شئ سـوى الهـدوء، كـمـا قلت مـراراً فـى شـبـه غـيبـوبـة. وهذه الرسـائل ليست فى النهاية سوى عذاب ؛ وليدة العذاب، العذاب الذى لا شـفـاء له، وتخلق فـقط العـذاب، العـذاب الذى لا شـفـاء منه، مـا فائدتها - وإنها لتزداد سوءاً حتى - خلال هذا الشتاء؟

وأن يكون المرء صـامـتـاً، لهى الطريقـة الوحـيـدة لكي يحـيـا هنا وهناك، فـى حـزن، حسناً، أى أهمـيـة لذلك؟ إنهـا تجـعل النوم أكـثـر طفولية، وأكثر عمقاً. لكن العذاب معناه دفع محراث فى عمق النوم - وعبر النهار - وهذا لا يحتمل.

***

الأربعاء

ليس هـنـاك قـانون يمـنعنى مـن الكتـابـة إليك مـرة أخـرى، ومن أن أشكرك علـى هذه الرسـالة التى تتـضـمن ربما أجـمل سطر على الإطلاق أمكن أن تكتبيه إلى، وهو هذا : «إننى أعرف أنك ...»

إلا أنك خلافاً لذلك كنت متفقة معى لوقت طويل على أننا ينبغى لنا الآن ألا يكتب أحدنا بعد الآن إلى الآخر. وحقيقة أننى قد اتفق لى أن كنت أنا من عبر عن هذه الفكرة، هى مجرد صدفة. فقد كان من المحتمل بالمثل أن تكونى أنت من عبر عنها، وطالما أننا قد اتفقنا

عليها فليس من الضرورى أن نفسر لماذا سيكون من الخير عدم الكتابة.

إن السئ هو فقط أنه (من الآن فصاعدا لا ينبغى لك أن تسألي في مكتب البريد) لن يكون لى غالباً أى إمكانية للكتابة إليك؛ أو سيكون لى فقط إمكانية أن أرسل لك بطاقة بدون كتابة، ستعنى بهذا أن رسالة مني تنتظرك في مكتب البريد. ويجب أن تكتبي إلي دائماً عندما يبدو ذلك ضرورياً للغاية، إلا أن هذا لا يحتاج إلى إيضاح.

لقد عالجت الصفقة بالفعل مع (ف.) بطريقة سيئة جداً، لاشك فى ذلك، إلاّ أن تعاملي بشأنها لم يكن بالغ السوء إلى هذا الحد الذى بدا لك عند الصدمة الأولى. قبل كل شئ لم أكن قد ذهبت كمن يلتمس التماساً، وأقل من ذلك استخدامي لاسمك. كنت قد ذهبت كشخص لا ينتمى إلى جهة ما، ويعرفك معرفة جيدة، شخص قد عاين بعض الأحوال فى ڤيينا، وكان قد تلقى الآن رسالتين حزينتين منك أيضاً.

لن أقول وداعاً، فليس ثمة وداع، ما لم تجتذبني تلك الجاذبية المتربصة فى الانتظار، فتهوى بى تماماً إلى أسفل. لكن كيف يكون لها أن تفعل بى ذلك طالما أنت على قيد الحياة؟

***

سيدتي العزيزة ميلينا[1]

أظن أنه من الأفضل ألا يتحدث المرء كثيراً عن تغطية ظهره، وما يرتبط بذلك، إلا بقدر ما يمكن للمرء أن يتحدث عن الخيانة العظمى

(١) الرسائل التالية كانت قد أرسلت إلى شقة ميلينا وهنا يعود كافكا إلى استخدام ان ضمير الشخص الثاني الجمع «Sie» (حضرتك).

فى وقت الحرب، فـهذه فى النهاية هى أشياء لا يستطيع المرء أن يفهمها كل الفهم، ولا يسعه فى نهاية المطاف سوى أن يخمنها، إنها أشياء لا يكون المرء فيما يتعلق بها سوى «أمة» بأكملها، وليس مجرد فرد، إن للمرء تأثيره على الأحداث، ذلك أنه بدون «أمة» لا يمكن لحرب أن تُدار ومن هنا ينتحل المرء لنفسه الحق فى أن يشارك فى المناقشة، لكن الحقائق الواقعة إنما يتم تقريرها فقط بواسطة الصلاحيات التى لا تحصى للسلطات العليا. فلو كان للمرء أن يؤثر على الأحداث حقاً، بكلمة منه، ولو بالصدفة، فلن ينتج عن ذلك فحسب سوى الضرر. ذلك أن الكلمات هى فى النهاية كلمات غير متخصصة ، وتصدر بلا رابط، كما لو كانت تصدر فى أثناء النوم. والعالم يمتلئ بالجواسيس الذين يسمعون، فى هذا المقام يكون أفضل سلوك هو ذلك الذى يتصف بالوقار الهادئ الذى لا يتأثر بالاستفزاز.

وكل شئ هنا فى الحقيقة استفزاز، حتى العشب الذى تجلسين فوقه بجوار القناة الممتدة – بلا أدنى مسئولية بالمناسبة ، فى وقت أخشى أنا فيه أن أصاب بنزلة برد، بينما الموقد مشتعل، ألزم الفراش تحت ملاءة للتدفئة وبطانيتين ولحاف محشو بالريش. ويمكن للمرء فقط فى النهاية أن يقرر إلى أى مدى يمكن للمظهر الخارجى أن يؤثر فى العالم ، وفى هذا المقام أتميز أنا بمرضى على كل نزاهاتك التى يتردد صداها المخيف، ذلك أننى لو أتحدث بهذا المعنى عن مرضى فلن يصدق حديثى أحد فى الحقيقة؛ وفى الحقيقة ليس حديثى هذا سوى مزحة.

سوف أبدأ فى الحال فى قراءة (دونا دييه)، وإن كنت ربما

(١) رواية لـ «أداليرت شتفتر».

أرسلها إليك قبل أن أقرأها. فمـ عمرة عـ التي تعنيه رغبة صحة كبيرة وأن المرء يكن ضغينة في داخله ضد من يحتجز لنفسه شبابا كهذا. كنت متحيزاً مثلا ضد عدة أشخاص لأنني ودون أن أستطيع الإثبات، كنت قد ارتبت في حصول كل منهم على نسخة من (بعد الصيف)[1]، وجاء ابن (أوسكار باوم) إلى المنزل مسرعاً من مدرسة بالقرب من فرانكفورت، جاء أساساً لأن كتبه لم تكن معه هناك. وخاصة كتابه الأثير (ستوكلي وشركاه) لـ «كبلنج» الذي كان قد قرأه فيما أعتقد ٧٥ مرة، فلو كانت الحالة على هذا النحو بخصوص «دوتا دييه» فسوف أرسلها، إلا أنني أود أن أقرأها.

لو كانت لي صفحات التسلية في المجلة فلن أقرأ مقالات «الموضة»، فأين كانت هذه المقالات يوم الأحد الماضي؟ ستسعدينني جداً إذا أشرت دائماً إلى التواريخ . سأبحث عن «الشيطان» عندما أتمكن من الخروج ثانية، ففي هذه اللحظة مازال لدى بعض الالم.

چيورچ كايزر – عرفت القليل بواسطته، ولم أشعر برغبة في معرفة المزيد، على الرغم من أنني لم أكن قد رأيت أي شئ من كتاباته على المسرح . قبل سنتين كنت متأثراً تأثراً بالغاً بدعواه القضائية – قرأت تقريرات عنها في (صحيفة «تاترا») – وخاصة الدفاع الرائع الذي أعلن فيه عن حقه الذي رآه غير قابل للاعتراض أو الجدل في الحصول على ملكية أجنبية. مقارنا وضعه في التاريخ الآلماني بوضع لوثر. وطالب في حالة إدانته بأن الأعلام ينبغي لها أن تنكس في ألمانيا.

وهنا بجوار فراش نومي تحدث أساساً عن ابنه الاكبر (لديه ثلاثة أبناء) وهو صبي في العاشرة من عمره، وهو الذي لن يرسله إلى

المدرسة، والذى لن يعلمه بنفسه هو أيضاً والذى كنتيجة لذلك. لن يكون قادراً، لا على أن يقرأ، ولا على أن يكتب . ومع ذلك فقد كان يرسم بموهبة جيدة جداً، وينفق أيامه متجولاً فى أنحاء الغابة وعلى البحيرة (هم يعيشون فى منزل ريفى معزل فى (جرونيانده). بالقرب من برلين، وعندما قلت لكايزر، عندما هم بالانصراف «على أية حال إن هذا مشروع هائل!» أجابنى بقوله «إنه بالفعل المشروع الوحيد وكل شئ آخر هو شئ عارض على نحو أو آخر». غريب أن يراد لمرء على هذا النحو، ولا يفتقر هو إلى القدرة على الإمتاع عندما يرى المرء على هذا النحو – نصف رجل أعمال من برلين طائش مرح نصف مجنون. وهو لا يظهر قط، وقد بدا عليه الاهتزاز فى كيانه كله وعميقا، على الرغم من أنه جزئياً فى الحقيقة هكذا إلى حد بعيد وهم فى النهاية يقولون إنها كانت هى تلك المناطق وحدها التى دمرته، ولا شئ غيرها (وكان قد التحق بإحدى الوظائف فى مرحلة شبابه فى أمريكا الجنوبية، وعاد من هناك مريضاً، واستلقى لمدة ثمانى سنوات متكاسلاً فوق الاريكة، ثم بدأ عندئذ فى العودة إلى الحياة فى مصحة). هذه التصفية تعبر عن وجودها أيضاً فى وجهه – وهو وجه مسطح بعينين خاويتين لونهما أزرق لامع، يبدوان مع ذلك مثل تفاصيل عديدة حرى فى وجهه، بينما تنتفضان فى سرعة إلى الأمام، وإلى الخلف، بينما تبقى الأجزاء الأخرى فى وجهه بلا حراك، كما لو كانت مشلولة. وفى الحقيقة لدى ماكس انطباع عنه يختلف عن هذا كل الاختلاف فهو يعتبره مستفزا محركاً، وربما كان هذا هو السبب فى أنه بعطفه قد أرغم كايزر على أن يجئ لزيارتى. والآن هاهو قد استولى على الجانب الأغلب من هذه الرسالة. وكنت أنوى

أن أقول عدة أشياء أخرى . المرة القادمة.

***

سيدتي العزيزة ميلينا،

لابد أن أعترف بأنني ذات مرة حسدت شخصاً ما حسداً بالغاً جداً لأنه كان محبوبا، ومحاطاً برعاية ضمنة يتولى حراسته العقل والله، ويرقد في سلام تحت الأزهار. إنني دائماً سريع الحسد.

أعتقد أنني على حق في الاستنتاج من مجلة (تريبونا) (التي لم أكن أقرأها بانتظام، بل بين الحين والحين) أنك قد مضيت صيفاً طيباً، لقد حصلت ذات مرة على (تريبونا) على المحطة في (بلانا)، وكانت سيدة من المتواجدات بالمنتجع الصيفي تتحدث إلى أخرى، وهي تمسك في يدها بالمجلة خلفها، مسددة نحوى - عندئذ استعارتها شقيقتي ل. فإذا لم أكن مخطئاً . فقد كان لك مقالة مرحة جداً بها، ضد منتجعات المياه المعدنية الألمانية وذات مرة كتبت عن مسرات الحياة الصيفية في مناطق السكك الحديدية الثانية. وكانت هذه المقالة أيضا مقالة جيدة، أو أنها كانت هي نفس المقالة؟ لا أظن ذلك. وكالعادة عندما تظهرين في الـ (ناروني ليستي). وتتركين مدرسة (الجوالة) اليهودية خلفك؟ فقد كانت رسالة حول واجهات العرض متفوقة بصورة مدهشة. ثم تمت ترجمة تلك المقالة عن الطهاة لماذا؟. وكانت الدعمة؟ غريبة على حد ما - ففي إحدى المرات كتبت أن الرسائل ينبغي أن تحصل عليها طوابع البريد على النحو الصحيح، ثم أن على المرء ألا يلقى بأى شئ خارج النافذة. وكلها حقائق مسلم بها، ومع ذلك فهي صراعات يائسة، لكن المرة

(١) «الجوال عند منشر الخشب» وهي قصيدة عاشا ما اقتبس منها كافكا

بعد الأخرى، لو أن المرء ألقى انتباهاً لائقاً فإن شيئا عذباً، مؤثراً، وحسنا يزحف إلى داخله على الرغم من ذلك؛ لكنها لا ينبغى لها أن تكره الألمان كل هذا الكره الزائد، إن الألمان رائعون، وسوف يظلون هكذا، هل تعرفين قصيدة آيشندورف: «آه، أيتها الوديان الواسعة، آهٍ أيتها الأعالى!»، أو قصيدة (يوستينوس كيرنر) عن (ورشة نشر الخشب)؟ [1]، إذا كنت لا تعرفينها فسوف أنسخها لك ذات يوم.

ستكون هناك أشياء عديدة أقولها عن (بلانا)، لكن الآن انقضى وقتها. كانت أولاً غاية فى العنوية معى، على الرغم من أنه بالإضافة لى لديها أيضاً طفل. كانت رئتى جميلة على الأقل هنا فى الخلاء، وهنا حيث بقيت طوال الأسبوعين الماضيين؛ لم أذهب بعد لزيارة الطبيب - لكن يمكن أن يكون ذلك بالغ السوء، إذا اعتبرنا مثلا، أننى كنت قادراً – أيها الغرور المقدس إن على أن أقوم بتقطيع الخشب لمدة ساعج أو تزيد دون أن يصيبنى التعب، وكنت مع ذلك سعيداً للحظات. أشياء أخرى، النوم، والاستيقاظ الذى يرتبط به، كانا أحياناً أسوأ.

وماذا عن رئتك، هذه المخلوقة القوية المعذبة الرزينة؟

لك

ك

***

لقد انقضى وقت طويل منذ أن كتبت لك، يا سيدتى ميلينا، واليوم حتى أكتب فقط كنتيجة لحادث، فعلاً، ليس لى أن أعتذر عن عدم كتابتى لك، فأنت تعرفين فوق كل شئ، إلى أى حد أكره الرسائل. كل

سوء الحظ فى حياتى كلها - لا أرغب فى التشكى، بل أود أن أقدم ملاحظة إرشادية عامة - كل سوء الحظ هذا إنما يستمد وجوده كما يسع المرء أن يقول، من الرسائل، أو من إمكانية كتابة الرسائل. إن الناس لم يكادوا قط أن يخدعوني، لكن الرسائل قد فعلت ذلك دائماً - وفى الحقيقة ليست فقط رسائل الآخرين، بل فعلته رسائلى أنا نفسي. وسوء الحظ فى حالتى، هو سوء حظ خاص، لن أزيد فى الحديث عنه، لكنه فى الوقت نفسه سوء حظ عام أيضاً.

إن إمكانية السهولة التى تتصف بها كتابة الرسائل لابد أنها مرئية من زاويتها النظرية فحسب - قد جذبت إلى الدنيا تحلُّلا مرعباً للنفوس. إنها، فى الحقيقة محادثة مع الأشباح، وليس فقط مع شبح المستلم للرسالة، بل أيضا مع شبح المرء نفسه، ذلك الذى ينمو بين سطور الرسالة التى يكتبها المرء وحتى يزيد فى تلك التنمية فى سلسلة من الرسائل حيث تعزز إحدى الرسائل الرسالة الأخرى، ويمكن أن تشير إليها كشاهد. فكيف أمكن قط أن حصل أى شخص على فكرة أن الناس يمكنهم أن يتواصل أحدهم مع الآخر بواسطة رسالة! يمكن للمرء أن يفكر فى شخص بعيد، ويمكنه أن يمسك بالشخص الذى يكون قريباً منه - أما كل ما عدا ذلك فهو يتجاوز مجال القوة البشرية. كتابة الرسائل، مع ذلك، تعنى أن يجرد المرء نفسه أمام الأشباح، وهو شئ تنتظره تلك الأشباح فى نهم. والقبلات المكتوبة لا تبلغ غايتها، ذلك أن الأشباح تشربها فى الطريق. على هذه التغذية الوافدة تتكاثر الأشباح على نحو هائل. وتدرك البشرية ذلك بإحساسها، وتحاربه، ولكى تتخلص بقدر ما تستطيع من العنصر الشبحى بين الناس، ولكى تخلق تواصلاً طبيعياً، هو سلام الأرواح، اخترعت السكك الحديدية،

والسيارة، والطائرة، إلا أنها لم تسفر عن أى خير. فهذه هى اختراعات من الواضح أنها قد تم إنجازها عند لحظة التحطم. والجانب المعارض هو جانب أكثر هدوءاً إلى حد بالغ وأشد قوة، ويعد الخدمة البريدية اخترعت البشرية البرق، والتليفون والراديو جراف. إن الأشباح لن تقضى نحبها جوعاً. لكننا نحن سوف نهلك.

إننى مندهش لأنك لم تكتبى عن ذلك بعد. ليس لكى تمنعى أو تحققى شيئاً بنشره، لأن ذلك قد أصبح متأخراً جداً، بل لكى تظهرى لها (الأشباح) أنها قد تم التنبه لوجودها.

ويستطيع المرء أيضاً أن يتعرف «عليهم» مصادفة، بواسطة الاستثناءات، ذلك أنهم أحيانا يسمحون لرسالة بأن تمر بدون تدخل، وتصل الرسالة كأنها يد صديقة، فتضع نفسها، خفيفة وعطوفة فى يد المرء. حسناً، فهذا أيضاً ربما يبدو فقط، وكأنه كذلك؛ ومثل هذه الحالات ربما تكون أكثرها خطورة، وينبغى على المرء أن يزداد حذراً منها على حذره من غيرها. لكن لو كانت هذه خداعاً فإنها عندئذ ستكون على أى الأحوال خداعاً كاملاً.

شئ من هذا القبيل حدث لى اليوم وهذا هو السبب فى الحقيقة الذى من أجله خطر لى أن أكتب إليك. تسلمت اليوم رسالة من صديق [1] تعرفينه أنت أيضاً؛ لم تكن قد كتب أحدنا للآخر منذ وقت طويل، وهو شئ بالغ الحساسية والإدراك. ويلى ما سبق قوله أن الرسائل هى علاج تام للنوم فأية حالة تلك التى يصلون فى أثنائها! حالة، مجدبة، خاوية، مستفزة، بهجة اللحظة أعقبتها معاناة طويلة الأمد. بينما أقرأهم، ينسى المرء نفسه، وينهض النوم القليل الذى

(١) من ميلينا نفسها فيما يبدو.

حسنك المرء ينهض، ويطير من خلال النافذة المفتوحة ولا يعود لوقت طويل. هذا هو السبب في أننا لا يكتب أحدنا إلى الآخر. إلا أننى أفكر فيه دائماً وإن يكن على نحو عابر للغاية. كل تفكيرى هو تفكير عابر للغاية.

لكن فى ليلة شخصية ... التفكير فيه طويلاً، لساعات: قضيت ساعات ... (وهى عزيزة على للغاية بسبب عدائيه) أكرر ... الكلمات فى رسالة خيالية عدة حقائق كانت ... لحظة بالغة الأهمية. وفى الصباح وصلتنى رسالة ... احتوت علاوة على ذلك: على تلك الملاحظة، بأن الصديق ... تواجد لديه، لشهر – أو على نحو ... منذ شهر – الشـ ... ينبغى عليه أن يأتى لزيارتى، وهى ملاحظة تصدقت على نحو غريب ... أشياء كنت قد مررت بتجربتها.

... الرسالة هذه دفعتنى إلى كتابة رسالة، وربما أننى كنت قد ... بالفعل، فكيف كان بإمكانى ألا أكتب لك أنت أيضاً يا سيدتى ميلينا ... الكتابة إليهم أشد المتعة بقدر ما يمكن للمرء ... يتمتع بكتابة الرسائل التى تخاطب مع ذلك الأشباح فتتم ... تحاصر ماندتى فى ... !

لقد انقضى وقت طويل قبل أن أرى أى شئ من كتاباتك فى المجلات، فيما عدا مقالات (الموضة) التى بدت لى، أخيراً ... عدا استثناءات صغيرة، هادئة ومرحة، وبصفة خاصة المقال الأخير عن الربيع. وحتى ذلك الحين، حقاً، لم أكن قد قرأت الـ(تريبونا) لمدة ثلاثة أسابيع، لكننى سأحاول أن أطلبها، لقد كنت فى (... يه)

تد ... فريد في هذه الأيام أن ترد في كتابتي إليك ... فعلي ... فتصبري علي. لسنوات لم أكن قد كتبت ... شخص ... كنت ... وكأنني ... في ... كنت ... لست عن هذا العالم، ولا ... لم آخر ... كان ... كما ... كنت خلال كل هذه السنوات، قد فعلت كل شيء كان قد طلب مني بطريقة آلية، وفي الحقيقة ... كي يناديني ... ناداني المرض في النهاية من ... الملاصقة ... حرباً وأعطيت نفسي له أكثر ... لطلاد ... ولبس المرء متيقناً ...

على ... حال ... التفكير و ... صعبة بطريقة متزايدة، وأحياناً ... الكتابة ... فارغة عبر الصفحة. ومازال تفعل وعن التفكير لن ... بالمرة (أذهل المرة بعد المرة لميزة الالتماع في تفكيرك، وكيف تتجمع مجموعة من العبارات معاً، ويلتمع البرق). وعلى كل حال، ... من الصبر، فهذا البرعم يتفتح ببطء وإنه كبرعم فحسب لأن المرء يمنح اسم البرعم لما هو مستغلق على نفسه.

لقد بدأت قراءة رواية (دونادييه). لكنني حتى الآن قرأت فيها قليلاً جداً، لا أستطيع أن أنغمس فيها تماماً، وحتى القليل الذي قرأته له[1] من قبل لم يحركني كثيراً جداً. لقد نال الثناء لبساطته، إلا أن البساطة نجد ترحيباً بها في ألمانيا وفي روسيا. إنه ساحر ... الحد، لكنه يفتقر إلى القوة التي تمنع المرء من تجاوزه منصرفاً عنه ... ما قد قرأته حتى الآن (فأنا مازلت في ليون)

(١) شارل لويس فيليب

يبدو لي من خصائص فرنسا المميزة، أكثر من كونه من الخصائص المميزة لفيليب، ثم- انعكاس واهن لـ(فلوبير)، مثلاً الجذل المفاجئ عند ركن أحد الشوارع (هل تذكرين بالمصادفة تلك الفقرة؟). أما الترجمة فتبدو وكأنها قد تمت بيدي اثنين من المترجمين، أحدهما جيد جداً لفترة ما، ثم مرة أخرى سيئ إلى درجة انعدام القابلية للفهم (ثمة ترجمة جديدة لـ(ڤولڤ) على وشك أن تنشر)، وعلى كل حال فإنني مستمتع جداً بقراءتها، لقد أصبحت قارئاً جيداً إلى درجة كبيرة وإن كنت بطيئاً. إن ما يزعجني في هذه الرواية هو ضعفي الذي أصبح مرتبكا بسببه ارتباكاً شديداً عندما أواجه الفتيات الصغيرات، ويبلغ هذا الارتباك مدى أبعد فيجعلني لا أومن بفتيات الكاتب، لأنني لا أومن بأن في وسعه الجرأة على أن يقترب منهن. إن ذلك يبدو لي كما لو أن الكاتب كان قد صنع دمية وأطلق عليها اسم (دوناديه) لا لشيئ سوى أن يصرف انتباه القارئ عن (دوناديه) الحقيقية التي تختلف كل الاختلاف وتتواجد في مكان آخر.

وبالفعل من داخل سنوات البنوتة هذه بكل عنويتها تتطلع نحوى صيغة جامدة ما كما لو كان ما قيل هنا لم يكن حقا قد حدث،لكن فحسب ما أعقبه، وأنه كان قد تمّ اختراعه فيما بعد كمفتتح طبقاً لقوانين الموسيقى، وجرت مطابقته على الواقع.

وهناك روايات يتصل فيها هذا الإحساس ويبقى إلى النهاية – منها «على الطريق الواسع»[1] لا أدري.

أحب تشيخوف كثيراً جداً، وفي أحيان أحبه بجنون تام. حسناً لا

(١) (على الطريق الواسع) ربما كان عنواناً لإحدى الروايات

(٢) رواية لـ (ماكس برود).

..رف ...ناً عن (توون در. موله)، ولا عن (ستيفنسون) فيما عدا آنه كاتبك المفضل. سوف أقرأ (فرانتسى)[٢]. لكننى فيما عدا فقرات صغيرة معينة بها، أثق أنك لن تعجبى بها. ويمكن تفسير ذلك بواسطة نظريتى التى تتلخص فى أن الكتّاب الأحياء تكون لهم ارتباطات حية برواياتهم. فبوجودهم فى حد ذاته يحاربون من أجل أو يحاربون ضد هذه الروايات. والحياة الحقيقية المستقلة للرواية تبدأ فحسب بعد وفاة الكاتب، أو، على نحو أكثر صحة، بعد وفاته بوقت ما، ذلك أن هؤلاء الرجال التواقين يواصلون الحرب لفترة ما من أجل رواياتهم فيما وراء موتهم. ثم بعد ذلك تصبح الرواية وحيدة ويمكنها أن تستند فقط إلى القوة التى تستمدها من نبضات قلبها. وهذا هو السبب في أنه كان من المعقول جداً لـ(مايربير) مثلاً، أن يحاول ويدعم نبضات القلب هذه بأن يترك تركة لكل أوبرا من أوبراته تتدرج ربما تبعا للثقة التى أحسها بالنسبة لكل منها. عن هذا هناك المزيد، وإن لم يكن هاماً جداً، من الأشياء التى يمكن أن تقال. وبتطبيقها على رواية (فرانتسى)، فإنما يعنى هذا أن رواية الكاتب الحى هى حقا حجرة النوم الكائنة فى نهاية شقته، والمخصصة للقبلات، إن كان يستحق القبلات، أو التى تختص بالإزعاج إن لم تكن حالته هكذا. وإنه لا يكاد يكون حكما على الرواية إذا قلت أنا إنها تعجبنى أو قلت أنت – وربما لا تقولين – عكس ذلك.

اليوم أقرأ جزءاً أكبر من رواية (دوناديه)، إلا أننى لا أستطيع أن أتقدم فى قراءتها،كما لا يسعنى أن أتقدم اليوم فى تفسيرها، ذلك أن شقيقتى فى داخل المطبخ المجاور لى تتحدث إلى الطاهية،

وهي محاولة يمكنني أن ... إلا أنني لا أريد أن أقطعها. ذلك أن هذه ... لقد عملت معنا منذ أيام قليلة فقط – في التاسعة عشرة من عمرها قوية البنية بدرجة هائلة ... أنها أتعس مخلوقة في الدنيا. بلا سبب، وأنها ... لأنها تعيسة، وفي حاجة إلى مواساة شقيقتي (التي تصادف أنها بحكم عادة قديمة، كما يقول والدي ... تفصل بين مجلس مع الخادمة). وأيا كان ما أقوله عن الرواية ... يتبدى لي ظاهريا سوف يكون مجافيا للعدل. ذلك أن كل الاعتراضات تجيء من المؤلفة، وليس عن نواة الكتاب. فلنفترض أن أحدهم قد ارتكب جريمة قتل بالأمس – ومتى كان باستطاعة هذا الأمس أبداً أن يتحول إلى يوم آخر قبل الأمس؟

عندئذ فهو لن يطيق أن يقرأ اليوم قصصا عن القتل. فهذه القصص ستكون بالنسبة له هي كل شيء تلقائياً في وقت معاً مملة، مضجرة، وباعثة على الغيظ. إن انعدام الوقار أو التهريج الوقور والصفاقة المرتبكة، والسخرية المثيرة للإعجاب، والتي تتصف بها الرواية جميعاً – لا شيء منها يعجبني. فعندما يغوي زخانيل (دونادييه) فإن ذلك يكون غاية في الأهمية بالنسبة لها، لكن أي عمل استلزم وجود المؤلف في حجرة الطالب، وحتى من هو أقل الجميع اهتماماً بها، وهو الشخص الرابع أو القارئ، إلى أن تتحول الحجرة إلى قاعة محاضرات لكلية الطب أو علم النفس. وبالإضافة إلى ذلك لا يوجد في الرواية غير هذا سوى القليل جدا، فيما عدا اليأس.

ما أزال غالبا أفكر في مقالتك. وبغرابة كافية، أعتقد – لكي ندع الحوار المتخيل يدخل في ثنايا حوار حقيقي ... اليهودية، اليهودية –

أعتقد أنه توجد أشياء من قبيل زيجات لا تقوم على أساس من اليأس الناتج من كون المرء وحيداً، وما هو أكثر من ذلك، وهو أن هذه الزيجات تكون زيجات متفوقة واعية، وأظن أن الملاك يعتقد في ذلك جوهرياً هو أيضاً.

بالنسبة لهؤلاء الذين يعقدون زواجاً بدافع من اليأس - ما الذى يجنونه؟ فلو أن الوحدة أضيفت إلى وحدة فلن يؤدى ذلك مطلقاً إلى تآلف، بل يؤدى إلى (كاتورجا)[1] فكل وحدة منهما ستعكس نفسها فى الوحدة الأخرى، حتى فى أعمق وأحلك الليالى. ولو ربط أحد وحدة إلى أمن، فسوف تكون أسوأ حتى بالنسبة للوحدة (ما لم تكن وحدة رقيقة، مراهقة، لا واعية).

إن الزواج يعنى بالأحرى - إذا كان للمرء أن يحدد الحالة بحدة وصرامة - أن يكون المرء آمناً.

لكن فى هذه اللحظة أسوأ شئ هو - حتى أنا لم أكن توقعته - أننى لا أستطيع أن أواصل كتابة هذه الرسائل، ولا حتى هذه الرسائل الهامة. إن الساحر الشرير لكتابة الرسائل قد بدأ يحطم لياليّ - تلك الليالى التى تحطم نفسها حتى بنفسها على أية حال - يحطمها أكثر مما حطمها لى من قبل. لابد أن أتوقف، لا يمكننى أن أكتب بعد هذا. آه، إن انعدام نومك يختلف فى نوعه عن أرقى. أرجوك فلنكف عن الكتابة بعد هذا.

* * *

بطاقة بريدية من نوبريتشوفيتشى

(١) كلمة روسية تعنى مدة سجن طويلة يعقبها النفى.

علامة بريدية ٩٠٥٠ ٢٢

شكراً جزيلاً لتحياتك. أما بالنسبة لي، فلقد خرجت قادماً إلى هنا لأيام قليلة، فالأمور في براغ ليست على ما يرام كثيراً. إلاّ أنها ليست رحلة بعد، إنها مجرد خفق لجناحين لا فائدة منهما بالمرة.

ك.

***

بطاقة بريدية من دوبريتشوفيتشي

علامة بريدية ٩٠٥٠ ٢٢

آمل أن تكوني قد تسلمتي بطاقتي من دوبريتشوفيتشي، إنني مازلت هنا، لكني سأغادر المكان في غضون يومين أو ثلاثة أيام راجعا إلى موطني ، إنه مكان باهظ التكاليف جدا، ولا يكاد النوم يعرف طريقه إليه، وهكذا وإن كان من ناحية أخرى مكانا جميلا فوق كل وصف. أما بالنسبة للرحلات التالية، فهذه الرحلة قد جعلتني ربما أكثر قابلية للسفر إلى حد ما، حتى لو كانت الرحلة لا تعني أكثر من البعد لمسافة نصف الساعة عن براغ، إنني أخشى فقط، أولا ، التكاليف - فهذا المكان بالغ التكاليف وإن يتاح للمرء أن يبقى هنا على مدى الأيام الأخيرة فقط قبل وفاته، فإنه لن يكون قد تبقى معه شيء - وثانيا أخشى -السماء والجحيم وغير هذا فإن العالم كله مفتوح أمامي.

مع أرق تحيات

المخلص لك

ك

* * *

(بالقلم [illegible] فوق وتحت السطور)

[illegible] أعصاب المرء [illegible] [illegible] لازم جداً، [illegible] صعب [illegible] سريع جداً [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كتب [illegible] يسطر قبلاً

* * *

[illegible] الأخير، عندما ختقيت أنت[1] فجأة (وإن لم يكن ذلك [illegible] آية زمان ثانية [illegible] على نحو [illegible] بالنسبة لي طريقة بالغة الإزعاج. في تلك الأثناء، في [illegible] قد حدث لي - آية أشياء هذه التي توجد إن كنت قد ذهبت إلى (موريتز) على بحر البلطيق بمساعدة شقيقتي الكبرى بعيداً عن براغ على أية حال، بعيداً عن الحجرة المغلقة. في [illegible] أيضاً بتحسس، ثم في (موريتز) [illegible] بمكانة [illegible] كنت قد انتويت بالفعل الذهاب إلى فلسطين في [illegible] تحدثنا عن ذلك، بالطبع لم تكن هذه النية لتتم، لقد [illegible] كان مقتنعاً بأنه لن يغادر فراشه ثانية قط. [illegible] كنت لن أغادر فراشي ثانية قط، فلماذا لا أرحل حتى أبلغ مكاناً كفلسطين؟ لأنني في (موريتز) كنت قد اتصلت بمستعمرة صيفية

(١) هنا يعود كافكا مرة أخرى إلى استخدام ضمير الشخص الثاني المفرد (Du) أنت.

لجماعة من برلين تسمى موطن الشعب اليهودي وكان أعلمهم من نبيين السرقيين. وقد اجتذبتني جدا، وقفت في طريقي، وبدأت أفكر في إمكانية الانتقال إلى برلين. في ذلك الوقت لم تكن هذه الإمكانية تزيد في واقعيتها عن خطة فلسطين. إلا أنها ... قوة وأن أعيش وحدي في برلين كان مستحيلاً ... كل ... ليس فقط في برلين، بل ولا في أي مكان آخر في ... ومن أجل ... لي أحد الحلول ... نفسه في ... (...) ... طريقته الخاصة ... في ... ثم بعد قضيت أكثر من شهر ... في (...) ... سمعت ... المحترقة ... وكتبت لك رسالة في ... لكي أتحدث عن نفسي، لكنني لم ... في النهاية، لأنني لم أكن قد عرفت شيئاً عنك، أخيراً ... هذه الرسالة هي أيضاً قبل أن أغادر برلين. وعن الرسائل الثلاث الأخرى التي ذكرتها، لا أعرف شيئاً حتى اليوم، كنت قد فقدت صوابي بسبب عار كان قد ألصق بشخص ما. لم أعرف بالضبط على أي من الثلاثة المعنيين، إلا أن اليأس بالطبع حتى لو كان مختلفاً في نوعه. ... أكن لأهرب تحت ضغط أي ظرف من الظروف، ولا حتى لو ... قد تسلمت الرسالة بالفعل في (موريتز).

ثم في نهاية سبتمبر غادرت المكان متجهاً إلى برلين. وبعد مغادرتي بفترة قصيرة، تسلمت بطاقتك من إيطاليا، أما بخصوص

(١) يشير كافكا هنا إلى «دورا ديمانت» رفيقته خلال ... الأخيرة.

الرحيل فقد قمت بتنفيذه بآخر رمق من القوة أمكنني أن أستدعيه أو على نحو أكثر صحة قمت بتنفيذه بالفعل بدون أدنى قوة، على نحو أشبه تماماً بالحالة الجنائزية.

والآن ها أنا هنا، وحتى الآن تبدو الأمور في برلين بالغة السوء كما يبدو أنك تظنينها: إنني أعيش في الريف غالباً، في فيلا صغيرة، وحديقة، ويبدو لي أنني لم يكن لي من قبل قط مثل هذه الشقة الجميلة، وإنني لواثق كل الثقة بأنني سوف أفقدها حالا - فهي زائدة الجمال بالنسبة لي، وبالمصادفة فهي بالفعل الشقة الثانية التي أقمت فيها هنا. وحتى الآن لا يكاد الطعام يختلف جوهرياً عنه في براغ، وإن يكن طعامي وحده. ونفس الشيء صحيح بالنسبة لصحتي. وهذا هو كل شيء. ولا يمكنني أن أجرؤ على قول المزيد بعد هذا، وماقلته هو بالفعل كثير جداً، إن الأرواح النجمية تشربها بالفعل في نهم من خلال حناجرها الشرهة. وأنت تقولين أقل حتى من هذا في رسالتك. هل الحالة العامة حالة جيدة محتملة؟ لا يمكنني أن أحل لغزها. بالطبع لا يمكن للمرء حتى أن يفعل في حالته هو الخاصة: وبهذا فـ«الخوف» ليس شيئاً آخر سوى هذا.

فـ.

* * *

عزيزتي ميلينا،

لوقت طويل كان جزء من رسالة ملقى هنا جاهزاً لك[1]، إلا أن الاستمرار ليس سهلاً، لأنه حتى هنا عثرت عليّ الآلام الفذة وهاجمتني وطرحتني أرضاً على نحو ما. في مثل تلك الأوقات

كل شئ قد تحول إلى جهد، كل لمسة بالقلم، كل شئ أكتبه يبدو لى هاماً جداً، بنسبته إلى قوتى، وعندما أكتب (مع أرق تحياتى) – فهل لهذه الكلمات القوة حقاً لكى تصل إلى (ل. شتراسه) «الشارع» الحضرى، الصاخب، الوحشى، الرمادى، حيث لا أستطيع أنا أو ما ينتمى إلى أن يتنفس؟ وهكذا أجدنى فى النهاية لا أكتب على الإطلاق، إننى أنتظر أوقاتاً أفضل، أو حتى أسوأ، أما فيما يتعلق بالباقى فأنا بخير وفى حماية هنا إلى أقصى حدود الإمكانيات الدنيوية. وعن الدنيا أتعلم فقط، وإن يكن على نحو أكثر شدة وتأكيداً، من خلال ارتفاع تكاليف المعيشة. لا تصلنى أى صحف من براغ، أما صحف برلين فهى غالية الثمن جداً – فماذا عن إرسالك مرة من حين لآخر بعضاً من قصاصات (ناروبنى ليستى) تلك التى طالما منحتنى كثيراً من السعادة. بالمصادفة، كان عنوانى فى الأسابيع القليلة الأخيرة هو:

شتجلتس، جرونيڤالد شراسة ١٣، س/و، هر – زايفيرت.

والآن، مع ذلك «مع أرق تحياتى»، فما أهمية إن كانوا قد هبطوا بالفعل عن طريق بوابة الحديقة، ربما تكون قوتك أشد ما تكون.

لك

ك.

(١) ضمير المخاطب «له» هنا بصيغة التحفظ Sie الشخص الثانى الجمع.

إشـارات

المؤلف : فرانتس كافكا

روائي وكاتب نمسوي تشيكي ولد في براغ ١٨٨٣، وقع منذ بدء حياته فريسة لضعف صحته وصرامة أبيه، وبعد حصوله على درجة الدكتوراه في القانون أتاح له عمله في مؤسسة التأمينات العمالية أن يستغل وقته في الكتابة. ويبدو أن علّته «السل» قد شحذت موهبته، فكان يكتب وكأنه يقرأ المستقبل، فتنبأ بمجيء الديكتاتورية ومعها كل ما يتيح لها أن تسحق «الفرد» من خلال آلة قاهرة تتجسّد في صورة الدولة. قضى حياته مغموراً ككاتب، وبمعرفة صديقه «ماكس برود» تم حفظ أوراقه وكتاباته وقصصه، ونشرها تباعاً. توفي في أوج تجربة غرامية يائسة مع «دورا يمانت» التي كانت ترافقه في مصحة بالقرب من فيينا حتى رحل ١٩٢٤ . من أعماله : القضية «١٩٢٥» ، القصر «١٩٢٦» ، أمريكا ـ رواية غير مكتملة «١٩٢٧» ، بالإضافة إلى القصص واليوميات والرسائل.

المترجم : الدسوقي فهمي

قاص وفنان ومترجم. مواليد ١٩٣٨ منوفية. تخرج في كلية الفنون الجميلة، القاهرة، قسم تصوير ١٩٦٣ . حصل على دبلوم دراسات عليا في الآثار المصرية من آثار القاهرة ١٩٧٣ . عضو مؤسس بنقابة الفنانين التشكيليين واتحاد الكتّاب. اعتزل الوظيفة ١٩٩٣ وتفرغ للتصوير والكتابة. من ترجماته : «أمريكا» لكافكا، روايات الهلال ١٩٧٠، «الدودة الهائلة» لكافكا، آفاق الترجمة ١٩٩٧.

الفنان : الدسوقي فهمي

شارك في الحركة التشكيلية رسماً وكتابة في مجلات وصحف عديدة وله عدة معارض عامة ومعرض خاص بالطفولة في مصر القديمة ١٩٨٠ بقصر محمد علي. تتميز أعماله بالحفاظ على القيم الكلاسيكية: في البناء، والتوازن، والتساوق، والتناظر، جنباً إلى جنبه مع إحداث الشحنة التعبيرية الضرورية اللازمة لاستمرار العمل الفني في توليد انفعالات الحياة والحركة، والوصول للمتلقي دونما غموض.

لوحة الغلاف : بورتريه لميلينا.



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ ـ يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
نحن الآخرين	أشــمار ترجمة : أحمد ع. حجازى
صحراء التتــار	رواية : دينو بوتزاتى ترجمــة : موســى بــدوى
الحــب	رواية : مارجريت دورا ترجمة : د. فوزية العشماوى
أســاطير	تأليف : رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق
نشيد بحرى	شعر : فرناندو بيسوا ترجمة : المهدى أخريف
هبة الطوطم	أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق
أزهــار الشــر	شعر : شارل بودلير ترجمة : محمد أمين حسونة
مــرآة الحبر	نصوص : بورخيس ترجمة : محمد عيد إبراهيم
النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
الشعر والتجربة	تأليف : أرشيبالد مكليش ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسى
رامبو وزمن القتلة	تأليف : هنرى ميللر ترجمة : سعدى يوسف
مداخل الشعر	تأليف : باختين . لوتمان . كوندراتوف ترجمة : أمينة رشيد . سيد البحراوى
باختين : المبدأ الحوارى	تأليف : تودوروف ترجمة : فخرى صالح

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ ـ يونيو ٩٧)

عـراف الضـوء	شعر للمكفوفين الإسبان ترجمة : إلهـام عيسى
التأويل والتأويل المفرط	تأليف : امبرتو اكو ترجمة : ناصر الحلوانى
عصر البنيوية	تأليف : إديث كريزويل ترجمة : د. جابر عصفور
الدراسة النفسية للأدب	تأليف : مارتن ليتداور ترجمة : د. شاكر عبد الحميد
هبوط الليل	شعر : و. هـ. أودن ترجمة : د. ماهر شفيق فريد
الغرفة الفارغة	شعر : جاك آنصى ترجمة : محمد بنيس
قصيدة النثر	تأليف : سوزان برنار ترجمة : د. زهير مجيد مغامس
ساعى البريد يدق الباب مرتين	رواية : جيمس كين ترجمة : أحمد عمر شاهين
قصر الضحك	شعر : زبيجنيف هربرت ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم
الملاك الصامت	رواية : هاينرش بول ترجمة : طلعت الشايب
مصباح اللغات	الشعر الفارسى المعاصر ترجمة : محمد اللوزى
الأنا الآخر	قصص من أمريكا اللاتينية ترجمة : د. طلعت شاهين
السرير المائعة	شعر: بول ايلوار ترجمة : إدوار الخراط
همس الأمواج	رواية: يوكيو ميشيما ترجمة : مدحت محمد عبد العزيز
الموجة الغائلة	كافكا، الأعمال الكاملة ـ ١ ترجمة : الدسوقى فهمى
النقد الأدبى	مجموعة نقاد فرنسيين ترجمة : د. هدى وصفى

★

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٧ ـ يونيو ٩٨)

اغانى شيراز (ج ١)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشوارى
حرب مع السمندر	رواية: كارل تشابك ترجمة : حسين العامل
هذا هو الإنسان	تأليف : نيتشه ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد
منظورات	نصوص : چورج حنين ترجمة: بشير السباعى
اغانى شيراز (ج ٢)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشوارى
رسائل إلى ميلينا	رسائل: كافكا ترجمة : الدسوقى فهمى

فى الأعداد القادمة

هنرى ميشو (مختارات)

تيد هيوز (مختارات)

بيانات السوريالية (أندريه بروتون)

تاريخ موجز الاتحاد السوفيتى (جارودى)

فرانتس كافكا 2

كان كافكا يستعين فى كلامه بأعضاء جسمه ووجهه، وإن استطاع أن يكتفى بحركةٍ فعل، وكان بسيطاً خجولاً، فكأنما يقول لمحدثه: أرجوك، إننى أقل كثيراً مما تظن، وإنك لتستطيع أن تُسدى لى خدمة كبرى إذا ما تجاهلتنى.

هو اليائس، الصامت، المعذّب، المريض، وأحياناً المجنون. سمة حياته البارزة هى الغضب، الذى يولّده القلق، والذى يُحيل نفسه إلى أبخرة سامة عند ملامستها الحياة.

بعد فترة طويلة، آن لأعمال **كافكا** الكاملة أن تظهر. قدمنا له مختارات من القصة الطويلة بعنوان «الدودة الهائلة». وفى هذا القسم الثانى نقدم مجموعة **الرسائل الكاملة إلى ميلينا** Milena حبيبته وصديقته ومترجمته:

«كتابة الرسائل... معناها أن يتجرد المرء أمام الأشباح، وهو ما تنتظره تلك الأشباح فى شراهة. ولا تبلغ القبلات المكتوبة غايتها، ذلك أن الأشباح تشربها فى الطريق».

كافكا، فى رسائله هنا، لامرأة متزوجة، إنسان عذب، زايله التوتر مؤقتاً، واسترخى عاشقاً ، فى غير انتباه، لآلهات النقمة اللائى يطاردنه: (الزهور تتفتح فى بطء أمام شرفتى ... وتزورنى فى الغرفة السحالى والطيور وأنواع متباينة من الكائنات، أزواجاً أزواجاً... إننى أتوق فى لهفة بالغة إلى أن تكونى هنا فى ميران!) أو هكذا يتشبث بقمة سياج الحياة، ثم يسقط سريعاً، متراجعاً، بأيدٍ جريحة متسلخة.

... إنه كافكا، وكفى! ★

Franz Kafka
Complete Works - 2

